خيول الشمس (ملحمة الجزائر)

الجزء الخامس

الأرواح المحرمة

جول روا

ترجمة : ضياء حيدر

نبذة عن المؤلف:

ولد جول روا في الجزائر 1907 في واحدة من عائلات المستوطنين الفرنسيين، وتابع دروسه الثانوية في المدرسة الإكليريكية، قبل أن يدخل إلى السلك العسكري في جند المشاة ثم الطيران العسكري في فرنسا لينتقل بعدها إلى بريطانيا ويشارك في الجيش الفرنسي للتحرير. في العام 1946 يغادر الجيش الذي اعتبر حربه في شبه الجزيرة الهندوصينية مخزية، ليتحول بالكامل إلى العمل الأدبي. حاز العديد من الجوائز الأدبية. وأصدر إلى أعماله الروائية والقصصية التي وصلت إلى أكثر من ثلاثين عملاً، أعمالاً مسرحية وشعرية. سنين حياته العشرين الأخيرة أمضاها متفرغاً للكتابة في فيزاليه، شمال شرق فرنسا وتوفي فيها 15 يونيو 2000.

من أعماله الروائية: "خيول الشمس"، 1968 - 1972،"صحراء ريتز"، 1978، "موسم زا"، غراسيه، 1982.

ومن أعماله القصصية: "سماء وأرض"، 1943، "الوادي السعيد"، 1948، "البحار"، 1954، "الخائنة"، 1955، "الحروب الصليبية الجميلة"، 1959، "حرب الجزائر"، 1960، "معركة ديان بيان فو"، 1963، "رحلة إلى الصين"، 1965، "موت ماو"، 1969، "رقص شرقي على وقع المدافع"، 1976، "بيروت، يحيا الموت"، 1984، "حب ما بعد الحرب"، 1995.

خيول الشمس «ملحمة الجزائر»

الجزء الخامس

الأرواح المحرّمة

تأليف: جول روا

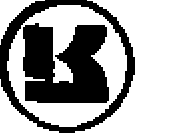
ترجمة: ضياء حيدر

الطبعة الأولى 1432هـ 2011م
حقوق الطبع محفوظة
© هيئة أبوظبي للثقافة والتراث (كلمة)

ملحمة الجزائر : (خيول الشمس). الجزء 5، الأرواح المحرمة
جول روا

PQ2635.O9654 A7712 2011
Roy, Jules, 1907-2000
[Ames interdites]
ملحمة الجزائر : (خيول الشمس). الجزء 5، الأرواح المحرمة / جول روا ؛ ترجمة ضياء حيدر.-
ط. 1.- أبوظبي : هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، كلمة، 2011.
310 ص. ; 20x13 سم.
ترجمة كتاب : Les âmes interdites
تدمك: 7-853-01-9948-978
1. القصص الفرنسية. أ. حيدر، ضياء. ب.العنوان.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الفرنسي:
Jules Roy
Les chevaux du soleil



www.kalima.ae
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 468 6314 2 971+ فاكس: 462 6314 2 971+



www.adach.ae
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 300 6215 2 971+ فاكس: 059 6336 2 971+

الأرواح المحرّمة

إهداء

إلى زوجتي تاتيانا التي شاركتني أمل كل يوم وخيبته، على امتداد السنوات العشر التي استغرقها هذا الكتاب.

وإلى كل من ألهمني.

إلى الشخصيات الكبيرة التي جرفتها رياح التاريخ، من البارون دوبريه إلى الجنرال دو بورمون حتى ديغول، وأيضاً إلى أبناء ذاكرتي ومخيلتي، من الجد الأول مارجول إلى كل رجال دو رواي، من الكولونيل غربيه إلى أستاذ روفيغو الذي هو أبي.

إلى كل النساء اللواتي لهن اسم نجمة وقلباً من ألماس، وكل اللواتي لا يهزمن، إلى ذاكرة أمي في ثورتها ثم في خضوعها، إلى دموع إليز.

إلى كل أهلي الذين دمرهم حبهم لأرض احتضنتهم، لمن اعتقدوا أنهم ماتوا عبثاً، كما لكل من سقطوا من أجل كرامتهم ومعتقداتهم، إلى أخي الذي أنهى حياته بالقرب من بيربينيان بهاجس أن تفوته اللحظة التي عليه أن يذهب فيها إلى عمله في محطة القطارات الجزائرية الرسمية.

إلى كل من حارب من أجل الحق، إلى أبناء البقّالين من القبائل وعمال المزارع الذين شاركوا في الثورة، إلى من ذبحوا وقتلوا وعذبوا، إلى كل من لم يجدوا أيّ عزاء بعد خسارتهم الجنة... وإلى من استعادوا كرامتهم بالألم والعنف.

أهدي عملي هذا.

جول روا

المحتويات

مقدمة المترجمة

غالباً ما يجري تناول البعد السياسي والاقتصادي أو حتى الثقافي للاستعمار، لكن قلما يجري تناول البعد الاجتماعي والآثار العميقة التي يحدثها الاستعمار - لا سيما ذلك الذي يستمر لأجيال مديدة كحال الاستعمار الفرنسي للجزائر - في حياة المجموعات والأفراد على حدّ سواء. وقد حقّت تسمية هذه الرواية بالملحمة، لا لامتداد أحداثها إلى زهاء مئة وثلاثين عاماً فحسب، بل بصورة أساسية لأنها تصحبنا في رحلة إلى تلك التحولات الاجتماعية التي ضربت جذورها عميقاً ليس في حياة المستَعمَرين ووعيهم فحسب، بل أيضاً في حياة المستعمِرين ووعيهم، أو كما يصف الكاتب نفسه ذلك:

«حملة العام 1830، ذلك الغزو الدموي الذي استمر مصهراً للاختبارات، صراع السلطة، التنافس السياسي، الطروحات الكولونيالية ونقيضاتها، الأوهام، ظهور الأفكار الجديدة، صراع الديانات، المسافة مع الوطن الأم، كل هذا يبدو لي حلقة هائلة. حرب 1870 مع ألمانيا، الحرب العالمية الثانية، الصراعات الكولونيالية في مكان آخر، صراع الأمم، مشاكل التوطين، الحنين، الممانعات العنيفة للاستيعاب المستحيل أو التساكن، الميول الانفصالية، العنصرية، الكوارث الطبيعية، كما تمجيد الأحلام الإمبراطورية، كل ذلك كان يزمجر كأنما في قفص للأسود. بالنسبة للعائلات التي كانت مركز اهتمامي الأول، والتي أتت من كل أوروبا وخاصة من البحر المتوسط، فقد تصادمت في طموحاتها وشهرتها، بارتباطها أو ابتعادها عن الآخرين، وشكلت العناصر التي تحركت من

خلالها عائلتي الخاصة ذات الأصول المتواضعة، ضمن شبكة مذهلة من العلاقات العاطفية والأحقاد والنكبات والانتصارات وكل ما يشكل حياة البشر لشعب كامل على امتداد الزمن. ثم يأتي المواليد الجدد، ويطرح الموت الذي يخطف شخصيات تعلقنا بها سؤال الوراثة. تغيب شخصية واحدة ويكون علينا إعادة توليدها بشكل آخر، في جيل آخر، لضمان استمرارية الحدث وتواصله مع الورثة في الدم وفي الروح. وعندما لا يكون هناك وريث مباشر، نخلق لاحقاً بعد عدة سنوات، براعم من غصن قريب».

هي رحلة مأساوية إذن نتعرف من خلالها على مصائر أجيال ممتدة، تكاد تكون حياتها صورة عن ذلك العنف الذي عصف بأرض الجزائر؛ ونقف وجهاً لوجه في الأثناء على الدعاوى الزائفة التي انطلق منها الاستعمار واستمرّ قائماً عليها، ولا سيما دعوى «تحرير الشعب الجزائري» من محتلّ آخر أو من حاكم جائر؛ كما نتعرف في ثنايا الرواية وتحولاتها وأحداثها على تلك الظاهرة التي يبدو أن لا مفرّ منها، وهي ولع المستعمرين أو المستوطنين بالأرض التي استوطنوها، حتى يستحيل ما بدأ كذبة أو خدعة إلى واقع سرعان ما يتشظى أمام واقع آخر، وولع آخر، هو ولع سكان الأرض الأصليين – مثلما اعتاد الفرنسيون أن يسمّوا الجزائريين – بأرضهم.

عندما بدأ جول روا كتابة «خيول الشمس» في العام 1966، لم يكن قد مضى على تحرير الجزائر سوى أربع سنوات، وهو ما دفعه كما يقول في مقدمة طبعة العام 1995 من الرواية إلى التردد، «لأنني لم أكن أملك الثقة بالنفس»، بيد أنه تجرّأ أخيراً على خوض المغامرة، لتأتي روايته هذه ليس

فقط من وحي زمنٍ معاش وإنما أيضاً من وحي تجربة عميقة للكاتب نفسه، الذي عاش التجربة الفرنسية في الجزائر بكل أوجهها، حتى تكاد تكون الرواية في أحد مستوياتها، سيرة ذاتية، بنيت على سيرة عائلتين، واحدة منهما هي عائلة الكاتب نفسه، على امتداد أكثر من قرنٍ من الزمن، منذ تاريخ الغزو في 1830 وحتى استقلال الجزائر في 1962، ولتغدو بذلك العمل الملحمي الأهم الذي تمكن من أن يغطي بالكامل مرحلة الاستعمار الفرنسي للجزائر، وذلك من خلال رصد أعقد تفاصيل الحياة اليومية وأبسطها على خلفية أحداث وشخصيات حقيقية، وغيرها متخيلة غير أنها مستقاة بدورها من شخصيات عرفها الكاتب وعايشها عن كثب.

والأهم أنه حتى التفاصيل اليومية متأتية من التجربة الشخصية للكاتب الذي هو نفسه «هكتور كونيغ» في الرواية، الذي ولد مثل «هكتور» في روفيغو (وهي التسمية الفرنسية لمدينة بوقرة خلال احتلال الجزائر) نتيجة علاقة غير شرعية بين أمه المتزوجة من شرطي، واسمها الحقيقي «ماتيلد» كما في الرواية، وأستاذ مدرسي هو أيضاً «ديماتون»)، وهو والده الحقيقي. كما انه عاش في الحقيقة تجربة المدرسة الإكليريكية التي غادرها لينتقل إلى الجيش ويعيش تجربة الحرب الفرنسية في الجزيرة الهندوصينية في إطار سلاح الجو، وهي التي ولدت لديه تحولاً كبيراً، ليصبح واحداً من كبار المنتقدين لهذه الحرب وللحرب في الجزائر، ومن المؤيدين لحق الجزائريين في الدفاع عن أرضهم. وهذا ما أعطى هذه الملحمة التي كتبها على امتداد عشر سنوات القدرة على أن ترسم بموضوعية كاملة تجربة الاستعمار الفرنسي للجزائر.

بيد أن هذه الملحمة بنيت أيضاً على جهدٍ توثيقي هائل يمنح الرواية

ثقلها التاريخي الضروري الذي يجعلها تأريخ حياتي حقيقي للتجربة الفرنسية في الجزائر. والجدير ذكره أن الرواية وضعت في البداية في ستة أجزاء منفصلة صدرت بالتوالي منذ العام 1968 وحتى العام 1972، ثم قام الكاتب بتلخيصها لتقدم عملاً تلفزيونياً عرضه التلفزيون الفرنسي في 1980 في أثنتي عشرة حلقة. ليعود ويجمع في 1995 الأجزاء الستة في مجلد واحد أسماه ملحمة الجزائر.

لم تكن ترجمة هذه الرواية بالعمل البسيط، ومثل الكاتب نفسه عندما بدأ بكتابة ملحمته، فإنني لم أكن واثقة من مقدرتي على خوض غمار مثل هذه المغامرة، خاصة وأن ترجمة مثل هذا العمل لابدّ من أن تقودنا إلى التاريخ بتشابكاته وتعقيداته، وأيضاً إلى الجغرافيا الجزائرية المعقدة، حيث يصعب في كثير من الأحيان العثور على اسم قرية أو شارع أو الوقوف على كافة تفاصيل واقعة تاريخية معينة، قد تمرّ في السرد بصورة ثانوية، غير أنها قد تكون عائقاً أمام الإحاطة بأحداث أكبر وأهم تأتي لاحقاً. هذا ناهيك عن التحدي الذي فرضه أسلوب الكاتب نفسه. ذلك الأسلوب المتسم بالتنقل بين عدة مستويات سردية، تبدأ وصفية مجردة أحياناً لتغوص الشخصية فجأة في رحلة من التداعيات المنفصلة عن السرد الواقعي للأحداث أو لمحادثة ما... غير أن هذا الأسلوب على تعقيده هو ما يمنح ذلك العمق الحقيقي للرواية، وكأنها النسخة المخبأة لها أو للواقع الذي تسرده، وهو وإن كبد المترجم، والقارئ بطبيعة الحال، بعض العناء، إلا أنه يمنحه شعوراً بـ «الأمانة التاريخية».

ضياء حيدر

الجزء الأول

الأرواح الملتهبة

أكثر اكتواء بنارٍ لم أضرمها...

راسين، أندروماك

في هذه البلاد رجلان خاصان: لديهما حس إنساني، يعرفان العدالة ويحبان الفضيلة.

مونتسكيو، رسائل فارسية

الفصل الأول
البرقية

يعود القارئ من جديد إلى مزرعة آل باري في سيدي موسى، 28 أبريل 1910، عندما يصل ساعي البريد حاملاً البرقية.

1

طوال طفولتي وهم يرددون على مسامعي أنني لست جميلة جداً (أقلّ جمالاً من ماتيلد على أية حال)، إلا أنني لا أجد نفسي دميمة. هناك أيام – لا أعرف السبب، ولكن لعله اعتدال الطقس كما هذا الصباح وأنا أترجل من الحافلة، أشعر فيها أنني أتفتح وأشرق وأغدو ضوءاً أو وردةً. في

الظل كل شيء يخفت؛ لا أعود سوى ماري فاليسي باري، أرملة كارنيتو، مع قدرٍ ما من... ماذا؟ الخبث كلمة قوية جداً. ربما العقلية النقدية. فأنا ألذع وأكشف النوايا المخبأة، ولا أدع الأعراف تعترض طريقي، أخفي نواياي السرية، ولا تهمني التقاليد. في ما يخصني، لا يمكن الحديث عن النجاح، ولكن ماتيلد... بالكاد تفكّ الحرف في حين ألتهم الكتب التي تقع بين يدي، إنها لريفية حقة لا تعرف حتى ما معنى رواية. كيف أمكن لمدرّس أن يُفتن بفتاة مثلها بوجهها المخادع ذاك؟ رقة وكآبة، زنبقة هشة منهكة، رموش طويلة لعينين نصف مغمضتين، زهرة الآلام مع المسامير وتاج الشوك...

لذلك سأروي لكم على طريقتي – وهي الرواية الوحيدة الحقيقية – وقائع ما جرى.

في هذا اليوم، عندما دقت منتصف الحادية عشرة بدأ سيزار يعوي.

رفعت ماتيلد عينيها نحو البندول، وضعت القماشة التي تحيكها من يدها، ودون أن تتحرك، وكأنها تعلن الفصل بين عملٍ وآخر، قالت إنها ستعد المائدة.

في المزرعة الأم هي التي تعد الطعام، فهي تحب ذلك ولامرأة في عمرها، في الخامسة والستين أو تكاد، فإن الطبخ يشغلها، ويُعدّ جزءاً من وقارها كأرملة ثرية. ما عدا في المناسبات الكبيرة حين تترك هذا الأمر لماتيلد (ماتيلد تفرض نفسها هنا في المطبخ كطاهية ماهرة مما يعفيني شخصياً من الطبخ). خلال الأسبوع، وما عدا المفاجآت، يكون التفنّن من اختصاص الأم، أما أعمال السخرة: مدّ المفرش، التأكد من وجود ماء

في الإبريق على المغسلة، فهذا من واجب ماتيلد، أو نحن الفتيات، عندما نكون موجودات.

في الواقع، نظفت ماتيلد الطاولة، وجاءت بالأطباق والأقداح من الخزانة والشوك والسكاكين والفوط من الدرج، والخبز وقنينة النبيذ الوردي والإبريق الفخار من المطبخ. كانت تفكر بإرسال «مفتاح» إلى البئر لأن الصفيحة تكاد تفرغ، عندما علا عواء الكلب وغدا متوحشاً.

في العادة، يكون عواؤه نوعاً من الضجيج الآلي، وكأنه آلات تصفر أو تطرطق طاحنة الحصى على الطرقات وتجرّ المحاريث أو تدير الحصّادات، وعندما يكون مقيداً يضاف إلى عوائه ضجيج حفيف السلسلة بباب وجاره.

في هذا اليوم، ما إن سمعت ماتيلد صوت السلسلة، حتى خرجت إلى الدرج فلم تر شيئاً. يبدو أنه شيء ما خلف شجر الزعرور والتين والسرو والقصب على الطريق، قبل الدخول في الزقاق المؤدي إلى المزرعة.. بما أنها لم ترَ زيزي، بدأت تقلق ولكن ليس بقوة، لأنها لا ترى أيضاً فكتور، ذلك أن زيزي يكون دائماً برفقة فكتور. ووسط هذه الكتلة اللامرئية، يعوي الكلب الذي بات صوته أكثر غلاظة وجلفاً وتوتراً؛ كم بات له من العمر؟ خمس سنوات؟ ست سنوات؟ ليس على أية حال العواء الاعتيادي لكلب يؤدي واجبه، في حراسة الأملاك الخاصة؛ هذا النغل المتكبر الماكر الخبيث الذي تنكر لإخوانه في الدوار، هذا الخادم المتذلل للسادة المحتقر للخدم باستثناء «مفتاح»، ثمرة تقاطعات غامضة؛ إذ أن دم سيزار الأول والذي يتمظهر في أذنين منتصبتين وصدر عريض وشعر كث خشن، اختفى أثره. فمنذ أكثر من نصف قرنٍ وهذه السلسة الحديد تربط «سيزارات» مثله:

لمّاعة كالبلاتين مع بريق الفولاذ المصقل والطوق الجديد أو حلقة الربط التي صنعها حدّاد سيدي موسى، والشبيهة بسلاسل طقم الحصان التي بعد زمن، وبفعل الحفّ المتكرر، تنقطع. يهزها سيزار ويجرها ويسحبها معه عندما يندفع نحو شيء ما أو لكي يعود للحظة ويحتمي في وجاره على التبن الذي وضعه مفتاح، وبذلك كشطت السلسة الخشب وانتهى الأمر بإحداث حفرة، نوع من الكبلية[1] كما يقول فكتور الذي تعلم المصطلحات البحرية: بالنسبة إليه وجار الكلب هو بمثابة مرساته، فإذا ما قارنّا الكلب بالسفينة...

واقفة عند عتبة الدرج، قالت ماتيلد لنفسها إن الأمر غير طبيعي، وإن ثمة خطباً ما، ثم خطرت لها فكرة أنه منذ تسع سنوات، في يوم قريب من هذا الوقت من العام دخلت إلى بيت المدرّس؛ وعندئذ مرّ أمامها شريط حياتها. كان ذلك في التاسع والعشرين من أبريل، أما اليوم فنحن في الثامن والعشرين من أبريل 1910، خميس الأسبوع الثالث بعد عيد الفصح الذي جاء مبكرا جداً هذا العام، في السابع والعشرين من مارس. كان اليوم رائعاً، دافئاً، بل يكاد يكون حاراً، وقت حقيقي للهللويا، وإن استمر الطقس هكذا فيجب سقاية شجر البرتقال المزهر الضوّاع إلى درجة أنه عندما تهبّ عليك رائحته تستنشقها بكل لذةٍ ولكنها تصعد بعد ذلك إلى الرأس. من جهتي عندما وصلت إلى المزرعة في الليلة السابقة ونزلت من الحافلة عند مفرق الزقاق كانت المرة الأولى التي أقول فيها: «شجر البرتقال...».

في البداية فكرت ماتيلد: «لا شيء، إنه الكلب...». وعلى الرغم من

(1) الكبلية هي فتحة كبل المرساة في مقدمة السفينة.

ذلك فقد نظرت إلى مدخل المزرعة وفجأة رأت العجلة الأمامية للدراجة ثم ساعي البريد ثم فكتور وزيزي الذي تبعه مهرولاً.

استدارت إلى الأم، وقالت بصوت مرتجف:

«إنه ساعي البريد...».

ساعي البريد، في الواقع هذا توقيته: تماماً قبل موعد الغداء. لم يكن أمراً غير عادي؛ الكلب حانق فحسب. عند وصول الساعي كان سيزار ما زال يعوي ولكن ليس بالقوة عينها، بذلك العنف والنتع بالسلسلة!

استنتجت ماتيلد فوراً أن الأمر ليس اعتيادياً. توقف ساعي البريد، أسند دراجته الهوائية بصورة جانبية، وفتش في محفظته، ثم أخرج شيئاً ما وأعطاه لفكتور الذي قرّبه من عينيه ثم بعّده وقرّبه ثانية، ثم أمسك بيد زيزي التي تركها للحظة وانطلقا معاً، في حين اختنق سيزار المجنون من التوتر، وما عاد قادراً على التنفس إلى درجة أن فكتور صاح به: «سيزار، يا إلهي...» ثم تظاهر بالانحناء لالتقاط حصوة ليضرب بها الكلب، فصمت هذا مكتفياً من العواء والحوزقة، لأن سلفه الكلب القبلي أورثه الجبن.

الأمر الاعتيادي هو أن يمرّ ساعي البريد بين الحادية عشرة والنصف والثانية عشرة ظهراً إلا ربعاً، أي عند مدّ المائدة. ولكن ما ليس اعتيادياً هو ما أعطاه لفكتور.

في النهاية توقف سيزار عن العواء فقط صورياً، ليُسمع صوت عجلات الدراجة على حصى الطريق. عندما وصلا إلى أسفل الدرج تحت المظلة سألته ماتيلد:

«ما هذا فكتور؟».

دون حتى أن يرفع رأسه وقد غطت قبعته القش القديمة عينيه:
«إنها برقية لك».

إنها بالطبع من أحدٍ ما يعلن وصوله، ولكن من يكون؟ ديزيريه ابنها البكر يأتي عندما يشاء؛ أنا وأختنا لايتيتا أيضاً. ربما يكون هكتور، الكولونيل، فهو يحب القيام بحركة كهذه: أن يستبق وصوله ببرقية لكي يحظى باستقبال الأمراء، هو ومارغريت. فقد احتفظ بهذا النوع من البدع من أيامه في الجيش. على الرغم من ذلك استبعدت ماتليد بسرعة هكتور من حساباتها. إذن قد يكون أحداً من روفيغو، مشكلة ما في الفندق أو لدى عائلة فيرتو، أو ديماتون، هو ليس من العائلة، وأسوأ من ذلك، هو غريب يمر ليلقي السلام، نقدم له القهوة أو الفطور، نتبادل معه الحديث، ثم يغادر مثلما جاء، ونبقى مع الأخبار الجديدة، نعيد ترتيب الكراسي، نجترّ ما قيل على امتداد السهرة، نروح نصفه من كل الجهات والزوايا ساخرين بلطف منه، متسائلين حول سبب زيارته، فرحين لاكتشافنا: «آه، هكذا إذن...». ثم يعود كل شيء إلى سابق عهده. لا، ديماتون، مع الاضطراب الذي حمله...

نحن، نحن معتادون على الأشياء المرتبة والمنتظمة.

في البداية، ظن المدرّس أن في إمكانه المجيء إلى المزرعة وقت يشاء، إلا أن الأم وضعت له حداً. «ابنتي، أنت متزوجة وما زال زوجك على قيد الحياة، طردك فاستقبلتك مع ابنك، فليبق المدرّس في مدرسته. هناك أشياء لا يجدر فعلها في الحياة، إن كان يريد أن يراك هنا...». إذن، ماتيلد افترضت أن البرقية منه. فعلى الرغم من هذه الفضيحة أرسلته الإدارة إلى

بوينت بيسكاد[1] حيث حصل على منصب مدير، فهو مدرّس مقتدر يستطيع تحصيل نتائج جيدة لطلابه. ولكن عندما يأتي ليرى ماتيلد وابنها عليه أن يراعي الأم ويرسل برقية قبل وصوله. ثلاث كلمات: «أصل الخميس. هنري». في الجزائر، يستقل الحافلة التي تنزله عند مفترق غراند روت، وتذهب ماتيلد للقائه مع زيزي.

مدّ ساعي البريد لهكتور الصحيفة مع البرقية التي لم يأخذها بعد.

– ماذا تريد سيد باري إنها إعادة شحن.. حتى إن كلفتها أعلى لأن فيها ثلاث كلمات إضافية. كم لو أنكم أنتم من بعثتم بها.

– ماذا يوجد بداخلها؟

– آه، هذا...

لم يفهم هكتور كيف عليه أن يدفع لكي يتلقى شيئاً غير متوقع، قال لماتيلد:

«هل لديك فرنكان وعشر سنتيمات؟».

لوى ساعي البريد مقود دراجته باتجاه الحائط رفع قبعته وجفف عرقه.

تنبهت فجأة ماتيلد إلى أن البرقية ليست من رجلها هنري، نظرت للحظة إلى زيزي الذي وضع يديه في جيبيه وأخذ ينتظر مطرق الرأس قليلاً بهيئة الولد المدلل ثم دخلت إلى المنزل بهدوء وكأنها ذاهبة للصلاة.

«في الخزانة، ابنتي...».

تحت كومة الأغطية إلى الشمال، هناك محفظة النقود وعلى الرف فوقها

(1) Pointe Pescade سابقاً و«الرايس حميدو» اليوم، تقع في تيبازة على بعد ثلاثة أميال من مدينة الجزائر.

تحت الفوط صندوق المال مع القطع النقدية وحزمة من الأوراق النقدية. عادت ماتيلد ونقدت ساعي البريد المال وأخذت البرقية. في العنوان المكتوب بخط اليد: *مدام كونيغ، منزل مدام باري، سيدي موسى.*

2

اليوم كان الذباب مزعجاً. فربما للتذكير بوجوده، صار فكتور يتنحنح، فنحن نشترك بهذه العادة، ندّعي أنه بسبب الزرع، ليس عطاساً كاملاً بل سعالاً خفيفاً متواصلاً، نوعاً من البحة في الحلق. أحياناً يحسب الآخرون أننا نريد قول شيء ما ولكن لا. في بعض اللحظات تحلّ فعلاً محلّ الحديث: بوجود هذا العيب نحن نسأل ونجيب. فمن خلال سعاله الخفيف المتواتر يريد فكتور القول: «إذن، ما هذه البرقية؟».

لم أحتج لإغماض عيني لكي أتخيّل المشهد. أشاهد كل شيء وكأنني جالسة في الصف الأول في دار أوبرا الجزائر، أشاهد الشخصيات الموجودة هنا: ماتيلد والأم وفكتور وزيزي، غير أن أكثر من يربكني هو زيزي.

في بادئ الأمر لا نتوقع ذلك، فشخص في عمره ليس من المفترض أنه يحسن تقدير الأمور. أنتم مخطئون. برأسه المحني وشعره المجعد الكستنائي الذي يصل حتى كتف كنزته الصوفية الزرقاء المزررة حتى العنق، ونظرته المنكسرة، كما لو أنه غير سعيد، نفترض بأنه يتساءل لا بل أنه يعرف، بأنه يحاكم أو يستنكر. فهو ليس فقط الدليل عما جرى بين ماتيلد والمدرّس، ولكن أيضاً الشاهد.

فهو يضعني في مزاج سيء. ومن وقتٍ لآخر أسأله وكأنه شخص بالغ:

«وأنت ماذا تعتقد؟».

يرميني بواحدة من نظراته، ثم ودون أن يجيبني، يحني رأسه. يعرف أن يتكلم عندما يكون لطيفاً. ما كان يصدمني لديه، ففتاتي مثلا لا تشبهه، هو قوة الرفض لديه. «لا أريد...» لا أريد أن أفعل هذا، لا أريد أن أتحرك، لا أريد أن أذهب هناك، لا أريد أن أنام، لا أريد أن آكل... ماتيلد ضعيفة جداً والأم أكثر. ليس حفيدها الأول ولكنه الأثير عندها. مساء، تضعه على ركبتيها وتحضنه، إنها اللحظة الوحيدة التي يطلق فيها الطفل العنان لعواطفه.

أراد فكتور أن يخفي حشريته التي كانت تلتهمه، وفي الوقت ذاته أن يظهر رقته. فألحت عليه نوبة سعاله الخفيفة المزعجة: «حسناً، ماذا هناك في البرقية؟ فلنرَ ما فيها...»، تظاهر بالمرح: إنها الرغبة في أن يعرف بأسرع وقت ممكن ما تحويه الورقة خاصة أنه لا يخاف شيئاً، إذ أنها غير موجهة له، فإن كانت خيراً سيستفيد منه وإن كانت شراً فهذا لا يعنيه. في هذه الحالة، تتفجر فيه كل مظاهر الحيلة، وتلتمع عيناه ويتروس منخاره ويتخذ شارباه مظهراً مضحكاً، فوضى من التجاعيد الصغيرة تغزو جبهته المغطاة بالقبعة القش القديمة المهترئة التي لا يخلعها أبداً بهدف إخفاء بداية صلعه. يبدو أنه اختار زيزي كمساعد.

استدارت الأم باتجاه ماتيلد:

«اقرأي لنا يا فتاتي».

وإذا بصمت مذهّب (وهي الكلمة التي استعملتها ماتيلد) يخترقه صياح الديك في الباحة والأزيز الساخط لذبابة في المصباح. بظفرها

كشطت ماتيلد بأناقة الطرف الملصق للرسالة وفضت الورقة، تحركت شفتاها وهي تحاول فك حروف الرسالة، وبدا أنها لبعض الوقت لم تفهم، أعادت قراءة الرسالة مرة أخرى، وشحب وجهها، جلست على المقعد، وأسندت كوعيها على الطاولة وتركت البرقية تسقط، بنظرة ساهية، دون أي كلمة.

لو لم يتماسك فيكتور نفسه لكان اندفع وخطف الرسالة. ولكن لا مجال لحركات كهذه مع الأم. وفي النهاية إشارة قبول صغيرة من الأم لفكتور الذي وبسرعة خاطفة حمل الورقة، وبصوته الذي يبدو وكأنه يخرج من أنفه وبقراءته المدرسية المتأنية قرأ: *نأسف لإعلامكم بوفاة الأستاذ ألفرد ليون كونيغ*.... وردد وفاة بوجه دراماتيكي. وأكمل: *الثامنة من صباح اليوم، مدير مستشفى مصطفى*. وضع البرقية على الطاولة وسأل: «أكنت تعرفين أنه في المستشفى؟».

هزت ماتيلد رأسها بالنفي. ولم تأت الأم بأي حركة وقالت لفكتور: «أعد القراءة».

قرأ الكلمات بصورة متقطعة ثم بدا وكأنه يدقق لكن لا أرقام، إنه فقط توقيت الإرسال. «ماذا إذن؟ كيف مات؟ هل علينا أن نحضره أم أنهم سيرسلونه؟». حاول أن يعرف عدد الكلمات أوقفته الأم:

– ولكن ماذا تفعل؟

– كان من المفترض أن يخبرونا كيف حصل ذلك.

– في المستشفى، استنتجت الأم.

وأضافت: «لا يمكننا أن نتركه هناك».

لم تعلق ماتيلد، تجمد وجهها ووجه أمها. توقف فكتور عن العد: إن

أعطى المدير المزيد من التفاصيل لكانت كلفت البرقية مالاً أكثر. ثم عاد ليعد الكلمات من جديد إذ حيّره الأمر: «ينقص ست كلمات».

نظرت إليه ماتيلد: «العنوان».

بدا فكتور مرتاحاً: إحدى وعشرون كلمة مع الاسم والعنوان.

ها لقد فكروا بي إذن.

بالرغم من أن ديزيريه الابن البكر لرجل الشرطة الذي قارب العشرين ويعمل لدى ميكانيكي من بلكور[1]، كان بالطبع في أجواء ما يجري ولكن كيف يمكن الاتصال به؟ لديهم عنوان غير واضح تماماً ولكن بما أن علاقته بوالدته باردة من دون أن تصل لحد الخصومة... الأمر بالنسبة لي كان أسهل: أنا أرملة. سأترك دكاني لابنتي ماري: باتت قادرة على إدارة البقالة مع ماري الأخرى وأنجيل (ابنتا أنطوان بويشو الذي يكون ابن اخت أمي ومارغريت، الابن الثاني للشيخ مارجول الذي لم ينجح في شيء سوى الانتقال لمدينة الجزائر) اللتين تأتيان لمساعدتي وكسب قرشين.

قالت الأم لفكتور: «بعد الغداء، ستذهب إلى سيدي موسى لتكتب إلى ماري» (ماري هذه هي أنا إذ يكاد لا يكون هناك أسماء في العائلة سوى اسم ماري).

نظرت إلى البندول ثم إلى ماتيلد: «مدّي مفرش الطاولة».

عند الدرج وبصوتٍ عالٍ طلب فكتور من مفتاح جلب الماء، فدخل بسرعة لإحضار الإبريق وتوجه نحو البئر. نهضت ماتيلد ونادت الأم زيزي الذي كان يراقب كل شيء مسنداً ذقنه إلى الطاولة وركبة على المقعد

(1) Belcourt هو بلدة جزائرية تابعة لولاية الجزائر، وأطلق عليها خلال الاحتلال الفرنسي للجزائر اسم بلكور على اسم الحاكم الفرنسي الأول في الجزائر الذي بنى المنازل في هذا السهل، وبعد الاحتلال أطلق عليها اسم بلوزداد تيمناً بأحد شهدائها أحمد بلوزداد.

وشابكاً يديه أمامه. اقترب فأخذته بين ذراعيها: «لقد توفي والدك».

لم يكن يعرف ماذا يجري سوى أن هناك أمراً ما مهماً يحصل ولكن ما هو؟ لم يكلمه أحد عن أبيه. الأم لم تلح. فقد كانت بالنسبة إليها فرصة كي تحتضنه. أما بالنسبة إلى الطفل فوجود أبيه وغيابه كانا سيان على افتراض أنهم يريدون وبأي طريقة أن يكون والده الشرطي... دعونا من هذا الأمر. لم تتدخل ماتيلد ولكن يمكن الإحساس بأنها لا تؤيد الأم.

– المسكين كونيغ، قال فكتور. وفاته تحلّ كل الأمور.

– أسكت، قالت الأم.

جلسوا إلى مائدة الغداء. في اليوم التالي لم تتذكر ماتيلد حتى ماذا أكلت. فقد تحدثوا عما سيكتبونه في البرقية بعشرة سنتيمات للكلمة الواحدة. في البداية الميت، كيف نسميه: كونيغ أو ألفريد؟ قرروا أن يكتبوا كونيغ. وهكذا كتب فكتور على المذكرة: *مدام كارنيتو، الدكّان، 95 شارع ميشليه، الجزائر. كونيغ توفي في مستشفى مصطفى، تعالي صباح الغد، قبلات*. وبما أنه كان يلزم توقيع فقد اتفقوا على فكتور. هذا ما تلقيته قرابة الساعة الرابعة. خمس عشرة كلمة كما حسبها فكتور: فرنك ونصف الفرنك.

كان لذلك وقع الصدمة عليّ: رجل آخر يرحل مع أنه تم استبداله منذ زمن. أرسلت ابنتي ماري لتصطحب ابنتي بويشو، لبست ثيابي: إنه لأمر سهل فأنا ليس لدي سوى الأسود. وعندما وصلتا أخبرتهما بما حصل.

أنجيل، الابنة الثانية أرادت مرافقتي.

ذهب فكتور إلى قيلولته كما العادة. وقبل أن يتمدد نادى مفتاح

وطلب منه أن يسرج العربة عند الواحدة والنصف بعد القيلولة. وهكذا انطلق، مع زيزي بالطبع.

انتشر الخبر في القرية بسرعة. وأكثر من ذلك، وبعد خروجه من المكتب حيث تعمل إليز، خطيبة ديزيريه، هرول فكتور إلى فندق إسبيرانس. فقد اختفى أورفيلا منذ وقتٍ طويل، وأرملته هي التي تدير المؤسسة مع الصبي العربي ولكنهم ما زالوا يقولون «عند أورفيلا». فهم يعتبرونه ما زال حاضراً خلف مكتب المحاسبة، وظله يحوم في المكان ويمر بين الطاولات. عودة فكتور هذه المرة إلى إسبيرانس هي إلى حدٍ ما من أجل لقاء الموتى، وزيارتهم. إذن دخل فكتور وألقى التحية وصافح من يشربون المارك[1]، فمن المفاجئ رؤيتهم في هذه الساعة، راحوا يتحدثون ويحللون ويشيدون بمآثر الشرطي ويستعيدون ذكرياتهم معه فقد كبر وتعب وقضت عليه وحدته. أصروا عليه لكي يجلس معهم وبقي زيزي واقفاً بالقرب منه، يشم الروائح وينظر حوله مدركاً كونه نجماً إلى حد ما فمصيره هو الذي يتحدد اليوم، ها هو يتيم يحوز الاهتمام. قبِل فكتور تناول القهوة وجرعة مشروب في حين قدم لزيزي عصير رمان بالكاد تذوقه. كل الناس ضحية المآسي. مأساة من؟ فكتور ليس حزيناً. فقد دفعوا عنه ثمن كأسه أما شراب الرمان فقدم مجاناً. على أية حال إن حصل وأُجبر على الدفع يحوله إلى حساب مؤجل. فمن يعلم قد تحدث هزة أرضية أو ربما تختفي السيدة أورفلي بدورها... فهو بخيل لدرجة أنه لم يشترِ يوماً البون بون لزيزي، لا يولم سوى بالكلام. في هذا اليوم من الطبيعي جداً أن يقاوم

(1) Marc شراب مسكّر يصنع من الفاكهة.

رغبته في لعب الرواندا[1]، ربما لأن شركاءه المعتادين ليسوا هنا، إلا إذا كان امتنع احتشاماً.

عندما عاد إلى المزرعة، بدا مربكاً قليلاً ليس بسبب ما شربه وإنما بسبب مشاركته في النقاش وتأثره بالحدث.

لأنه في النهاية لا أحد يعرف كيف مات الشرطي، إذن الفرضيات...

3

تزوجت في عمر السابعة عشرة، وكان ذلك ضرورياً إذ ولدت ابنتي بعد ثلاثة أشهر. زوجي باتيست كان رجلاً آخر غير الشرطي. التقيته في الجزائر عندما ذهبنا للاحتفال بعمادة واحدة من بنات بويشو. شعرنا بانجذاب لواحدنا الآخر. إهمال المزرعة مع أهل كأهلي، الواجب، الدين، العمل... انتهى الأمر بأن اعترفت لأمي بكل شيء فقامت بوضع أبي في جو ما جرى من دون أن تؤكد له، إذ كان مريضاً وكان يمكن لأمر كهذا أن يقضي عليه. إذن الحياة، أنا لا أخاف منها. أواجهها.

في مكتب الاستعلامات في المستشفى أخبروني أنه في المشرحة. المستشفى أساساً تسبب لي القلق ومع هذا الاسم: «المشرحة..» الكثير من الوساخة والبؤس... التقيت ديزيريه في مكتب الإجراءات القانونية، لم أعرف ما عليّ فعله، عانقته. فحتى يوم أمس كان يلتقي والده الذي بدا أنه يعيش آخر أيامه، إنه داء الاستسقاء وطبيب روفيغو ما عاد قادراً على معالجته إذ تفاقمت كثيراً حالته وما عاد قادراً على النهوض وبدأ يهذي.

(1) الرواندا هي لعبة ورق منزلية رائجة في دول البحر الأبيض المتوسط وبالخصوص في إسبانيا والمغرب، إذ تعتبر من أقدم ألعاب الورق في المنطقة.

عندما رفعوا الغطاء عنه، صدمني وجهه الحزين إلى درجة أنني لم أتمكن حتى من البكاء ولا أنجيل، بقينا كلانا متسمرتين في مكاننا.

وقررنا مع ديزيريه أن ننقله في اليوم التالي أي الجمعة في سيارة الإسعاف وندفنه يوم السبت، في روفيغو بالطبع. لأنه ما كان يخطر ببال أحد أن يفتح له مقبرة العائلة في سيدي موسى. سيذهب ديزيريه في الليلة نفسها ليحضر كل شيء ثم يعود في اليوم التالي لنقل الجثمان.

في ألبوم المزرعة، صور للشرطي عندما كان يؤدي خدمته في قسم المدرعات الرابع شرق فرنسا في لونيفيل على ما أظن. كان وسيماً. وربما بسبب لباس الدرع أو القبعة على شكل ذيل الحصان التي يضعها أمامه على متكأ الكنبة المخملية، يشبه بوجهه غراند فرّيه[1] في كتب التاريخ: شعر قصير بعثره الهواء وكأنه بعثر بضربة يد. شاربان صغيران يظللان الشفة الأعلى، وعنفقة[2] عند الذقن، جبهة مربعة وخدان عريضان ونظرة صافية ومصممة وحتى قاسية. عند الصدر المحاط بكتافتين، حزام سيف معدني مع صحيفة نحاسية على شكل مغلاق. بدا مشغولاً برمته بالجلد والحديد. بهذه الهيئة كان يبدو في زياراته الأولى للمزرعة، فأنا أفهم ماتيلد.

ولكن هناك صورة أخرى بزيّ الشرطة تخطى فيها الثلاثين بكثير. الشعر الذي تركه يطول حتى غطى قحف الرأس، مع فرق في النصف، وزيت لتجميد الشعر والشاربان المعقوفان أكثر كثافة بالإضافة بالطبع إلى العنفقة على الذقن. هنا يبدو حزيناً مسناً، من دون ذلك الدرع المنتفخ

---

(1) Grand Ferré (1330– 1358) بطل فرنسي من حرب المئة يوم اشتهر بقوته ودفاعه عن قصر لونغاي ضد الإنكليز.

(2) عنفقة هي خصلة شعر تحت الشفة السفلى.

البراق: كتفيتان رديئتان دون شراشيب، ياقة متصلبة، حبال عسكرية مجدولة لا تنجح في حشو جذعه. ففي ظرف عشرة أعوام أو خمسة عشر عاماً فرغ جسمه، وتحول إلى شخص مسيَّر أو أنه أقلع عن الأوهام، حصان متعب في حين أنه كان فارساً مدرعاً في رُشوفين[1] يشهر السيف مطلقاً الصيحات.

ديزيريه يشبه أباه ولكن دون أي مهابة، دون تلك السمة التي لا أعرف ما هي والتي تجعل الرجل فارساً، دون درع ولا خوذة ولا ذيل حصان: صبي رقيق له شاربا الأب لما كان فتياً ومن دون عنفقة. فخوذته هي شعره الكثيف جداً والمرفوع عند الجبهة مع فرق لجهة اليسار. أنف دقيق مستقيم وفم جميل لكنّ صوته لا يتناسب مع شكله.

مساء التاسع والعشرين من أبريل الشهير كان قد بلغ العاشرة. لم يكن بعد قد وصل إلى روفيغو إلى حيث كانت قد سبقتهما الأم، هو وأبوه، وبدأت بإدارة الفندق الذي تنازلت لهم عنه صاحبته. عندما لحق بها كونيغ، شعر ديزيريه فوراً أن هناك شيئاً ما تدهور. لم يكن يعرف ما هو، فمع اقترابه كانا يتوقفان عن النقاش، ويبدلان هيئتهما مع شعور بالانزعاج منه. والمدرّس الذي كان يبدو منغلقاً على ذاته وجدياً، بات متألقاً وماتيلد تشبه النسوة المتظاهرات بالعفة.

لم يشك كونيغ بشيء. إلا أن ديزيريه وبالفطرة تولدت لديه ردة فعل، فقد حصل على شهادة الدروس التكميلية إلا أنه كره كل ما يتعلق بالدراسة واتجه نحو الميكانيك وقام ببعض الأشغال لدى النجار فيرتو فأصلح له المحرك المعطّل ثم دخل إلى مصنع الحافلات التي بدأت تُسيّر،

(1) Rochshoffen هي قرية فرنسية شمال منطقة الألزاس.

وتاجر بدراسات الحنطة وآلات الفلاحة، وما إن سنحت له الفرصة حتى غادر القرية. الأولاد ليسوا مغفلين، فهم مثل الحيوانات يستشعرون إن كنا نحبهم أم لا. ولذلك ففي عمر العشرين أمسى ديزيريه شبه غريب في العائلة. واصل زياراته كالعادة وخاصة للقاء إليز ابنة النجار فيرتو الذي أراد الزواج منها وهذا ما لم ينجح بسهولة لأنه وبعد ما حصل في عائلة كونيغ لم يعد النجار مؤيداً لهذا الارتباط. الفتاة الصغيرة اشتغلت في مكتب في سيدي موسى، وكانت تذهب وتعود كل يوم بالدراجة الهوائية. على أية حال ها هو الشاب وحيداً اليوم: توفي الأب كالكلب في المستشفى، الأم في المزرعة مع ابنٍ آخر يحمل اسم عائلة كونيغ ولكن من المعلوم أنه كان عليه أن يحمل اسم رجلٍ آخر. ولدان عالقان في هذا المنزل، كائنان تعسان. ديزيريه وقد غدا اليوم يتيم الأب وتقريباً الأم أيضاً، زيزي (أو هكتور إن فضلنا ذلك إذ ان اسمه الحقيقي هو هكتور مثل والده بالعمادة الكولونيل هكتور) يتربى على يد عمه والنساء.

يوم عيد الميلاد العام 1907 وبعد القداس الكبير (ولد الطفل قبل عيد الميلاد بشهرين ولعب دور الطفل يسوع) اجتمعت العائلة كلها. وليمة كبيرة فاخرة وملك العيد كان زيزي الغارق بين شرائط القماش المخرّم، حتى إنه لم يبكِ عندما سكب له رئيس الدير الذي كان يدغدغه بلحيته، الماء على جبهته ووضع له الملح على لسانه. لم يكن هناك سوى ديزيريه الجالس بالقرب من إليز، يراقب عن بعد وبتحفظ مثلها ما يجري دون مشاركة. كونيغ، ضعوا أنفسكم في مكانه، هذا الولد الذي ولد بعد سبعة عشر عاماً من ولادة ابنه الأول، والذي يحمل اسمه أيضاً لم يكن حتى قادراً على المجاهرة بهذه الأعجوبة.

حادثة المستشفى حصلت بعد ثلاث سنوات، يا للمأساة! في مكتب الإدارة كنت الوحيدة برفقته التي تمثل عائلة باري، بدا ديزيريه مختلفاً: متماسكاً ومصمماً، وكأنه استعدّ لكل شيء، وكنت أتحرق للهرب من كل هذا. تناقشنا فقط في نص الإعلان. عندما أفكر في العائلات التي يكون فيها كل شيء بسيطاً ومرتباً ومنتظماً مثل كراسات الموسيقى حيث كل شيء يحصل دون دوافع خفية. على ماتيلد أن تكون على رأس الجناز: *مدام كونيغ المولودة ماتيلد باري*... قال لي ديزيريه:

– لا أعرف إن كانت فعلاً قادرة على فعل ذلك...

– أنت تفضل أن تظهر وحدك؟

أجاب بالنفي، إنه بالأحرى بدافع اللياقة أو حتى لا يتسبب بالألم لأي كان. فلو تجرأ، كما اعتقد لكان اكتفى بالقول: السيد ديزيريه كونيغ يأسف لإعلامكم... لذا أعددنا شيئاً بين الصيغتين، إذ دوّنا أسماء الجميع، دون ترتيب عائلي حتى لا نجرح أحداً، هناك أيضاً كبار العائلة من فرانش كونتي، هنا كنا غامضين إذ ما عدنا نتذكر، فاعتمدنا كل الأهل والأقرباء. ثم تكفلت أنا بنقل ورقة النعي إلى صحيفة لا ديبيش حتى تنشر في اليوم التالي مع بيان الوفاة.

لم أر ديزيريه يبكي ولا حتى رأيت عينيه حمراوين. فهل يمكن أن نبكي شرطياً؟ هناك أناس هكذا، نتخيل أنه لا يجب أن نفعل ذلك معهم وكأن ذلك جزءاً من وظيفتهم. بالنسبة لديزيريه ما حصل كان بديهياً: فقد رحل والده بكل هدوء وتوقفت عذاباته. تم نقل المدرّس وديزيريه في مكان آخر بعيداً عنه، ماتيلد والولد الآخر في المزرعة ولم يبقَ سوى الفندق الذي يعمل من تلقاء نفسه مع السيدة لاغاريك. كانوا بانتظار قرار ماتيلد: العودة إلى

روفيغو أو بيع كل شيء في البازار.

هكذا تسير الأمور وهكذا تحل: الموت. ويختفي كل شيء. لو لم أكن أملك أساساً البقالة عندما تركني بابتيز ماذا كان سيحصل لي أنا وابنتي؟ ما كنت لأرغب بالعودة إلى المزرعة مثل ماتيلد. فأمنا متسلطة جداً كما أن الريف بالنسبة إلي... أنا معتادة على المدينة. أرى الناس وأراقب وأتحدث وأتسلى، ما كنت لأدفن نفسي مع أمي وفكتور والكلب في هذه الحياة في متيجة.

هذا لا يمنع أني أستمتع عندما أزور المزرعة ربما لأني لا أبقى فيها. بعد بضع خطوات رأيت فكتور وقد جاء لملاقاتي، يبدو أنه ترصد وصول الحافلة. لماذا إذن فكرت أمس بالعودة إلى البقالة بعد أن حملت النعي إلى الصحيفة؟ فكونيغ كان في المشرحة مضطجعاً في نعشه. أخبرنا الصغيرات بكل شيء وشربنا معاً كأساً من نبيذ «المسكات»[1] حتى نعدّل مزاجنا ثم طلبت من ماري بويشو أن تعود في اليوم التالي عند السابعة صباحاً لإدارة البقالة وليكون لي الوقت كي ألبس وأنطلق باكراً جداً لحجز مقعد لي في حافلة مونيكو لمراسلات السهل وإلا سيكون عليّ أن أحشر في الخلف مع العرب لأنهم هم أيضاً يركبون هذه الحافلة. تذكرة قطار الخطوط الجزائرية أبخس ثمناً لكنّ خط السير ليس نفسه، فللوصول إلى سيدي موسى علينا أن ننزل عند نقطة الكينا ومن هناك يجب ركوب العربة.

ثم شممت رائحة أشجار البرتقال ورائحة البروق[2] الممزوج بصلصة الخل النفاذة أساساً. كان الطقس رائعاً رائقاً بلورياً دون غيمة واحدة،

(1) المسكات هو نوع من العنب طيب الشذى، والذي يستخرج منه نبيذ يسمى بنبيذ المسكات.

(2) البروق نبات من الفصيلة الزنبقية.

الجبال تبدو على بعد خطوتين رغم أنها بعيدة. ذهبت دون جهد كما لو كان بفعل سحرٍ في عالم الأبدية السعيدة البراقة. كان هناك أوقات صعبة خلال أسبوع الفصح ولكن الآن الشمس والرقة التي قد تسبب بعض الألم تسطعان وكأنما دون نهاية. انتفخ صدري وضمر خصري وشباب جديد تفتح في داخلي ونسيت تقريباً ما جئت لأجله. فبينما كان فكتور يتقدم وزيزي بالقرب منه، خطر لي فجأة أننا سنأكل من القطاف الأول للفاصولياء الذي تملك الأم طريقة خاصة لطبخه مع البصل، يذوب في الفم لذيذاً شهياً.

في النهاية فأنا ولدت في المزرعة وفي كل مرة أعود فيها إليها يشتعل قلبي. السقوف الحمراء خلف ستارة أشجار السرو والتينة الكبيرة في الساحة آخر الصيف، يا إلهي، يا إلهي... تعاودني كل هذه الذكريات وتغرقني كما في السينما بالصور الصادمة العنيفة غير المترابطة والتي لا نصدقها. في الجزائر لدي أيضاً ما يعنيني، هناك روائح أخرى في الطرقات وضجيج آخر ولكن كل ذلك لا يدوم كثيراً، لتهزني القرية من جديد. أمي أيضاً لها رائحة لا دخل للمدينة فيها، رائحة الزيت المرّ، ورائحة الخبز عندما نقترب من فمها.

تعانقنا أنا وفكتور ثم أمسكت بيد زيزي وسألته إن كان تعباً، أحنى رأسه ونظر إلي وكأني أسأله سؤالاً ساذجاً.

– ألستَ بخير؟

– بلى، بلى قال فكتور، فهو لا يحب التحدث كثيراً، هذا كل شيء.

وأنا متحرق لأعرف إن كنت قد تسلمت برقيتي.

عندما وصلنا إلى زقاق المزرعة لاقانا مفتاح وصافحني باليد وتبادلنا

السلام بالعربية، كل شيء على ما يرام زوجته وأولاده وكل شيء.

4

منذ وفاة الأب، لم يتوقف ذلك. فلاتيتيا التي ولدت مباشرةً بعدي فقدت زوجها منذ عامين في الوقت ذاته تقريباً مع زوجي باتيست، الجميع ذهبوا إلى الموت وآخرهم كونيغ. فبعد الأم ترملت الفتيات الثلاث. الأسود في كل مكان. بتنا نشكل سرية جنائزية، واحدة من تلك العائلات القديمة التي لا مكان فيها إلا للمآتم. وعلينا أن نرسم علامة الصليب عندما نلتقي.

كنت قد بدأت أحكي لهم زيارتي مع أنجيل إلى مشرحة مصطفى عندما وصل ساعي البريد. فالنعي منشور في مكانه الصحيح في الصحيفة التي لم أفكر بشرائها في الجزائر. فظيع كيف تجري الأمور بسرعة! فكتور الذي عاد مع زيزي بدا محبطاً لعدم ذكر وظيفته كمستشار بلدي.

خلال هذا الوقت نقل كونيغ في سيارة الإسعاف مع ديزيريه الذي جلس بجانب السائق. ففي حال تعطلت السيارة يمكنه إصلاحها. أعددنا طاولة الطعام. طهت الأم الفاصولياء بالفعل. استمتعت بالأكل ولكني ما عدت معتادة على كل هذا الذباب! ففي المنزل يمكن احتمالها. ولكن ما إن نخرج إلى الباحة تلاحقنا غيمة من الذباب ومثل البقر لا نتوقف عن طردها. عندما تحدثت عن سعادتي بالعودة إلى المزرعة والأشجار نسيت أمر الذباب وهذا المساء سيكون هناك ذباب. يجب أن نعود للكينين. الجزائر أكثر أماناً، لا نصاب فيها بالأمراض كما هنا. أيكون ذلك لأننا لا نحتك كثيراً بالعرب؟

وافقت ماتيلد على صيغة النعي، لم أنقل إليها تصور ديزيريه الذي كان

سيحزنها. حُدّد مكان الجنازة وتوقيتها. وكنا نعرف أنه في روفيغو سيرتب ديزيريه كل شيء مع النجار أرتور وخاله أيمي، وسيكون أمام الناس متسع من الوقت للمجيء بالقطار أو الحافلة، لم نغفل أحداً. وقد علق فكتور ممازحاً بأنه لا ينقص سوى مفتاح، فانفجرت حينئذ بالضحك.

رمقتني أمي بنظرة قاسية:

– أنت تبالغين، قالت.

– مفتاح إنسان طيب، أضافت ماتيلد.

– أنت تعرفين عرباً طيبين؟ ربما في مدينة الجزائر فلأنهم يضيعون بين الأوروبيين فلا يمكنهم...

وافقني فكتور الرأي. فقد بدأوا في سيدي موسى بالحديث عن ذلك أخيراً. ورئيس البلدية يحذر من أننا نعتقد خطأً أننا خففنا من تعصبهم الديني وكسبنا قلوبهم، فنحن برأيه ما زلنا بنظرهم الكلاب الروم. وما إن ترخى السلطة قبضتها حتى تتحرّك البرانس. وعدّد فكتور كل الجرائم التي اقترفت منذ عامين أو ثلاثة في السهل: اغتيال حارس ممر بابا علي، الاعتداء على سائق العربة على طريق الشراقة، وفي روفيغو نفسها محاولة قطاع طرق قتل مدير مناجم تيزي نتاغا من أجل المال. ثم سألني:

– من أين تأتيك هذه الأفكار؟

– إنها تخطر ببالي ما إن أصل إلى هنا.

– ابنتي، أنتم في المدينة تكتسبون عادات سيئة. لو عشت معنا... ما يقوله فكتور لا يخصنا، كما أننا لا يجب أن نقلق هذا الولد. إذ لا يمكننا أن نعمل ونحن خائفون، أبوك لم يكن يخشى شيئاً ولا أنا. فنحن لدينا السلاح ونجيد استعماله، وإن اعتدوا علينا ندافع عن

أنفسنا. ولِمَ سيعتدون علينا؟ فنحن لا نسيء لأحد ولا نأخذ حق أحد. فما نمتلكه شقينا للحصول عليه. العرب، تبرعت لهم بالكثير، كل مرة يطلبون مني المساعدة أقدمها لهم وأكثر. ليس هناك تلعة في أرض المزرعة غير شرعية. فلن يأخذ منا أحد ما لا نملكه، لأن ليس لدينا ما ليس لنا. لذلك ليس لدينا ما نخشاه.

دخلت في موجة سعالٍ خفيفة واحتفظت بأفكاري. سرحت ماتيلد وصمت فكتور.

سمعت البندول خلفها يدق على ايقاع الرقاص الحديدي: كلوك كلاك... توك تاك... لا يتوقف أبداً؟ كل صباح أحدٍ يطفئه فكتور ويعيد تشغليه من جديد. قبله كان الأب، وقبل الأب الجد. فهو يأتي من فرانش كونتي من قرية كوزيناس التي تتحدّر منها عائلة باري، حملوه مع قطعتي أثاث أو ثلاث: صندوق والسرير الذي تنام عليه الأم الآن، ولا أعرف ماذا أيضاً... وشجر الجوز.

عند المساء بدأ كل شيء. كان فكتور يتحدث عن حصاد العام الماضي الذي ما زال في الخوابي. هناك الكثير من النبيذ ولا نعرف بأي ثمن علينا بيعه.

أنهينا أكل الحجل عندما سأل فكتور أي عربة سنستقل غداً، ذات الأربع عجلات أم ذات العجلتين. فلكي تتنقل الأم بعمرها هذا، مع مشكلة قلبها، على الميت أن يكون واحداً من أبنائها أو أخواتها. لا يمكننا على أية حال أن نحشر أنا وماتيلد وفكتور وزيزي في عربة بعجلتين. العربة بأربع عجلات بالطبع لأننا كثر. لِمَ هذا السؤال؟ «العربة ذات

العجلتين تكفي»، قالت ماتيلد.

وكأن عاصفة ستهبّ، نظرنا أنا وفكتور إلى واحدنا الآخر. وبما أنها اعتقدت أننا لم نفهم أضافت ماتيلد: «أنت وفكتور». لم أتمكن من كبت شهقتي. تأتأت: «سوف... سوف تأتين لا يمكن، أنت».

بصوت هادئ ومصمّم أجابت: «لن أذهب، ولا زيزي أيضاً».

كنا نعرف جميعاً أن أمي لم تكن تحب كونيغ. ليس أكثر من باتيست على أية حال. فأزواج الفتيات بالنسبة إليها ليسوا من العائلة. وحتى أمام الموت... تفضل ماتيلد على الجميع وحتى المسكين ديزيريه بالكاد تتحمله فهي تكاد لا تكلمه أبداً، محبوبها هو زيزي بالإضافة إلى أن «زيزي» بالعربية تعني عزيزي. ففي النهاية أليست هي من أسمته «زيزي»؟ فلهكتور وقع ثقيل. كأنها تغار قليلاً أو أنها تريده أن يكون لها. لن يشارك في تشييع والده ستحتفظ به إلى جانبها. وهذه المرة وبغياب فكتور، لن يتحرك خارج المنزل، ستخبئه بين تنانيرها وتغرقه بالقبل، فأمامنا لا تتجرأ كثيراً.

أغمض الولد عينيه وقد أغفا أساساً. والوجوه الأخرى كان الظلّ يجعلها غير واضحة. هل تجوز فضيحة كهذه؟ لم نسمع قطّ بامرأة لا تذهب إلى تشييع زوجها. ربما كانا متخاصمين، ولكن عند الموت يجب أن ننسى ونسامح. والغضب القديم الذي استيقظ مع المغيب سيختفي باختفائه، ومع أول نجمة ستستعيد ماتيلد وعيها.

نزعت الفوطة عن رقبة ابنها ثم حملته إلى غرفة الأم حيث سريره. وصلني بشكل مبهم صوت انسكاب ماء خفيف واحتكاك ثياب وملاءات. في الخارج كانت سماء الليل صافية لكن المنزل معتمّ، لم يتجرأ أحد على إشعال القنديل. ودائماً هذا البندول، قرع جنائزي، قرع

وجيز.

كان يجدر بي أن أكون متشوقة لرؤية أمي. عندما تغرق الوجوه في الظلام لا تعود هي ذاتها ولا تعود تختبئ وتترك كل شيء ينكشف فيها. هذه هي الحقيقة. في النهار هناك ما يغلفها. عاداتنا، الحشمة واللياقة والناس. يسدل عليّ النهار صفة الوضوح. أي خطأ هذا! الوضوح والحقيقة هما الليل. ففي الليل نتخلى عن الدفاع، لا أحد ينظر إليك وإن فعل لا يرى، يمكنك أن تكشف عما شئت. الأم التي أراحت يديها على الطاولة من جانبي الصحن لابدّ من أنها تكشف الآن وجهها المخبأ. هنا في عتمة الداخل والظلام الذي يبتلع كل شيء، عمق الصمت مع ضربات البندول، انزلاق قدم فكتور وسعالي. فكتور يكبت سعاله في قعر حلقه، يخمده. «هل أشعل الضوء؟».

رغم ذلك تكلم وطلب إذن الأم بإشعال الضوء. فنحن ننتظر دائماً اللحظة الأخيرة. لَمَ نبدّد الوقود بلا ضرورة بينما ما زلنا قادرين على تمييز الأشياء؟ إنها عادة تعود إلى الجذور. «نعم».

أدار فخذه على المقعد ونهض ليتلمس أعواد الثقاب فوق المنضدة، خض العلبة وأشعل عوداً. في البداية لهب أخضر وأزرق: الكبريت برائحته السكّرية اللاذعة (فنحن في المدينة لدينا الكبريت بالفوسفور). مد يده إلى المصباح المعلق ورفع زجاجة القنديل ووضعها على الطاولة وفرك قليلاً الفتيل بعود الثقاب فارتفع لهب أصفر وأعاد وضع الزجاجة، علا الوهج فعدله من الجهة الأخرى وها هو القنديل مضاء. في المدينة لدي الغاز، أكثر توهجاً بلون أبيض على زرقة خفيفة، تفرقع الرتينة[1] قليلاً

(1) الرتينة هي غطاء مخرم غير قابل للاحتراق يوضع فوق الشعلة فيتوهج ويضيء.

عندما يشتعل اللهب وينتشر الضوء دفعة واحدة. هنا الضوء الأشقر يخفت فيخفي الوجوه ويضيء الطاولة مع المفرش المشمع والصحون والملاعق والشوك والسكاكين والخبز المفتت والطبق الفارغ، أنا وأمي، المنضدة ثم البندول في علبته الرفيعة والصندوق وحواف النافذة، الباب والبنادق المعلقة خلفه، المكتب حيث يضع هكتور أوراق المزرعة والحسابات. وعلى الحائط، ملصق «جان الذي يضحك جان الذي يبكي»[1] وصورة حصادات ماكورميك. وهذه المرة الظلام المتسرب من كوات النوافذ المربعة، ظلام لا نجوم فيه، فقد هبط الليل سريعاً. في فرنسا، يبدو أنه يأخذ وقتاً أطول. وعلى الجدار أيضاً، أبو بريص يتحفز استعداداً للقفز على البرغش متجمداً على شكل دائرة، طنين البرغش أيضاً، هذا القرف الذي عليّ اعتياده.

فهم اعتادوا الأمر وما عادوا يكترثون لشيء.

أطلقت زفرة. عادت ماتيلد، فهل يتذكرون ما قالته؟ استدارت حول الطاولة وجلست وفكتور أيضاً. فحص بنظرة فتيل القنديل، إنه جيد ليس عالياً جداً ولا خافتاً جداً. وجه أمي مثل سطح صفحة ماء استعادت استكانتها بعد ارتعاشها، يمكنه أن يخدعنا إذ محيت منه كل الآثار؛ لدى كلّ واحد منا طريقته في المقاومة.

كسراً للصمت، قال فكتور إنه منذ مدة حطت بومة على شجر الجوز وبدأت تزعق وإن استمر ذلك... أردت فعل شيء ما، فمن شأن أمر كهذا أن يريحني. التفت نحو ماتيلد:

«هل ننظف الطاولة؟».

(1) «Jean qui pleure et Jean qui rit» هي أغنية فرنسية من قصيدة لفولتير.

في المطبخ أشعلت ماتيلد قنديل بيجون، جمعنا الأطباق وغسلناها دون أي كلمة وقمت بمسح المفرش المشمّع وضبته ورتبنا كل شيء وأعلن فكتور أنه سيأوي إلى النوم. كان ينام في الحجرة الصغيرة التي بنيت بين الإصطبل وسقيفة الناعورة. «حسناً، عمتم مساء».

تعانقنا وحمل البندقية وخرج، سمعته يتكلم. أكان يكلم الكلب أم مفتاحاً؟

– قبل العودة إلى منزله كان عليه القيام بجولة ليتأكد من أن كل شيء على ما يرام. «لقد حضّرت لك الغرفة»، قالت ماتيلد.

5

عندما أكون هنا، لا تنام ماتيلد مع الأم فحتى لا أشعر بالوحدة ننام كلتانا في الغرفة التي تفتح على المطبخ والمستودع مع شباكٍ يطل على الإصطبل. وبسرور رأتنا الأم ننسحب أنا وماتيلد، إذ أنها ستحتفظ بزيزي وحدها دون أن يقاسمها إياه أحد. نحن سنكون في الجهة الأخرى بعيدتين عنها.

ملأت بنات آوى الليل بصوتها الغامض الحاد بيد أنه يبثّ الطمأنينة، فهو ضجيج الليل المعتاد وغيابه هو ما يستدعي القلق.

عندما كنا نغتسل قلت لماتيلد: «هل سترافقيننا غداً؟».

تصرفت وكأنها بصدد أن تفكر ثم قررت: «لا».

نمنا جنباً إلى جنب، أنا في مواجهة الحائط وماتيلد بالقرب من منضدة السرير لأنها تعرف أين هي أعواد الثقاب. الملاءات باردة وأوراق الذرة في الفراش تطقطق.

لم أشأ إطفاء النور حالاً. القنديل بيجون له بعض الرائحة إلا أنني أفضّله على رائحة الخروب والعشب والتبن التي تأتي من النافذة. الأبقار تحف ظهرها بالمعالف (أو أنها الجياد، فأنا لا أفرق بين أصواتها، لكن لا ريب في أن صوت الجياد أكثر قوة). في الجهة الأخرى من المزرعة بدأ سيزار بالنباح قوياً.

أنا جبانة تقريباً، أو يمكن القول إني ما عدت معتادة على ذلك. ماتيلد بالعكس مني، هزت بخفة كتفيها لتقول إن ذلك لا يعني شيئاً. ثم لا أعرف لمَ بدأت تتكلم: «في أومال(1)، كان مركز الشرطة يطلّ على السور وكنا نسكن فوقه. الكثير من الطوابق والأدراج التي يجدر بنا تسلقها، أربعة كما أذكر، ولكننا كنا نطل على مشهد جميل: أولاً السهل والهضاب والجبل. عند أسفل مركز الشرطة بالضبط، وعند كعب الجدران التي تعود لزمن احتلال الجزائر يأتي العرب ليقضوا حاجتهم. لم يكن خطأهم، لا يمكن أن نحتاط منهم بشيء.

– حتى لو توقعنا...

– أمامنا وتحت أعيننا، شيء مقرف ويستدعي الذباب، وقد أرادت الشرطة منع ذلك لأسباب أخلاقية. محاضر الدعاوى، كيف يمكن للعرب أن يدفعوا؟ وفي الوقت ذاته، فعقوبة الحبس تعدّ مبالغاً بها على أمرٍ كهذا. لذلك كان رجال الشرطة يتسلون بإطلاق النار بالقرب منهم ولكن لا نعرف ربما أن حركة خاطئة قد تقتل طفلاً أو تقعده مدى الحياة. وعندما تطلق النار يهربون جميعهم كالأرانب

(1) Aumale هي منطقة جزائرية (دائرة المدية) ضمت إلى الأراضي الفرنسية بين 1958–1959 وسميت بدائرة أومال. اعتبرت جزءاً من الأراضي الفرنسية، وهي غير أومال البلدة الفرنسية الواقعة في دائرة سين ماريتيم في فرنسا نفسها.

وينفجر رجال الشرطة بالضحك. كونيغ اشترك هو الآخر بذلك، كان يراقب ويختبئ ويقول لي: «ها هو أحدهم يتحضّر...». كانوا يحترسون ولكن يبدو أنهم لم يكونوا قادرين على فعل ذلك سوى هناك. ففي أماكن أخرى كان ليحصل ذلك تحت نوافذ البيوت أما هنا فعند أسفل السور، يظنون أنفسهم في الظل مثل الماعز بين الصخور، إذ هناك الكثير من رجال الشرطة ولكن في مكانٍ عالٍ جداً. يقف كونيغ خلف ستارة ويقف على كرسي ليصوّب بشكل أفضل، يتحفز وينتظر اللحظة ثم بان!... فيفرّ الصبي كالمجنون. ليس لأني أحب العرب. فقط لو كان يضحك كونيغ من أجل نكتة مثلاً... ويقول لي: «هل رأيت؟» ويجعل يصوب أقرب أكثر وأكثر، لا بل يمسك نفسه في النهاية حتى لا يكمل التصويب.

– وبالرغم من ذلك لم يكن شريراً.

– لم يكن يفكر.

الكثير من الذباب من جديد، حركت يدي.

«هذه لا تلسع»، قالت ماتيلد.

لم تعد تشعر بها، أما أنا فكنت أسحقها على صدغي.

في هذه اللحظة، قرع البندول. في النهار ننظر إلى قرص الساعة ولا نتنبه لصوته. أما في الليل فله صوت مجنون يأتي من صالة الطعام. نسمعه في كل المنزل وحتى ربما في الخارج. تفاجأت لم أنتبه لمرور الوقت، ساعتي كانت مركونة على منضدة السرير، فنحن نتكلم من وقت ومن المفترض أنها بلغت التاسعة. نظرت إلى ماتيلد مع شعرها المتهدل على كتفيها مثلي. شعري أسود، ونحن لا نستعمل الزيت نفسه، هي تستعمل زيت الأم، وبما

أني لم أحمل معي زيتي، فقد كانت لنا ثلاثتنا وعلى مدى يومين أو ثلاثة رائحة إبرة الراعي وصمغ جاوة، أما في الجزائر فأستعمل القرنفل؛ يبدو أن الرجال يفضلونه.

لم أرغب في النوم ومع كل حركة كان الفراش يصدر صريراً. لحسن الحظ لم يكن الطقس بارداً لأنه لا يمكن للذرة أن تكون بدفء الصوف، فهي مناسبة للصيف. ديزيريه الذي لا تحبه ماتيلد كثيراً ومدفوعة بذلك من أمها، عليه أن يسهر على أبيه في إحدى غرف المستشفى، غرفة الأهالي حيث كان يتعذب كونيغ.

أخفضت الفتيل الذي بدأ يتصاعد منه الدخان.

سألتها كيف أمكن لديماتون، في اليوم الذي جاء به إلى المزرعة هكذا بدفعة واحدة... «لقد أحب زهرة الآلام...» آه نعم!

هكذا تمكن من إغراء ماتيلد. لم يتوقف عن الكلام عن هذه الزهرة التي لم يعرها كونيغ يوماً أيّ اهتمام. بالنسبة إلى الشرطي فهي زهرة مثل كل الزهور في حين أن الآخر بدا حساساً لرمزيتها ولعبادة الأم لأورتينس. ولكن الجميع ذهبوا وبدأت ماتيلد تحلم. ظنت نفسها أورتينس. وأعادت غناءها، سمعتها من هنا، غناء هذه الأغنية العربية التي يرددها فكتور أحياناً والتي ترجمت منذ زمن بعيد:

خيّال الفرس الأحمر يضغط عليها بحوافره،

ابن العائلة النبيلة هذا، كم أتمنى أن أكون بالقرب منه...

هل وجدت هناك حقاً أورتينس؟ فمن خلال ما يقال، لم تكن تريد شرطياً يغازلها وفضلت أن تموت لتصبح زهرة آلام، ماذا يمكننا أن نتخيل؟ بالمختصر يوم زيارة المدرّس مع هكتور ومارغريت بخاتم الألماس في

يدها، هي التي كان يحوم حولها ظل بارونة دي تونيير[1] زوجة الجنرال دو رواي (أسماء كهذه تلمع وتتطاير شرراً وتقذف ناراً)، بقي هذا اليوم بالنسبة إليها يوماً سعيداً.

تساءلت ماتيلد في سرها إن كنّ جميعهن متشابهات لدى آل بويشو وإن كان الخيّال على فرس أحمر... فمثل ابنه، كان للمدرّس شعر أحمر أو ما بقي من شعره لأنه بدأ يصاب بالصلع. ديماتون هذا، وبعد سنوات في منزل هكتور بدا لي بالأحرى غير محبّب. فهو متحدث لبق عندما يشارك ويعرف جيداً كيف يستعرض معلوماته. وكان لغليونه الكبير رائحة قوية. وكان له رأس مدور وقاس كرأس البروسيين مع شاربين غضين. لو كنت أعرف لأبعدت عنه ماتيلد بيد أننا لم نلتقِ أبداً، لكن ما نفع ذلك؟ ألم تذهب ذات مساء إلى منزله بمدرسته في روفيغو؟

عاد الكلب إلى النباح وهذه المرة في مكانٍ أقرب أمام الإصطبل. بدأ قلبي يخفق، ما عاد لديّ الآن ما أضيفه.

مسكينة ماتيلد فهي لا تعرف مدى قدرة الرجال على اختراع الحجج عندما يرغبون بامرأة! بالنسبة لكونيغ كان تقريباً بائساً في النقاشات، لا يعرف أن يجيب سوى بنعم أو لا، بنوع من همهمة، لا تخرج، أو يحكي الطرائف أو الحماقات والمعلومات العامة. قال لها هكتور يوماً: «ديماتون شخصية مهمة...»، إنه يندفع بقوة هكتور. هل كانت ماتيلد تتخيل بأن الرجال يبقون كل حياتهم راكعين أمام النساء؟ بكلمة يحصلون علينا متزوجات مهزومات ضائعات. فنحن نكافح من أجل المظاهر. ارتباطي بباتيست كان بسبب ضجر شبابي. فبما ينفع الجمال عندما ننشأ في

(1) Tonnerre وتعني بالفرنسية العاصفة.

مزرعة مع العرب؟

في موسم عصر العنب، نفحص العنب ونقول: «ما زال أمامنا أسابيع...». في اليوم التالي العناقيد نفسها تسودّ بالكامل. يوم واحد كافٍ ليدير رؤوسنا ويتقرر كل شيء. فجأة تغدو ماتيلد جاهزة للقطاف والسحق والدوس عليها.

شعرت أن لديها تكتماً كبيراً، تكتم امرأة متعبة ناعسة، طلبت منها أن تطفئ النور فنفخت على اللهب.

بدأت أكون فكرة عن قصة هذه الخيانة الزوجية. كنا نحن الاثنتان فاقدتي الحسّ: هي زوجة شرطي وأنا زوجة سائق شاحنة يعبق برائحة العرق وروث الجياد ويحملها معه إلى المنزل والسرير. فبالنسبة إلى فتاتي باري الشهيرتين لم يكن لديهن ما يتباهيا به. وبالنسبة للثالثة لاتيتيا أكثر منا أيضاً. فقط كنا أرامل وكل شيء بعدها سيتغير. ماتيلد الأكثر رقة، زهرة الآلام؟ كانت أول من بدأ. كان بإمكان ديماتون أن يكون أي شخصٍ آخر فهو رائع بمجرد أنه على عكس الشرطي.

على الرغم من ذلك فقد ترددت، وكلما ترددت جذبتها الهاوية أكثر. «تدور وتطوف...» إذن كل العهود في الكنيسة أمام الأهل والشهود والشرطي بلباسه وخلفه كل سريته، يضع في أصبعها خاتم الزواج الذهبي المبارك من الكاهن كوسيران مع لحية كلحية الأنبياء، ماذا فعلتِ بها (فأنا أتحدث مثلك) ماذا فعلتِ بكل هذه العهود يا جميلتي؟ كل شيء تبخر. رددت: «أنا قمره ونجمته...» كان ليقهقه باتيست وليقول عن المدرّس باللكنة المحلية: «تخرج من دار المعلمين في فرنسا، هناك حيث يعلمونهم أيضاً كيف يتحدثون مع النساء... بكلام معسول سيجذب كل الذباب.

وحتى العصافير تقع في الشرك...». في الجزائر ورغم الحنكة المتوسطية وذرابة اللسان لا يجيدون التحدث على هذا النحو. لو قال لي ديماتون لي أنا أيضاً إني نجمته...

«كونيغ هو على أية حال والد ولديك...»، قلت لها.

هنا كنت أبالغ وألعب دور المحتشمة، فنحن نعرف جيداً أن كونيغ ليس والد الطفلين. ولكن أي اسم سيحمل زيزي؟ أمام الناس كونيغ هو الأب والباقي شائعات، ليس هناك من هو متأكد غيرها هي.

«شعرت بالإهانة كما شعرت أنا؟».

مساء العمادة سمع الجميع كونيغ يصيح. لماذا؟ فقد بقي صامتاً حتى تلك اللحظة.

– ألن تناديه يوماً باسمه الأول؟

– أبداً.

يبدو أنه شرب كثيراً هذا المساء. نعتها بكل الأوصاف المهينة. فكما أعرفها من المفترض أنها شعرت بأن كل القرية تسمع. صرخ: «ارحلي مع ابن الزنا...». لقد أطلق الغضب لسانه. إنها اللحظة الوحيدة التي علمنا فيها بما كان يفكر.

انتظرت طلوع الفجر كي يسرج لها العربي عربتها وكومت أغراضها في صرة وانطلقت مع زيزي إلى المزرعة.

6

كنت وماتيلد في العتمة. لم يكن يتسلل ولو شعاع خافت. في العتمة الكاملة التي يكشف فيها الناس عن حقيقتهم. يبدو أن القمر لم يشرق بعد

أو أنه ليس من قمر الليلة. خطرت لي فكرة غريبة. «أنت تحاولين كشف الوجه الحقيقي لماتيلد. وأنت؟ إن رأيت وجهك...». بدأت بنوبة سعال خفيفة إذ عادت إليّ عادتي كما في كل مرة أشعر بالحرج.

وإذ بانفجار هائل في اللحظة التي دخلنا فيها بأول النوم وأجمل مراحله، انفجار مرعب، تفجر من الأعماق. تحطم مفزع، ارتجت له الجدران وترددت في الصمت وتبعه شيء ما مثل المطر: شظايا الرصاص التي وقعت على القرميد أو لا أعرف ما هو: حطام.

قفزت وصرخت: «ما هذا؟...».

إنه بالطبع فكتور، قديماً كنت معتادة على ذلك ولكن منذ... في المدينة لا أعيش مع مجانين. فكتور يطوف لوقت طويل في الليل ويخشى أن يسرقه أحد فيطلق الرصاص على بعض أشجار القصب وعلى قطعة خشبٍ أو كومة فحمٍ أو ثلاث حبات طماطم. «أيمكنني أن أعرف لماذ أوقفوني سيدي القاضي؟ أليس السهل كله مهدداً من اللصوص؟...». عندما يتمشى في الليل يحمل دائماً معه بندقيته. وأحياناً يطلق رصاصة؛ أيكون ذلك للتسلية أو بدافع الخوف؟ أليؤكد لنفسه أنه رجل وليفهم مفتاح والجميع أن عينه ساهرة على كل شيء.

أشعلت مارغريت بعود ثقاب النور (في المدينة وفي الشقق التي فيها كهرباء يكفي فقط الضغط على زر لإشعال النور) سمعنا فكتور يتحدث في الباحة، لقد أخطأ في التصويب على البومة. وجعل يضحك. أطلقت ماتيلد تنهيدة صغيرة.

«كما في كل ليلة».

في إحدى المرات، وبعد وفاة الأب بثلاث سنوات، يا لذاك الرعب!

اعتقدنا أن هناك هجوماً يشنه العرب، فخرج الجميع هائجين مع بنادقهم ما عداي، إذ بقيت غارقة في سريري، كنت قد أنجبت ابنتي للتو؛ لابدّ من أن ذلك حصل خلال اضطرابات الجزائر. ومن كان مطلق النار في نهاية المطاف؟ ماتيلد. «إنها رجل حقيقي»، كانوا يقولون عنها في ذلك الوقت. لا شيء يفاجئني اليوم، فالرصاصة التي أطلقتها في ذلك اليوم تشبه قرارها الذي اتخذته هذا المساء.

شيئاً فشيئا هدأ روعي، لتبدأ الفئران حفلتها، وهذا ما أراحني، إنه ضجيج عائلي مطمئن كالضفادع في حوض الناعورة وفي الحديقة. جرفتني أفكاري استنتجت قائلةً: «أنت لا تخشين شيئاً».

هل كنت لأتخيّل جوابها ذاك: «أنا في المنفى».

لم أصدق ما سمعته: «في ماذا؟».

كررت بطريقة آلية: «في المنفى».

أنا التي كنت أعتقد أن هذه القصة عادية بالكامل وتافهة، خيانة كما كل الخيانات، ها هي ماتيلد تستعمل كلمة غير شائعة والتي قد تكون قد تعلمتها من المدرّس. عما نحن منفيون هنا؟ فنحن في ديارنا ونعيش على الأرض التي ولدنا فيها.

استدرت ونظرت إليها، ممددة ورأسها غارق في كومة شعرها المبهمة السوداء، مغمضةً عينيها وكأنها تسترخي أو على الأرجح وكأنها تريد أن تحتفظ بالأشياء في داخلها.

– نحن في منفى عمّاذا؟

– عن كل شيء.

فتاة مثل ماتيلد في المنفى لأنها أطلقت الرصاص، لنجد في اليوم التالي تحت شجرة الجوز طربوشاً ملوثاً بالدم؟... في المنفى! عندما رفضت القيام بآخر واجباتها تجاه زوجها؟ أليست مثلي ابنة (ابنة شرعية، لو سمحتم، فليس من شكوك على هذا الصعيد) جان بيار باري وماري بويشو التي تزوجت بالشرطي كونيغ لا أعرف في أي سنة وأنجبت ولدها الأول ديزيريه منه والثاني هكتور من رجلٍ آخر؟ أفعلت ذلك كله لأنها في المنفى؟

وخلال إقامتها في المنفى لماذا لم تقحم الرب في قدرها؟ ألم يقدها سيد ملائكة بيدها إلى المدرّس روفيغو؟

هي صورة العذراء الكاملة النقاء البريئة والشفافة...

أتذكر ذلك اليوم عندما ذهبنا إلى لاربعاء في بداية زواجها، جلست ماتيلد إلى طاولة الطعام واضعة ديزيريه على ركبتيها والذي كانت له هيئة قرد صغير مضحك. دائماً مع القرطين ذاتهما وتسريحة من ذلك العصر، غرة منسدلة على الجبهة وشعر مرفوع في عقيصة مسطحة، في حين أننا اليوم نرفعه بشكل مروس. لم أكن بعد قد تعرفت إلى باتيست وكنت أرغب أساساً بالقطع مع كل شيء وأن تكون لي حياتي الخاصة وألا أسمع بعد محاضرات أبي وأمي الأخلاقية عن كل شيء وأن أرفض كل الرجال الذين يكسبون عيشهم بعرق جبينهم الذين يقترحونهما عليّ، أو الذين يتقدمون من تلقاء أنفسهم. بالنسبة إليهم ماتيلد تجسد كل الفضائل. تناولنا الغداء عندها في يوم الأحد ذاك الذي بدا لي فيه كونيغ كما في صورته فارس درع، سعيداً، السعادة المطلقة لثنائي متحدٍ، من كان ليحسب ذلك؟ بعد عشر سنوات التقينا المدرّس كالشمس في يوم مجيد في التاسع والعشرين من أبريل 1901. أهذا هو منفاها؟

في هذه اللحظة وعلى الرغم من لهب القنديل، فقد لمع نور أضاء الشباك والغرفة مع أن باب الإصطبل كان مقفلاً. يبدو أن عاصفة هبّت في الجبل بعيداً جداً وبالكاد سمعنا قصف الرعد. تحرك أبو بريص في السقف فارتعشت: «أرأيت؟».

أجل، هذه العلاقة المديدة بين ماتيلد والمدرّس، اعتاد الناس عليها. الزوج يبدو سعيداً وكل شيء يسير كما ينبغي في السرّ... في ذلك الوقت لم يكن يبدو على ماتيلد أنها تعاني من العزلة. فالوحيد الذي بدا تعيساً هو ديزيريه. الجميع وجدوا ما يسميه ديماتون (إنه وقح هذا الرجل) في رطانته موديس فيفاندي[1]، فأين تظنون يلتقي العاشقان؟ في المدرسة؟ في الجبل؟ على مرأى من كل الناس؟ ومتى؟

حسنا، في البداية ليس يوم الأحد بتاتاً فالناس يكونون بلا أشغال والمطاعم مليئة بالزبائن، في المقابل يوم الخميس هو يوم عطلة ويمكن للمدرّس خلاله التواري عن الأنظار: الخميس بات تقليداً يذهب خلاله لزيارة غريبه أو أحد زملائه في الأكاديمية. أما ماتيلد فتسلم أشغال الفرن للسيدة لاغاريك، وتستقل العربة، تقود بنفسها لتترك العربي في شغله وتذهب لشراء حاجيات الأسبوع ويصدف أن يكون ذلك من الجزائر. وبعد ذلك وكامراة صالحة تعود ويذهب ديماتون لشرب القهوة لدى الكولونيل ومارغريت. دعوني من الكلام عن أن هكتور لم يكن على علم بما يحصل، فهو ليس أكثر أخلاقية مني.

اختيار ماتيلد لهذا اليوم لشراء حاجياتها أثار انتباهي. فالجزائر ليست مدينة كبيرة جداً حيث الناس يتقاطعون في الطرقات ويعرفون بعضهم

(1) Modus Vivendi هو تعبير لاتيني يعني طريقة للعيش.

بعض. هذا أمر يخص العائلة ولم تكن دارجة حينها الفضائح. على أية حال ما الذي يستدعي الفضيحة؟ أمور كهذه تحصل بشكل يومي. آه، لو خرجا معاً على العربة، لأعتبر الأمر غير لائق ولكنهما كانا يتحاشيان ذلك. يستقل ديماتون قطار الصباح. أما مدام كونيغ، يا للمرأة الجليلة، تنشط خلال الأسبوع وتبذل قصارى جهدها ويمكن أن نجزم أيضاً أن المدرّس من جهته يعيش حياة رهبنة. ليست غلطة أحد إن كانا كل خميس في الجزائر وأمام المسرح...

.بما أن ديماتون لم يكن يملك الكثير من المال ولأن راتبه يذهب إلى زوجتيه السابقتين، فكان عليها أن تساعد رجلاً مخلصاً إلى هذا الحد؛ مدرّس يحقّق أفضل النتائج مع طلبته. ففي روفيغو، الغداء في المطعم كان ليزعجه لذا كانوا يحملون له الطعام إلى المنزل بسعر مخفض وفي السلة علبة الرسائل. الثلاثاء أو الأربعاء يجد تحت الطبق توقيت اللقاء، هذا عدا التحلية و«أعشقك» ولو أن أدب الرسائل لم يكن نقطة قوة ماتيلد. الخميس ينتهي المنفى بالنسبة إليها بما أنها تغرق بين ذراعي حبيبها. كل ذلك يجري دون أي ربط بين الأحداث ما عدا أنه في روفيغو، وعندما يرون ماتيلد راكبة العربة على الطريق إلى سيدي موسى يقولون: «ها، إنه يوم الخميس...».

في 1907 بعد خمس أو ست سنوات من هذه المناورات...

لم يتوقع ذلك. ثم أنه كان بإمكان الصبي أن يولد بشعر أصهب مثل أخيه روبير الذي يتعلم في دار المعلمين في بوزريعة. لكن وبأعجوبة ولد شبيهاص شبه بجدته: الفم والأنف نفسهما. لذا السؤال لماذا كونيغ الذي لم يكن قد قال شيئاً حتى تلك اللحظة، استشاط غضباً في النهاية. أعتقد أنه لم يقبل الخضوع للأمر الواقع، وكان قد تحمّل آلامه بداعي الستر والحب

وفجأة انفجرت العاصفة.

انفجار يشبه إلى حدٍ ما الانفجار الذي تلاشى بهدوء في الليل. فعلى حين غرة، طرد كونيغ عائلته وبقي مع الطباخة والعربي، وفي الفندق ساءت الأمور. ولفترة بقيت الطباخة ترسل الطعام إلى المدرّس ثم قرر كونيغ: لا طعام إلى منزل المدرّس ولا أي شيء وبدأ يشرب الخمرة.

لقد بدأ قبل ذلك بالشرب، منذ أن بدأ يشك ومنذ أن يئس من تبديد مقاومة ماتيلد له ولكن ليس بهذا القدر... عشر أو عشرون كأساً من الأفسنتين[1] يومياً. أمسى بديناً مصاباً بالنقرس شاحباً مصفراً وحتى إنه بات يميل إلى الاخضرار. وبعدها ولما بدا أن الأزمة ستطول وليس هناك من طريقة لحل الأمور، لأن عائلة باري لا تقبل بالطلاق، فهذا مبدأ ثابت لديها، فجأة توفي كونيغ.

هذا ما تعتبرينه منفى، أختي العزيزة؟

7

تحت الملاءة في المستشفى، محاطاً بأسماله البائسة كانت المرة الأولى التي أشعر تجاهه بشيء ما يشبه العاطفة. أنجيل أيضاً تأثرت، إنها صغيرة أنجيل، ليست بأي شكل كأختها ماري ممتلئة صلبة العود مثل ابنتي. أنجيل متواضعة سهلة الانقياد ظاهرياً إلا أنها في الحقيقة فتاة رهيبة فولاذية بعينين سوداوين براقتين. للوهلة الأولى لا نشعر بوجودها ولكن أي خطأ هذا،

(1) خلال حرب الجزائر أمدّ الجيش الفرنسي جنوده بكميات محددة من هذا الشراب الكحولي المركّز، وقد ساهم الجنود الناجون من حملة الجزائر بعد ذلك في رفع إنتاجيته، حتى انتشرت معامل تقطيره بغزارة في فرنسا، وقد شاع استعماله بين الكتاب والفنانين في تلك الحقبة

ففي الحقيقة هي من تدير أختها.

في المشرحة همست قائلة: «كان يتوقع موته...» وأردفت: ليس «المسكين...» وإنما «السيء الحظ...»، هناك فرق بين الاثنين. هذه الكلمة ساعدتني لكي أكون هجومية مع ماتيلد.

«ألا تعتقدين أنك أنت من قتله؟»).

منذ ظهور المدرّس مرت السنين ومنذ ولادة الطفل فصول وفصول: سماء زرقاء وموجات حر ومطرٍ وعواصف وعذوبة ثم من جديد سماء زرقاء وعذوبة وفاكهة وطماطم وعرب.

من وقت لآخر في المزرعة وفي مناسبة عيد صعود العذراء نقيم حفلاً للأم ولكل من تحمل اسم ماري في العائلة. في هذا اليوم تعد ماتيلد الكسكس، ويأكل فكتور حتى التخمة فهو يحبّ هذا الطبق. وجود طفل الزنا هذا أمسى مألوفاً ولم يعد لدى أحد ما يقوله بهذا الخصوص. لم يكن ينقص سوى ديزيريه الذي يعمل في بلكور على السيارات وفي أيام عطله يكون مع إليز فيرتو. أما ماتيلد فبدت وكأنها ستعيش إلى الأبد بجانب هذا الطفل الذي كان دون والد أو بالأحرى مع أبٍ مزيف يحمل اسمه في الأوراق الرسمية ويسكر في روفيغو وأب حقيقي يدرّس في بوينت بيسكاد لأنه وبعد الفضيحة وصرخة كونيغ، بدأ الناس ينظرون إليه شذراً فطلب نقله.

في المزرعة، وفي مناسبة الخامس عشر من أغسطس، نكون عشرة أو خمسة عشر، وعلينا أن ننام اثنتان أو ثلاثة في السرير الواحد ونمد الفرش على الأرض للصبية، يا للسعادة!

هذه المرة أعود إلى المزرعة مع موت كونيغ وذكرى المستشفى والنعي

ثم يطلق فكتور النار في الليل.

وأخيراً شعرت بالنعاس. كنت أعلم أن العاصفة وصلت السهل ولكن حصل هذا منذ ساعة ويبدو أنها تلاشت الآن وتوقف البرق وبات بعيداً. لكن لا شيء من ذلك أبداً. إذ عادت بخطى ذئبية، جمعت كل قواها وانفجرت هنا تحديداً فوق المزرعة مثل القذائف المدفعية...

قفزت واقفةً والتفت إلى ماتيلد، وجدتها بهيئة... عابسة أم ضاحكة؟ بالنسبة إليها العاصفة... هكذا هي طبيعتها، طريقتها بالوصول دون سابق إنذار، برشق من القذائف... بقيت على ذهولي وقلت لنفسي: «هذا غير ممكن، أنت تحلمين...». لا أبداً: بدا خداها لامعين رطبين. لم يكن ذلك بسبب العاصفة.

في صمتها، ودون أن أشك بشيء وحتى دون أي شهقة، علام كانت تبكي؟ السعادة المفقودة، الوحدة، سعادتها التي كانت كسعادتنا قصيرة جداً... أنا أيضاً، في يومٍ من الأيام وبعد وفاة باتيست بوقتٍ قليل، قلت لنفسي: «ها أنت وحيدة، لن يعود أبداً وهذا ما لم يغير الكثير بالنسبة إليك، سيؤلمه بالطبع أن يعرف أنك لا تشعرين بالكثير من التعاسة لغيابه...». كان الوقت مساء، أقفلت البقالة ولم أشعل بعد قنديل الغاز والناس ما زالوا يتنقلون في الشارع، فجأة ودون سابق إنذار وجدت نفسي غارقة بالدموع وقد تحولت عينيّ بلحظة إلى نهرٍ وحلقي إلى بحيرة. دموع برائحة البهارات والخضار المجففة والبرقوق، كل روائح البقالة، البسكويت والرقاقات المحشوة في العلب ذات الطبقات، البن المطحون، السكر، حديد العلب الحافظة، كل ما يصنع حياة البشر، الدموع وسط كل ذلك؟ لماذا يا إلهي؟ لأن رجلاً رحل عنكِ وما عاد موجوداً لا على الأرض

ولا في الليل؟ ما عاد عليك أن تخجلي عندما يقبض عليك شعور مفاجئ بأن كائناً بكل أماله وأحلامه وكل عالمه اختفى وأن الظلم سيلحق بك أنت أيضاً. أليس ذلك هو المنفى؟

من تبكي ماتيلد؟ كونيغ الذي انتهت من تعذيبه؟ ديماتون الذي نقل عمله إلى بوينت بيسكاد دون أي يقيم أي حسابٍ؟ زيزي الذي ينام في الجهة الأخرى من القاطع أو ديزيريه الذي نقل والده مع حاملي النعش ليسهر عليه مع أرتور وخاله أيمي والذي لن يفهم لماذا لم تأتِ أمه إلى الدفن؟ أو ببساطة على نفسها أو حتى الموت نفسه، كل هذه الأشرعة الحزينة التي ارتفعت في بحرٍ داكنٍ عند المغيب، كما حصل لي؟

ارتميت عليها وحضنتها، اعتقدت أن سؤالي الأخير هو ما صدمها، توسلت إليها: «اعذريني، حبيبتي أختي لم أكن أعرف...» تلعثمت وارتميت عليها: «احميني...» لا معنى لهذا ولكن في لحظاتٍ كهذه أين هو المعنى؟ أين هو الضوء؟ أو ربما لأني كنت خائفة من العاصفة وجدت ملجأً لدى ماتيلد وهي وجدت ملجأها عندي. لفت كتفي بذراعها.

وهكذا نمنا وسط التماعات السماء.

الفصل الثاني
الدفن

ماتيلد تعطي أختها مغلفاً لترميه على قبر الشرطي.

1

أفقت متأخرة، وكان الصمت يعم الإصطبل، وجدت ماتيلد واقفة تمد لي فنجان القهوة الساخن. نهضت دون أن أتذكر أمر العاصفة التي اجتزناها.

فكتور في الباحة منذ وقت مرتدياً بزة رمادية وقميصاً أبيض وياقة ومعتمراً قبعة غامقة من اللباد. فيما يخصني الأمر سهل، ليس عليّ سوى ارتداء التنورة الحريرية الرقيقة والصدارة الحريرية أيضاً، أي الثياب التي جئت بها إلى المزرعة. دقت الساعة التاسعة وما عاد لدينا الوقت لنضيعه. عانقت أمي وماتيلد أما زيزي فكان ما زال نائماً. وانطلقنا دون أي كلمة.

ركبنا العربة ذات العجلتين والتي أسرج إليها الحصان المرقط الذي يسمونه العربي. قفزت إلى المقعد بجانب فكتور، وفي هذه اللحظة بالذات ركضت إليّ ماتيلد ودسّت بين يدي ورقة وقالت هامسةً: «ارمِ هذه على القبر».

ورقة هكذا يمكنها أن تطير، وباستغراب سألتها: «فوق القبر أو في داخله؟».

فأومأت بحركة تعني «كما تريدين».

أرخى «مفتاح» لجام الحصان وطرطق فكتور بلسانه ضارباً بالسوط ردف الحصان العربي فانطلق يخبو، فيما كانت الأم تنظر إلينا من أعلى الدرج. «هولا... هولا»، صرخ فكتور، على وقع صرير الحصى المنزلق تحت حوافر الحصان وعجلات العربة. وضعت في حقيبتي المغلف الأصفر الخفيف الشبيه بتلك المغلفات التي تستعمل للمراسلات. رسالة؟ غريب.

وصلنا بسرعة إلى مفرق الطريق الممتدة دون نهاية بين الكروم وصولاً إلى الجبل الذي اختفت قمته بين الغيوم، وحينئذ انتابني إحساس بالخفة، ما يشبه السعادة، فبالكاد هزتني هذه الوديعة التي حُمِّلت بها ومازحت فكتور «لا بأس، بومتك تلك[1]...».

زمّ فكتور عينيه وأنفه، وهز قليلاً الرسن. «سأحصل عليها، سأحصل عليها...». بقي يردد ذلك حتى بعد مزرعة مانينت، عندما دخلنا تحت كاتدرائية الكينا كما أسميت الجادة التي تؤدي إلى سيدي موسى. لابدّ من أن عمر الأشجار هناك لا يقل عن نصف قرن. أشجار هائلة، تبلغ طول... وغصونها المتشابكة تشكل قنطرة تمتد لمسافة كيلومترين، وفي أسفلها تلمع القرية كمذبح تحت زجاج ملون.

عند رؤيتي العمال الكثُر المنتشرين بين الكروم سألت فكتور: «مفتاح، كم هو رقمه؟».

نظر إلى فكتور مستغرباً: «رقم ماذا؟».

شرحت له أنه وكما الحال بالنسبة إلى الكلب سيزار، وبما أننا كنا نعطي دائماً الاسم نفسه للكلب، حاولت أن أحسب كم يمكن أن يكون رقم سيزار الحالي، الخامس أو السادس، وخطر لي أن الأمر نفسه بالنسبة لمفتاح

(1) هنا ربط مع البومة التي حاول اصطيادها ليلة أمس ولم يفلح.

بما أن كل العرب الذي عملوا في مزرعتنا حملوا دائماً الاسم نفسه. مفتاح الذي يعمل لدينا يحمل اسم أبيه مفتاح. أهو ابن مفتاح الأول أم حفيده؟

فكر فكتور.

– لا، إنه الابن.

– إذن هو مفتاح الثاني.

ابنه عمار، حين يتولى المسؤولية بعده سيسمى كما الملوك، مفتاح الثالث. ليسوا تعساء، لديهم كل ما يحتاجون إليه. وعندما يموت لديهم أحد ما لا يبالغون في رد فعلهم، تجري الامور بسرعة، يدفنون الميت في حفرة مع نبتة تين؛ ينظرون إلى الحياة بشكل مختلف.

الأم مصرة على أنه شخص لطيف. مهما لبس يبدو رثاً، فالخرق التي يرتديها تبدو صادمة، ماتيلد أيضاً خاطت له السراويل والصداري.بما أنها تحسن جيداً الخياطة. وعلى الرغم من ذلك لا يبدو نظيفاً مرتباً سوى ليومٍ واحد. ما إن يعود من كوخه حتى يغرق في البؤس ثانية، فذلك أقوى منه، مع أنه لا ينقصه شيء، لديه كل ما يلزم من مكانس وحصر.

معه هو وفكتور، تلقى الولد تربية غريبة. فكتور هو خاله، لكني أعترف أيضاً أنه في بعض الحالات، يبدو أكثر راحة عندما يكون وحده مع مفتاح. ربما لأن مفتاح لا يتشدّد في مراقبته، فيتسلى أكثر بلعب دور السيد الصغير الذي تطاع كل رغباته؟ الولد يحب مفتاح، رأيته يعانقه لكنه أيضاً يضربه إن لم يطعه، وكلما ضرب الولد بقوة، غرق الآخر بالضحك. سمعنا بوق سيارة خلفنا، انحنى فكتور إلى اليمين وتحكّم جيداً بالحصان. السيارة كانت مكشوفةً، تخطتنا مخلفةً وراءها رائحة نفطٍ وغيمة غبار. رجلان في المقعد الأمامي وامرأتان في الخلف يغطي وجهيهما شالان بنفسجيان.

يأتون بالتأكيد من الجزائر. رفعوا أيديهم بالتحية عندما تخطونا. «هؤلاء»، قال فكتور، «إن كانوا ذاهبين إلى روفيغو، فسيصلون قبلنا بسيارتهم هذه...».

نظر إلى سيارتهم تبتعد وهي تتقافز قليلاً فوق الحفر. شعرت برغبته فيها.

أتحب امتلاك واحدة مثلها؟

إنها سيارة دارّاك[1]، لا تتعطّل.

لا يحب أن نغيظه بأمورٍ كهذه. «اشتغلت طيلة حياتي ولم أستطع يوماً امتلاك سيارةٍ كهذه، فالأم تخبئ كل شيء. أحصل على عشر الحصاد والغلة، فماذا يمكنني أن أفعل بها؟».

المزرعة أساساً تعود للأم فهي مسجّلة باسمها. ولكن شيئاً فشيئاً تنتقل ملكية الأشياء إلى فكتور، ويعيدون ذلك لعمله في المزرعة. فعند موت الأم سيحول كل شيء له بحجة أنه ضحى ليحافظ على أرضنا المشتركة مع العرب. ومن وقتٍ لآخر يشتري أرضاً من العرب من أمواله الخاصة ويعيرها اهتماماً خاصاً وتدار بشكلٍ أفضل فتدرّ إنتاجاً أفضل. وبفضل ماذا؟ ثيران مزرعتنا وأدواتها. ندّعي أننا لا نعرف شيئاً. فالأم مضطرة للتغاضي عن ذلك، إذ أن الولدين الآخرين غير مهتمين بالأرض، إيبوليت لديه ملحمة في لاربعاء وأيمي شغوف بالآلات، خاصة أنه لا يتفاهم مع فكتور. فبما أنهما غير شغوفين بالخصام وزوجة إيبوليت لا تحب القرية، أخليا له المكان. ففي الحقيقة فكتور هو من يسيطر على كل شيء.

في سنك هذا، عليك أن تتزوج وتقدم سيارة لزوجتك.

(1) Darracq هي سيارة فرنسية صنعت للمرة الأولى في العام 1896.

أتعرفين كم ثمن سيارة دارّاك؟ أكثر من سبعة آلاف فرنك.

ادعيت أنني لم أسمع وحدثته عن أنجيل: «إنها لطيبة هذه الفتاة، ذكية وحساسة وعاطفية...».

يجدها صغيرة قليلاً بالنسبة إليه، فهو يفضل أختها ماري. احتار وراح يقيم المقارنات بينهما. فصدمته بالقول: «عليك أساساً أن تعجبها بشكلك الكهل هذا. أنجيل ليست أياً كان...».

وصلنا أمام الكنيسة ثم أمام أورفيلا. ودون أن يخفف سيره صافح بعض الأصدقاء، تخيّل نفسه راكباً سيارة مكشوفة حمراء لها مصباحان من النيكل ومبدل للسرعة، يطلق البوق «بومب... بومب...»، وامرأة جميلة إلى يساره بفستان بنفسجي، ويسمع الناس يرددون بعد مروره: «إنه فكتور باري...». نفخ صدره وحادث نفسه بأن البيريه ستليق به أكثر من القبعة القش أو اللباد، كان يحلم.

عند التقاطع، انعطفنا باتجاه روفيغو. إلى اليسار حقل كبير من القمح، إنه موسم التحسير، يتحول فيه الأخضر إلى زرقة داكنة وبعدها مباشرة يغدو أصفر. وإلى اليمين، تمتد الكروم حتى الجسر الحديدي للحرّاش. هنا ترك فكتور الحصان يمشي على إيقاعه الخاص لكي يرتاح قليلاً أو ربما بداعي الحذر حتى يتخطى النهر الذي فاض بأمطار الأمس. أحب أشجار الزيتون على ضفاف الأنهر والرمل الرمادي والحصى، دائماً كنت أتخيل نفسي أتوقف هنا وأغطّس قدمي في المياه المنعشة. هنا رأينا قطيعاً من الغنم.

لاحق فكتور نظري باتجاه الرعاة والعمال الذي يقومون بسلفتة[1]

(1) أي رشه بالمادة الكبريتية.

الزرع.

«لو أمكننا تخطيهم فسنرتاح صدقيني. ليس هناك سوى متوهمين مثل ديماتون يتخيلون أنه بالإمكان الخروج بشيء من هذا العِرق. أنا أترك ديماتون يتكلم إذ يسليني ولكنه يقترف خطأ جسيماً».

بعد الجسر، شدّ فكتور سير الحصان، هنا الطريق مستقيمة تقريباً باتجاه روفيغو ويمكننا أن نلمح من بعيد السقوف والجرس والبساتين. الجبل يقترب منا ومع قمته الغارقة في الضباب يمكن أن نخاله بركاناً. الهواء يهب قليلاً حاملاً رائحة حقول العطرية[1] من القرية.

كانت أنجيل هي التي تدير رأس فكتور.

– أليست مسرفة قليلاً؟

– المسكينة... هي وأختها ترتديان أيّ شيء. لا أعرف كيف تتدبران أمرهما.

تمكنا من تفادي الموضوع الحقيقي. فمع كل توارك[2] للحصان ومع كل قرقعة للحوافر كنا نتقدم وتقترب ساعة وصولنا. صمته مرده خوفه من أخته الكبرى ماتيلد. نحن لسنا قضاةً، فلديها أسبابها حتى لو احتفظت بها لنفسها.

عاد إلى مجال الميكانيك، فهو يفكر بشراء آلات لدرس الحنطة والفلاحة من مالكين آخرين وإقامة شراكة مع أيمي وتشغيل ديزيريه، ولكن هذا الأخير سينضمّ بعد قليل إلى الجيش. عندما يكون الشخص نفسه عامل ميكانيك ويحقق نفسه بنفسه يمكنه أن يكسب المال.

(1) العطرية أو العطلرشة نوع نباتي ينتمي للفصيلة الغرنوقية. لأوراقها رائحة عطرية قوية، ولذلك فهي تستعمل كمنكه للشاي.

(2) توارك أي تخلّع الوركين أو التخلّع في المشي.

– لمن تترك كنوزك؟ أجبته لكي أستفزه. أتظن نفسك ستعيش أبداً. الحياة تمر، ثم افترض أن حرباً ما وقعت...

– مع من؟

– منذ زمن بعيد وأنا أسمع الكولونيل يتحدث عن انتقام...

تنهد بشيء من الاشمئزاز. «أهل فرنسا... هكتور لم يستوعبنا يوماً. لا يفكر مثلنا. نحن ولدنا هنا. انظري ديماتون هذا، فهو لن يفهم يوماً. وألمانيا أقفلنا موضوعها مع وزير كالذي لدينا اليوم: برياند الاشتراكي. أنا أيضاً اشتراكي لا أعلن ذلك على الملأ ولكن لديّ في النهاية ميول اشتراكية. ثم كل ما نخترعه: ليس فقط الطائرات، برج إيفيل الذي يوصل الإرسال مع أميركا. في المقابل لديهم المناطيد[1] ومدافع من الألومينيوم. الطرفان قويان فكيف يمكن أن تقع حرب بينهما؟ أو فليقيموها بين بعضهما لو شاءا. أما العرب فكيف نسيطر عليهم؟ لا يمكننا أن نرسلهم ليقتلوا من أجلنا، فهم لا يرغبون أصلاً في الخدمة العسكرية. لا يمكن ارتجال أمر كهذا. علينا أن نبقى في مكاننا كي نتمكن من ضبطهم».

حسب ساعتي، كانت قد قاربت العاشرة عندما وصلنا إلى أولى المنازل في القرية.

توقف القطار في الساحة وركن فكتور العربة بالقرب من الحديقة حيث يعمل هناك عرب على حماية العربات. حضّرت السيدة لاغاريك غداء للمقربين. تكدس الناس أمام الباب، أما الصالتان الكبريان في المطعم والمقهى فبقيتا فارغتين، إلا ان رائحة الطعام عبقت في المكان بشكل غير

(1) هنا يتكلم عن الألمان.

مناسب، يخنة غنم أو بقر؟

وضع النعش في الرواق المؤدي من الجهة الخلفية إلى الباحة. لاحقاً علمت أن ديزيريه لم يشأ أن يضع والده في الغرفة. ولكن إذن هنا! من سيرغب بعد هذا بالدخول إلى الفندق؟ تجمعت العائلة كلها حول ديزيريه، وبين الواقفين أخي أيمي بالقرب من النجار فيرتو (هو ليس فرداً من العائلة وإنما بمثابة واحدٍ منها) وإليز بالقرب منه، أخي إيبوليت وزوجته، أختي لاتيتيا التي كانت تحمل ابنتها الثانية، وفي الزاوية جلس هكتور مهيباً بشعره الأبيض وبجانبه مارغريت.

تقدمنا لنعانق ديزيريه، بدا متعباً حروناً ضائعاً، تجمّد أمام النعش المصنوع من خشب السنديان والذي غطي بعشب الدلبوث. أزعجتني نظراتهم المستغربة لي ولفكتور، أحد لم يصدق عينيه. انتظروها أكثر منا وتوقعوا أن نصطحبها معنا، لم يتخيلوا أن بالإمكان حمل زوج إلى قبره دون حضور زوجته، ولا أن يترك ابنٌ وحده في مثل هذه اللحظات الأليمة.

بدا هكتور غير مكترث، فمجيئه وهو الكولونيل لوداع شرطي، يعتبر بحد ذاته فخراً كبيراً. كما أن على ديزيريه ونظراً لسنوات عمره الأربع والعشرين أن يتدبر أموره.

همس لي أرتور: «ألن تأتي؟».

فأجبت بإيماءة من يدي مفادها أنني لا أعرف.

لا، ماتيلد لم تحسن التصرف، يمكن قراءة الإدانة على وجه إليز الواقفة قليلاً خلف أبيها، ولو تجرأت لتسمّرت بالقرب من ديزيريه لمؤاساته، فهما لم يرتبطا بعد رسمياً. والآخرون آه! يا إلهي... الآخرون حمّلوني

المسؤولية؛ توبيخ وتعنيف صامتان، أوهي غلطتي أنا؟

لحسن الحظ لم يتأخر الكاهن في الوصول بعدنا مع أربعة أولاد من الكورس. بارك الجثمان بمرشته وتمتم الصلوات وانسحب فتبعناه، مال على هكتور:

– أين هو زيزي؟

– في المزرعة.

انا متأكدة أنه لم يأتِ سوى لرؤية ابنه بالمعمودية. هزّ رأسه بأسى.

كان هناك الكثير ممن لا أعرفهم، كل البلدية (فكونيغ كان مستشاراً) وحتى أنه شارك وفد من شرطة لاربعاء. بدوا جميعاً محبطين وشبه غاضبين وأخذوا يجيلون أنظارهم محملقين وكأن ماتيلد ستخرج من وشاح أو قبعة.

التصق بنا كلب أسود وكأنه يفتش عن شيء ما، أبعدناه عنا برفق فذهب إلى عربة الموتى حيث وضع النعش الذي غطي بشرشف أسود طرز بالكثير من الورود.

سألت أرتور عن الكلب فأشار بحركة غامضة وقال: «مسافر ترك له هذا الكلب في أيامه الأخيرة فتعلق به».

في الكنيسة القريبة جداً من المكان بدأ قرع الأجراس. دون جلبة أخذ احدهم الكلب وحبسه في الفندق. اقترب مني هكتور: «يمكن الآن لفكتور وديماتون أن يتزوجا».

هو أطرش قليلاً ولذا يتكلم بصوتٍ عالٍ. ولحسن الحظ وبسبب صوت الأجراس لم يسمعه أحد. والآن طالما أن المدرّس يعلّم في بوينت باسكاد، ما الذي يمنع أن يقع في غرام امرأة أخرى هناك بالطريقة نفسها؟ امرأة

أخرى وطفل آخر... فلا شيء يردعه. دموع ماتيلد ليلة أمس، المنفى.. ربما كانت تعرف أكثر بكثير ربما مما تظهره.

«أتعتقد؟».

رفع كتفيه: فلنر، فلنر، هذا مؤكد.

2

في كنيسة سيدي موسى، لدينا برج للكنيسة وجرسان والجدران مطلية بملط الطين. أما كنيسة روفيغو فبنيت بصخور الجبال المكشوفة بلونها الرمادي، وهناك جرس واحد عند القبة في برج أجراسٍ غير واضح جداً للعيان. أما من الداخل فإنها كناية عن بؤس كامل، ولا لوحة واحدة ولا تمثال. مذبح تعيس. أما كرسي الاعتراف؟ فمصيدة فئران. لم يحيي الكاهن القداس أو أني لم أتنبه لشيء. فأنا لست مدمنة على الماء المقدسة، نسيت كل هذا منذ التعليم المسيحي في المدارس. فبرأيي يمكن أن يقتصر الأمر على غفران بسيط وليبيرا[1] وفرصة لإحراق القليل من البخور لإزالة الروائح المريبة، ورش التابوت بالماء المقدسة. تقاليد دينية جميلة أساساً، وليس هناك من سبب لعدم إقامتها. ولكن لماذا الفضيحة؟ فحتى وفاته كانت مناسبة لفضيحة. لم يكفّ الناس عن التلفت إليّ، بنظراتهم القاتلة. لا، لا، ليست هنا، فماذا تريدونني أن أفعل؟ كان استغرابهم مهولاً. بدأوا يحنقون وسمعت ضوضاء استهجانهم وانفعالاتهم وفي الوقت نفسه استياءهم من الطريقة التي أقام فيها الكاهن القدّاس. ماذا يريدون أساساً هؤلاء الشكّاكون؟ أن تأتي إلى هنا بوشاح الأرملة، وأن تدعي الاتكاء على

---

(1) Libera قداس يقام باللاتينية يسبق دفن الموتى أو يقام في ذكرى الراحلين.

كتف ديزيريه وتمسك بيد طفلها بالزنا، لكي يتمكنوا من مراقبتها بشكل أفضل، هي التي رحلت ولم يروها منذ ثلاث سنوات؟

امتلأت الكنيسة، وبقي الكثير من الرجال في الخارج. الناس هنا مثل هكتور، لديهم ميول اشتراكية ويتباهون بأفكارهم المتقدمة. جلس هكتور بجانبي ويداه على مقبض عصاه، إذ لا يمكن لرجلٍ بعمره أن يبقى واقفاً إلى الأبد، وجعل يمسّد لحيته. فهل يمكن لماتيلد أن تفكر وتشعر بالندم وتقرر فجأة وتستقل العربة، لذلك وبطريقة آلية وجدت نفسي ألتفت إلى الوراء. ولكن لا، لا أحد. فحسب معرفتي بها، هي تفضل أن يقطعوا لها رأسها على أن تتراجع.

عند خروجنا من الكنيسة هبّ هواء قوي وكأنّ غابة بأكملها تصفّر. فتذكرت ما يقال عن روفيغو: «هذه البلاد التي لا تستقر النجوم في سمائها». الرجال المتوقفون في الخارج ما زالوا يبحثون عنها، ربما وصلت دون أن يروها وتسللت إلى الداخل من باب مجلس الكنيسة. وكانوا سيقولون: «هذه هي الحياة، فقد خانته، ولكن عند موته أحسنت التصرف...».

اقترب مني إيبوليت عندما كانوا ينقلون النعش إلى العربة، وقال لي بصوت خفيض: «كان عليك أن تجبريها».

فمع أن إيبوليت رجل رقيق وهادئ ولا يتهور أبداً ولا يتلفظ بأي عبارة طائشة، لكنه هو الآخر كان مصدوماً.

والآن ونحن نمشي إلى المقبرة، الأشجار والحجارة والبيوت والغبار والذباب وأسيجة البستان والناعورة التي تدور في حوضها والجرس، كلها

تصرخ: «أين هي؟». رئيس البلدية مع لفاعه محاطاً بلجنته الاستشارية، آل ليكوتر، آل غازان الذين يزرعون إبرة الراعي ويقطّرونها، الخبّاز، الناطور، صانع البراميل زولير، آل ديسوبري، وآل كوش. وأولئك الذين لا أعرفهم ارتسمت على وجوههم علامات اشمئزاز كقناع من الخزي. والكاهن الذي يسير مع كورسه من الأطفال بدا نافد الصبر. عندما انطلقت عربة الموتى، بدا ديزيريه مربكاً فهو بالتأكيد ليس معتاداً على ذلك، إلا أنه عاد وحث الخطى خلف الميت كرجل آلي مطأطأ الكتفين. مشى أخي أيمي بجانبه. لم يكن بالإمكان رؤية أيمي، هو رجل أشقر أزرق العينين، رجل شفاف وأب هادئ، أمسك بيد ديزيريه وقال له: «ما يحصل لك أمر رهيب، لكني معك».

عجلنا الخطى للحاق بهما.

لاحظت، من حيث أنا،، أن ليس هناك سوى عائلة باري، لم تتمثل عائلة بويشو سوى بمارغريت؛ تلك المرأة ذات الوجه المغلق. ولدت ماتيلد بالطبع في عائلة باري ولكن كان عليها في الحقيقة أن تحمل اسم عائلة بويشو، فهي تنتمي إلى هذا العرق العنيد المتكبر، خالتي لاتيتيا من بوفاريك هي الأخرى لم تزعج نفسها بالمجيء.

ندمت لعدم اصطحابي أنجيل معي. فأختها وابنتي كانتا كافيتين لإدارة البقالة وما كانت أنجيل لتنسى إحضار الورود. فالآن وأمام ديزيريه اشعر بالخزي لوصولي فارغة اليدين...

لطالما شكلنا عائلة مترابطة ولم تكن الأمور تجري على هذه الشاكلة. فخلف عربة الجنازة تنقص امرأة بفستان أسود طويل تمشي بين ابنيها.

وكلما حاولنا أن نملأ هذا الفراغ كان يتسع أكثر وأكثر. العرب ينظرون إلينا بازدراء كبير، بالنسبة إليهم أيضاً هناك فضيحة ما. دمدم فكتور:

- علام ينظرون إلينا شذراً؟

- ونحن ننظر بدورنا إليهم، قال هكتور.

خيل لي أن أنجيل تمشي بجانبي وتتحدث إلي من دون أن تحرك شفتيها مثبتة نظرها أمامها على ديزيريه، وقد غطت رأسها بوشاح أسود تربطه عند صدرها مثل طرحة إسبانية. وبهذا الوشاح تبدو ناعمة نحيلة غارقة في الحزن تماشياً مع الوضع بيد أن كلماتها...

«هل كنت لتريدي أن تقبل ماتيلد بكل شيء؟ بالنسبة إلي مع زوج كهذا وابن يشبه والده لكنت شخت مثلها. نحن عزيزتي في ظرف عشر سنين من الزواج ببطل تقوم أمجاده على قنص العرب أسفل جدران أومال، ولو جاء رجل آخر ليكلمني عن النجوم... ماذا يريدني...».

ابتسمت وفكرت في فكتور الذي يعتقد نفسه محتالاً جداً، امرأة كهذه يمكنها أن تتحكم به.

«ماتيلد، ليست أياً كان. ماتيلد هي الضحية. كل العالم مع رجل يستعمل عمله ضد العرب واليهود والتعساء أو بعد ذلك، وبعد أن تقاعد، يعوي بوجه العمال أو ينثر الزبل على الطرقات أو يشرب الخمر... كيف كان لها ألا تكون أول من تهجر زوجها؟ لا تلومينها على جرأتها هذه، كنت لتصرفت مثلها لو كنت في مكانها. ثم بسبببكم أنتم جميعاً غابت ماتيلد. لم تشأ أن تهين أخوتها وأخواتها وآل باري العظماء، المستشارين البلديين والملاكين. فلكي لا تصدمكم غابت عن الأنظار. والنتيجة! تواجه بالحقد والنميمة والسذاجات. ديماتون ومن خلال اللوحة التي ترسمينها

له، يبدو لي رجلاً حقيقياً. فحري بكل الموجودين هنا...»

«اليوم تريدين أن تلعب ماتيلد دور الأرملة الكئيبة. يمكننا دائماً أن نرثي أنفسنا ونذرف الدمع على أطفال أخرجناهم للحياة لنعرضهم لقبيلة من الأفاعي وشهود الزور والأوغاد...».

هنا كانت تبالغ، حاولت أن أقوم بحركة لأعترض. نظرت إليّ مارغريت باستغراب:

– ألستِ بخير...

– بلى، بلى. لا شيء.

حاولت العودة إلى الواقع.

3

من الكنيسة حتى المقبرة هناك ما يقارب ربما الثلاثمئة أو أربعمئة متر. الطريق مستقيمة تماماً ومسورة كما في سيدي موسى، بيوت واطئة السقوف ومحلات: بقّالات عربية، مخبز، مصنع حدادة وتاجر حبوب. ثروة كونيغ جاءت من كون الفندق مقهى في الآن نفسه، ولا يمكن شرب الخمر ولعب الورق في آن معاً سوى في هذا المكان.

صدمني صوت هكتور: «سموا لي حكاماً تجرأوا على الوقوف ضد مصالحكم. فقد اكتشفتم أن العرب مُنحوا الكثير من الامتيازات، وأن عليهم أن يدفعوا ثمن ذلك غالياً جداً، وأنه من غير المفهوم لماذا لا يثورون على واقعهم، لم تفهموا أنه وبعد...».

لوح هكتور بعصاه. كان عليه أن يتوقف كي يأخذ من الحضور شهوداً على كلامه، لكنه لم يتمكن إذ كانوا يدفعونه ويدوسون على قدميه، فيتلفت

بنظرات غاضبة. تخطينا مفرق سيدي موسى وأكملنا باتجاه لاربعاء. هنا، تسور الطريق أشجار الكينا ولكن الفيء لا يصل إلى الرصيف وأحد لم يفكر في حمل مظلة، إذ بدأ الطقس يميل إلى الحرّ. ومع أن هكتور يعرف بأنه لا يقنع بهذا الكلام، بيد أنه أراد من خلاله أن يسمع الجميع. صوته غطى على ضجيج الخطى ونشيد الكاهن الأبعد بقليل وطنين الذباب الذي أرهقنا. من مستوى قبعته أمكنه مراقبة الجمع بشعرٍ يجعله يبدو أسداً عجوزاً.

– حسناً، أُسقط كليمنصو. وخطرت للجنرال مانغين فكرة قوة سوداء في الجزائر لمراقبة الأهالي إذ فكر بوضع السنغاليين لمراقبة العرب. ولكن كان هناك عائق واحد هو أن السنغاليين مسلمون، إذن أخوة مع العرب في الدين. اعترضت الأخبار وجان جوري[1] أيضاً: لا يمكن للعرب أن يقبلوا الخضوع للسود. وفجأة، استعيدت فكرة التجنيد الإجباري للأهالي. انظر إليهم، ألا يمكنهم أن يصبحوا جنوداً جيدين؟ فقد رأيتهم في صفوف الجيش خلال انتفاضة القبائل، كانوا الأكثر ضراوة.

– في اليوم الذي سينقلبون ضدنا...

– لأيّ سبب؟ لم أستأجر يوماً إلا منهم. لا يمكن تجنيدهم جميعاً، فهم كثر، يمكن الاختيار بالقرعة ونستبعد الضعفاء منهم. خذ مثلاً الخادم في المطعم، لماذا لا يؤدي الخدمة العسكرية؟ ألأنه سيمتلك حقوقاً بعد ذلك؟ يا عزيزي عليكم أن تعرفوا ماذا تريدون. إذن أقفلوا بوجههم مدارسكم. أتذكر: ديماتون استقبل واحداً في صفه...

(1) Jean Jaurès هو زعيم اشتراكي فرنسي.

مع هذا الاسم الذي تفجر في الموكب خلف عربة الموتى! خيل لي أن الشرطي تزعزع في نعشه.

«كان ابن البقّال، كم ولد هناك في المدرسة اليوم، عشرة؟ عشرون؟ إنه التطور. ألديك شيء ما ضد البقالين وأولادهم؟».

لست متأكدة أن أنجيل تشعر بالحذر مثلي تجاه العرب. فأنا أميل إلى رأي فكتور. أنجيل ولدت في مدينة الجزائر، ولذلك لا ترى الأمور مثلنا. فهي تتحدث إليهم، وأنا أيضاً أشتري منهم الخضار والسمك، ونعرف بعضنا بعض ونتبادل أخبار العائلة. بالنسبة لأنجيل الأمر مختلف فهي تذهب إلى درجة النقاش معهم في السياسة لا بل تقوم بوعظهم. هذا ما يجعلها متجاوزة الكثير من الحدود...

هذا الولد القديم لديماتون، أتذكر نقاشاً معه، هنا بالتحديد، في يوم العمادة. حصل ذلك منذ زمن بعيد، كدت أنسى ذلك، منذ ثلاث سنوات في عيد الميلاد.

في ذلك اليوم وبعد الغداء، خرج هكتور ليتنشق الهواء، فاصطحبني معه ورحنا نتمشى في الساحة وننظر إلى أشجار النخيل في البستان المحملة ببلح بلون الزعفران، هنا البلح لا يكبر كثيراً ولا ينضج بل يتغضن ويقرقشه الأولاد غير أنه ليس طيب الطعم. ثم هبطنا باتجاه حقل إبرة الراعي، قال لي هكتور: «تعالي وشمّي، لها رائحة جميلة». هنا التقينا بالمدرّس يتمشى مع شاب من القبائل وحتى إني أتذكر اسمه، بلقاسم بلعباس كما قدمه لنا. وحالما عرف من أكون، هاجمني بلقاسم: «آه أنت من آل باري؟ واحدة من أولئك المستوطنين الذين سلبونا أرضنا؟».

فبعد كعكة سان – أونوريه والخمر الفوّار والقهوة والليكور كنت أشعر

بدوار خفيف قي الرأس، وقد احتجت إلى ذلك النقاش كي أخرج من جو الحفلة التي حملت فيها ابن ديماتون في جرن المعمادية، ولا يزعجني أن أتواجه الآن وجهاً لوجه مع ديماتون.

– قل لي، أجبته، نحن لم نذهب إلى المدرسة نفسها وأنا لم أنس ضربة مروحة ما. لم يكن القنصل الفرنسي هو من ضرب بها داي الجزائر وأنت تعرف أين. في القصر في أعالي القصبة.

– لا تصدقي كل ما يُحكى لك أيتها السيدة: التاريخ مفبرك.

– على الأقل هذه القصة غير مفبركة.

بشيء من السخرية قال ديماتون: «هيا الآن، كل هذا من الماضي».

صحيح أنه من الماضي، ولكن من الذي بادر بالإهانة؟ من الذين مارسوا القرصنة في البحر الأبيض المتوسط؟ من الذي وضع قنصلاً آخر، الأب لوفاشير، على فوهة المدفع الذي ما زال بإمكاننا مشاهدته في مركز القيادة البحرية بالقرب من القناطر؟ العرب، يجب أن نقبل كل شيء. في اليوم الذي ستغضبون فيه سنرسل جيشاً ليغسل المهانة عن القصر الوطني ومن ثم سيثير ذلك الدهشة والاعتراض. ولكن بعد فوات الأوان. «وأزمة بكري؟»، أضاف بلقاسم، «كل الديون التي لم يسددها لنا الفرنسيون، ولم تسدد لغاية الآن».

كان عليّ أن أتذكر ما قالته أمي بالأمس من أن ليس في المزرعة أي قطعة أرض أخذت بطريقة غير شرعية. من أين أخذ المستوطنون أرضهم؟ من الحكومة العربية (لم يكن هناك يوماً حكومة عربية) أو من الحكومة الفرنسية؟ على العرب بالأحرى أن يكونوا ممتنين لنا، هم الذين يستفيدون من الرخاء العام، هم الذين يتلاعبون بهوياتهم الوطنية هم وأمثالهم في

الجبال! متيجة، ماذا كانت قبل وصول الفرنسيين؟ مستنقعات وأدغال، مملكة لبنات آوى وإمبرطورية للملاريا؟ استصلحنا الأرض وزرعنا الشجر والكروم. وهم اليوم يتمتعون بحياة كريمة في حين كانوا قبلها يموتون كالذباب. ها هي نتيجة كرمنا. فبلقاسم هذا ليس لديه سوى الغضب والابتزاز، التعليم الذي يعود فضله إلينا انقلب علينا. فهو يعلم التاريخ لأطفالنا على طريقته، أما العرب فيعلمون أولادهم أن يكرهوننا. هنا اختلف مع هكتور وديماتون: علينا أن نتعامل مع العرب بلطف ولكن بحزم. وعليهم أن يخضعوا.

هدّأ ديماتون روع تلميذه. كما لو أنه الأمر يتعلق بأسئلة كبيرة لا يجدر طرحها أمام كل الناس، قال: «دعنا من هذا». شعرت ببعض الغيظ. تساءلت إن كان سيدعونا إلى بيته، أردت أن أرى ذلك البيانو الشهير. بدا لي منزعجاً: أبسبب عمادة ابنه بالزنا أم أنه كان خائفاً من أن يكشف لنا فوضى بيته أو فقره؟

التفت الكاهن إلى اليمين فتذكرت فجأة ما طلبته مني ماتيلد. فتحت حقيبتي وتلمست الورقة محاولة إخفاء ذلك عن مارغريت. مغلف خفيف جداً يتضمن ورقة فيها كلمات ربما كانت قاسية؟ لا يمكننا وضعه أينما كان فالهواء سيحمله.

الجادة المؤدية إلى المقبرة لم تكن طويلة، سياجان من الجانبين يخفيان خلفهما الحدائق وأشجار التين والميموزا. وفي النهاية عامودان أمام أشجار السرو والصنوبر بأغصانه الرفيعة جداً.

وهذا ما أعادني مرة أخرى إلى خطاب هكتور، سألت مارغريت إن كان يفعل ذلك دائماً فارتسمت على وجهها ابتسامة خفيفة:

«دائماً».

رفع قبعته وجفف عرق جبهته بمنديل ثم أعادها وقال لفكتور: «أنت فلاح». ثم قهقه.

بدا فكتور مشدوهاً.

– أنا؟

– نعم أنت فكتور باري.

بدا هكتور مستمتعاً بإحداث الصدمة، فهو يدعي أنه يعرف مشكلات الجزائر أكثر منا. من هنا فهو يطرحها كما لو...

قبل الدخول إلى المقبرة، انفصل عن الموكب وتبعته مارغريت.

– ألستَ بخير؟ سألته.

– بلى، بلى، ولكني سئمت، أكملي مسيرك.

تدخلت:

– لن تتركنا...

– لكي أسمع كل تلك الجعجعة؟ سأدخن سيجاراً.

اصطحبتني مارغريت. مشينا متلاصقتين وانسللنا بين الغرباء. اتكأت قليلاً على ذراعي، فاقترحت عليها أن نتوقف، اعترفت لي أنها ترددت بالمجيء إلى الدفن، لكن هكتور أصرّ عليها...

«أولم تقاوميه؟».

أحنت رأسها مبتسمةً:

«لا أحد يستطيع مقاومته».

الفضيحة لم تعد ماتيلد، وإنما هو. ألم تختره أختي عراباً لأنه تستّر على علاقتها بديماتون؟ ألم تسمِ ابنها على اسمه إعجاباً به؟ واليوم، ألم يرد أن يثبت بانفصاله وعدم مشاركته في عملية الدفن، بأنه يدعم ماتيلد؟ فهو يعتقد أنه مسموح له بكل شيء وعلينا قبول كل ما يبدر منه. أن يدخن سيجاراً في الوقت... سينظرون إليه أكثر على أنه واحد من «البيكو»[1].

توقفت عربة الموتى، رفعوا النعش على المحفّة. والتحقنا بالعائلة، وهنا عادت لي العرّة[2] وتقلص وجهي وشعرت بحلقي جافاً. صمت كبير سيطر على الجميع وما عاد للخطى الوقع نفسه. ممرات المقبرة ليست معبدة والتراب بالكاد مرصوص، وتقدم الموكب أشبه بتكسّر بحرٍ هادئ على الصخور.

تركنا على اليمين مقابر من الرخام ومعابد، وانحنيا يساراً باتجاه المقابر البسيطة التي علّمت بصلبان خشبية تعلوها التيجان.

4

مقبرة روفيغو لا تؤثر بي، فبالنسبة إلي لا وجوه للموتى.

طليعة الموكب كانت محتشدة، إذ تقدمنا حتى بداية الحفرة حيث وضع النعش دون غطاء، وكأنه على ضفة، كمركبٍ ينتظر الصياد ليركب البحر. رفع رجال الشرطة قبعاتهم وتلا الكاهن صلواته وبارك الحفرة وتسلل بين الحضور تاركاً خلفه ولدين من الكورس فقط مع دلو ومرشة وهنا صعد

(1) bicot هي الكلمة التي كان يستعملها المستوطنون الفرنسيون والأوروبيون عامة لوصف الجزائريين، وهي واحدة من الكلمات التحقيرية، والتي تعني الماعز أو صغار الماعز. وقد آثرنا استعمالها في النص كما تلفظ. .

(2) العرة هي تقلص لا إرادي في عضلات الوجه.

ارتقى البلدية إلى كثيب رملي ليشرف على الحضور. إنه رجل متكور، يميل إلى القصر مفعم بالأمل، وحزامه الحريري الملون يكسبه جلالاً. أخرج أوراقاً من جيبه. وفهمت حينئذ لماذا اختفى رئيس الدير بروغاميل، فهما غير متفاهمين. في حين أن في سيدي موسى ما زال في وجوههم براءة ما. هنا، وباستثناء أرتور النجار وأخي أيمي... «مواطني الأعزاء، الرجل الذي نحمله اليوم إلى مثواه الأخير...».

كان كونيغ ليفرح لسماع هذا الصوت الصارم بلهجته المأساوية. «الدركي القديم الذي نحييه هنا، زميلنا في المجلس الاستشاري البلدي الذي كان مثالاً لكل الفضائل... مثالاً للرجل الكادح المستقيم...».

كيف سأتصرف مع هذا الشيء في حقيبتي؟ ماذا سيعتقدون عندما يشاهدونني أرميها في القبر؟ هل أكور الورقة وأرميها مع الورود؟ وسيكون علي أن أذرف دمعةً ولكن الرعب قطع الطريق على كل انفعالٍ ممكن. يبدو ان ديزيريه أكثر تأثراً ولكن هو الآخر لم تدمع عيناه. أخفض أيمي رأسه فيما استمع إيبوليت إلى الخطاب. لا أحد يبكي. «... الشعور بأن الرجل الصالح يغادرنا يبقى فينا.... لأولاده وأرملته...».

لقد تجرأ على قول ذلك، دون أن يشدّد على الكلمة، وكأنها كانت حاضرة.

والآن، يسيرون كالدببة في طابور ليباركوا الجسد بالمياه المقدسة، وهم يتحرقون لانتهاء المراسيم ليهرولوا إلى الثرثرة واختراع علاقة غرامية ما وممارسة مشاعر الشفقة. أين يمكنهم شرب اليانسون؟ ربما قد يفتحون مجدداً المقهى ليقدم فيها عمار المقبلات. بحثت عن عمار، وجدته واقفاً في الخلف، خجلاً وحيداً. رفع طربوشه الذي يسحقه. وأنا التي لم أتجرأ

بعد. ألن يقولوا لي: «هل أضعت شيئاً مدام...»، أو يسألونني من أنا؟ «واحدة من الشقيقات، صاحبة البقالة في شارع ميشليه. لا تبدو لي متأثرة جداً...».

فتحت حقيبتي وسحقت المغلف بين أصابعي في الوقت الذي كان فتى الكورس (هذا الصبي متمرس لدرجة أن بإمكانه أن يحل مكان الكاهن) يناول المرشة للكاهن. مد ديزيريه ذراعه فوق أبيه وأفلتت منه صرخة مكتومة وكأنه يحزّق. وبعده قام أيمي بحركة وداعٍ فيما وضعت إليز رأسها بين يديها. باتت إليز امرأة حقيقية.

كان بالإمكان أن يرتبوا وقوفهم وفقاً للأقدمية، ولكن إيلوين أخلى المكان للخالة مارغريت، وبما أني ارافقها، لي أنا أيضاً. بعد ذلك استغللت فرصة إهالة التراب. وفجأة قبضت على الورقة المضمومة ورميتها عميقاً وكأنها نفايات. فقط لو خطرت لماتيلد فكرة مغلف بلون غامق... تعجلت الانسحاب.

اصطفت العائلة عند الخروج لتلقي التعازي، ولكن بعيداً عن القبر، أكثر قرباً من الحياة. ربما تنبهت مارغريت إلى أنها ليست من الأهل المقربين جداً، أو أنها قلقت على زوجها وذهبت تبحث عنه. وقفت إليز إلى يسار ديزيريه حتى قبل أخي أيمي. رئيس البلدية أيضاً قدم لنا التعازي بنبرته الفصيحة المتفاخرة. كان بإمكانه أن يكتفي بالمصافحة... نساء لا أعرفهن عانقنني. زوجة الخباز سألتني همساً عن أختي، قلت لها إنها مريضة جداً ولا يمكنها أن تتحرك. «أعتقد أن الخبر كان ضربة قاسية عليها»، قالت بخبث.

نظرت إليها بعمق وكأنني أشكرها على تفهمها. الكلبة، لو سألتني عما رميته في الحفرة لما استغربت.

لم ينته موكب المعزين. تسلل عمار باتجاه المخرج. لست مع هذا التباهي وهذا الاستعراض. الانحناء وإظهار التأثر: «شكراً سيدي، شكراً سيدتي، شكراً...».

ولكن فجأة، توقفت الحشرية، وعدنا إلى البساطة والعادية. في النهاية وخلف الأشجار كانوا يعملون على ردم الحفرة. فكرت: «أختي العزيزة، ها أنت حرة يمكنك أن تتنفسي، رجلك كونيغ...».

الكلب الأسود الذي حبس في الفندق، يمشي خائباً بين الأروقة.

جميع أفراد العائلة هزوا رؤوسهم. المقابر والكنائس هي أماكن محرمة على الكلاب ما عدا استثناءات محددة، كما بالنسبة لعمار والعرب كون الحراس غالباً هم من العرب المستخدمين في البلدية، هناك بينهم رجال ثقة. حاول إذن أن تركض خلف كلب لا يريد لك أن تمسك به! أساساً لا يتمتع بحاسة شمٍ قوية، فهو ليس كلب صيد وإنما كلب هجين غامض بين الكلب الثعلبي والبودل، ليس طويلاً أو بالأحرى قصير، يستطلع هنا وهناك، يرفع قائمتيه عند تشممه روائح مريبة ويغير اتجاهه، إنه ضائع. لو تمكن من اجتياز المعبد والمدفن، لوجد ما يبحث عنه، ولكن لا، لأخفق في ذلك. في النهاية أخفض خطمه واقترب منا وهو يعوي عواء خفيفاً ثم ابتعد من جديد. لابدّ من أنه خشي ألا نسمح له باللحاق بسيده.

أشار فكتور لنا بحركة تفيد إخفاقه في ردع الكلب. ألم نخطئ في حق كونيغ، فحتى الكلب الذي لم يمتلكه إلا من وقت قصير بدا وفياً له... كونيغ لم يكن من الرجال الحذقين بالتعبير عن أنفسهم ولكن يبدو أنه أجاد

التواصل مع الكلاب. على أية حال ما نفع الكلام؟ فالكلاب يفهمون دون كل هذه الضوضاء الكلامية. معه لم يعد لدى كونيغ ما يخشاه أو يجبر نفسه عليه، وربما كان طيباً معه. ومن هنا وفاء الكلب له. بمعنى ما أراحني ذلك: فلدى كونيغ شيء ما، هذا الكلب وما طلبت مني ماتيلد أن أرميه في القبر...

لشدة ما ناديناه كان عليه أن يعرف اسمه، وعلى الرغم من أنه لا يجوز فعل ذلك في المقبرة، إلا أن فكتور صفّر له صفرة خفيفة فتبعنا. كان الناس قد ابتعدوا أساساً ولكن بعضهم ما زالوا يتمشون بانتظار العائلة. بدت السماء هوة لازوردية عندما فجأة...

لم أنتبه لشيء، اعتقدت إنها الحرارة هي التي تسبب لي هذا الضيق. في روفيغو، وكون الجبل قريباً جداً تتكدس الغيوم في الجهة الأخرى ثم تنفذ من المكان الخطأ، شعرت بتغيّر في مسار الهواء ثم كراك! صوت رعد رهيب يمزق السماء بعيداً، وبعدها يقترب قليلاً مع ارتدادات في الوهاد ثم قريباً جداً، انفجار...

بدأنا نركض والكلب يلحق بنا.

«ليس من أجلنا»، قال فكتور.

انضممنا إلى إيبوليت ولاتيتيا. نظر إليّ إيبوليت بجدية وهو الذي لا يؤمن بشيء ولا يذهب إلى القداس مثل فكتور إلا في مناسبات الزواج والدفن تفوه بما لا يصدق: «هذا غضب الرب».

عند تقاطع الطريق إلى سيدي موسى، وجدنا هكتور يلقي خطاباً أمام مقهى جزائري، وجمع من البرانس يحيط به.

بدأت بضع نقاط من المطر تتساقط. العاصفة تتدحرج فوق القمم، وتهدر وتضرب بعنف. انحنى هكتور، ولوح بعصاه مهدداً وابتسم:

– كوب من النبيذ...

– هذا، قال فكتور، أوافقك الرأي بخصوصه، أما بالنسبة للباقي...

– تأخر الوقت وبدأت أشعر بالجوع.

– ما رأيكم بفخذ خروف طيب؟ سألت هكتور لأغير الموضوع.

– أعتقد أن السيدة لاغاريك حضرت لنا طبقي المفضل: لحم العجل بزيت الزيتون. لقد شممت ذلك عند وصولي. عجل من فرنسا بالطبع لأن العجول هنا...

توجهنا بنوع من الحماسة إلى الفندق. نظرت إلى هكتور، لقد بدأ يذوي كأشجار التين القديمة هذه أو أشجار الدردار التي تكتسي بالبراعم أو تتخلص من أوراقها حسب الفصول. نعتقد أنها أبدية لكن وعلى حين غرة في الخريف ننتبه بأنها فقدت أوراقها وأصبحت جافة قبل الأشجار الأخرى. في يوم من الأيام ستتفاجأ مارغريت بانه لم يستفق من قيلولته، ستذهب لتتفقده وتناديه. ولن يجيب...

كان الفرن مفتوحاً وفزوجة الخبّاز بدأت تعمل دون أن تبدل ثياب الدفن. ابتعدت العاصفة ولكن فوق البليدة[1] ما زالت السماء مكفهرة. ولكن في مكان أقرب، اغتسل الجبل، يمكن أن نميز عند خاصرته الحقول والدوار مع أسيجة الشوك وفي مكانٍ أعلى الصخور والغابات.

أسراب من العصافير تهبط باتجاه السهل.

(1) البليدة تقع في شمال الجزائر على سفوح جبال الأطلس إلى الجنوب من سهل متيجة، ومدينة البليدة عاصمة متيجة.

5

في الفندق، ما زال الكلب يبحث عن سيده. لا يكفّ عن الذهاب والمجيء بين باب الغرفة الذي أقفلناه وبين صالة المطعم خلف منضدة المحاسبة حيث اعتاد كونيغ الجلوس. تركناه فقد حصل على بعض الاهتمام.

أخذتني لاتيتا جانباً فهي تعاني من بعض المشكلات الصحية وسألتني إن كانت قادرة على ترك ابنتها مع ماتيلد في المزرعة لبعض الوقت فعرضت عليها أن نصطحبها معنا الآن مباشرة إلى المزرعة، فوافقت بسرور.

عانقت ديزيريه وتحلقنا حوله.

«يجب أن...».

فجأة شعرت بانقباض في الحلق وكدت أنفجر بالبكاء. لا نشعر بشيء في اللحظات الأكثر إثارة للمشاعر ثم وعندما لا نتوقع ذلك...

«... لتأتِ وترى أمك. فهي ليست بخير. عليكما أن تتناقشا بالكثير من الأمور...».

ردّ عليّ بنظرة غامضة معزولة عن كل شيء، شاردة. مدت السيدة لاغاريك طاولة كبيرة. عددت الحضور، كنا اثنا عشر شخصاً مع أيمي. بداية المقبلات: معجون كبد الأوز ومقانق وزبدة وبيض ميموزا وسمك الأنشوفة. هكتور ومارغريت على رأس الطاولة، ديزيريه إلى يمين أكبر خالاته، أنا ولاتيتيا نحيط بهكتور. لم يمكنني ألا أتذكر مأدبة العمادة على هذه الطاولة بالذات، وشعرت أكثر وأكثر بفراغ ماتيلد.

لم يبد هكتور مهتماً بما نقول، وعندما حمل عمار الفخذ بزيت الزيتون لمعت عيناه، دائماً كانت له هذه الشهية الكبيرة على الطعام دون أن

ينعكس ذلك غراماً واحداً إضافياً على جسمه، فهو لا يعاني سوى من ثقل السمع. بعد أن التهم طبقه وضع شوكته وسكينه في صحنه ثم مسح فمه بالفوطة، بدا وكأنه سيهمّ بالكلام. فكتور بقبعته اللباد التي تظهر بوضوح لصاقة علامتها التجارية، بدا قلقاً. «بالنسبة إلي، انظروا، أعتبر أنه مع كل ما اخترعناه السيارة والطائرة والكهرباء والهاتف والمسجّل والسينما ماذا أيضاً؟ والطب أيضاً يتقدم بخطوات مبهرة. سيتمكن الناس من العيش لقرن ربما. وهم في عمري سيبدون في الخمسين... ولكي يموتوا سنكون مجبرين على قتلهم، وهذا ما سيسبب المشكلات. ألا تؤمنون بالعلم؟ أنا بلى. فقط لولا أن الوقت سيكون قد تأخر كثيراً عندما ينهون اختراع كل هذه الأشياء. فصرخنا محتجين.

«سأندم على أمرين كبيرين: ألا أشهد كل هذه الانقلابات في العالم وأن أترك مارغريت».

نظر إليها برقة بالغة فاستشعرنا فيه فجأة مسحة حزن وحب... كادت ماري أن تبكي، أنا أيضاً. بعدها أحضر عمّار التحلية والقهوة.

«هل جئتما بالقطار؟»، سأل فكتور الكولونيل.

رفع كتفيه: «هل تتخيلون أني ما زلت قادراً على أن أتجرجر في المقصورات البائسة؟ في السيارة يا عزيزي، وأشعر بالأسى لعدم امتلاكي ما يكفي من المال لشراء واحدة منها. أليست عربتكم الرجراجة هي التي تخطيناها قليلاً قبل سيدي موسى؟ الصديق الذي نقلنا معه أكمل باتجاه البليدة وسيمر في العودة ليصطحبنا معه أيضاً. ربما كنت تعرفه؟ أحد أصهرة بكري. مالك غانْي بيتي.

عندما ركبنا العربة تنفست الصعداء.

تدبرنا أمرنا جيداً نحن الثلاثة على مقعدين. جلست مارغريت الصغيرة في حضن أمها، شعرنا جميعاً بالراحة: فكتور لخلعه حذائه، وأنا ولاتيتيا لبقائنا معاً وحدنا.

للاتيتيا وجه رقيق ناعم كوجوه القديسين وبذا فهي تشبه ماتيلد. للوهلة الأولى نظنها امرأة بريئة بلا تجارب ولكن خلف مظهرها الخجول والخامل تخبئ مزاجاً نارياً. فهما خاصة عيناها ذات الزرقة الخفيفة اللتان توهمان بوداعتها. كما أنها دائمة السعال، ولو لم تكن تلك الهيئة الكئيبة قديمة جداً لاعتقدنا أنها تعود إلى ترملها. كان لزوجها مزرعة جميلة على طريق الشبلي، يقولون إنه مات مسلولاً، فضلت لاتيتيا بيع الميراث والانتقال إلى الجزائر ولكنها ما زالت تقيم دعوى على الشاري الذي لم يدفع لها بعد.

فكتور راح يطقطق بلسانه كي يستحثّ الحصان العربي ويلتفت ليرى إن كانت سيارة هكتور ظهرت خلفه.

سألت لاتيتيا عن عمر ابنتها «ستبلغ الرابعة الشهر القادم».

مثل زيزي. أخذت عن أبيها عينيه وعن أمها كآبتها. فهي تبدو منذ الآن فتاة أنيقة ذات تقاسيم جميلة وشعر أشقر طويل يصل حتى الكتفين مع ياقة مخرمة وحزام حريري وسلسلة صغيرة ذهبية في معصمها، وهي تهتم بكل شيء.

نظر إلينا فكتور بطرف عينه وهو يداعب الحصان بالسوط وغمزني:

أتظنين أن أنجيل مستعدة لأن تدفن نفسها في مزرعة؟

حسب، إن كان بالنسبة إليك البقاء في عزلة مع من نحب دفناً، على

الرجل أن يستحق فعلاً هذا العناء.

وهنا ساط بقوة بالقرب من أذن العربي الذي انطلق بسرعة أكبر.

الفصل الثالث
الفونوغراف

المدرّس ديماتون بات كفرد من العائلة. الطفل هكتور يطالب بالفونوغراف والكولونيل يصل في سيارة.

1

عندما وصلنا إلى المزرعة، ظهر رأس ضخم من وراء الأم وماتيلد عند الدرج.

ركض زيزي باتجاهنا وأمسك بيد مارغريت ومشى خلف مفتاح الذي أخذ الحصان ليبيته في الإصطبل.

عندما قرأ النعي، هب ديماتون إلى الجزائر وركب الحافلة إلى المزرعة. هو الذي لم أره إلا عابساً جدياً لم يستطع إخفاء فرحته. معه يتوقف العزاء وننخرط في الحياة. وعلى وجه ماتيلد يمكن قراءة نوعٍ من السلام فحبيبها هنا. أما ما صدمني فهي الأم باسترخائها المفاجئ وقد غادرتها البرودة بالكامل فجأة. فهي لا تفكر سوى بإعادة الحياة لابنتها المفضلة التي ستقدم لابنها أخيراً والده الحقيقي. وبكل فخر تترأس اجتماعاً جديداً للعائلة.

أما ديماتون فقد أجلس ابنه على ركبتيه مقلباً في كتاب مصوّر.

وبلا سبب وجدتني أقول: «لم أكن أعرف أن لدى كونيغ كلباً».

بدت ماتيلد مستغربة.

– كلب كيف هذا، سألت الأم، كلب مثل سيزار؟

– لا، كلب مجهول الأب.

أفلتت مني الكلمة مثل حجر في بحيرة البهجة. أحد لم يعلق ولكن صمتاً اتسع كالهاوية، حتى سمعنا في حضوره ضربات البندول.

قال ديماتون:

«يريد المسجّل...».

هزت الأم رأسها بإعجاب وابتسمت ماتيلد. شعرت بالصدمة.

عاد فكتور بأسماله، وقد بدل ثياب الدفن؛ قبعة من القش وقميص قديم دون ياقة وسترة مجعدة وبنطال مرتّق ضيق يظهر له كرشه، وزوج أحذية رثّ. فمن مشهده الصباحي لم يبق منه سوى ذقنه الحليقة وبين شفتيه سيجارة انتشلها من مكان ما ولم يشعلها بعد.

متأملةً سماع احتجاجه قلت له:

«زيزي يريد الفونوغراف».

نزل زيزي عن ركبتي ديماتون فصفقت مارغريت، فبالنسبة إليها إنه العيد.

«هل يفقه الأولاد شيئاً؟»، قالت الأم.

كان الفونوغراف تحت الطاولة، فكتور هو الذي يرتب مكان القطع ويشرف على كل شيء. فالأم اشترت الجهاز من أجل زيزي ولكن فكتور هو أيضاً يتسلى به، لقد نسيت أن هذه هي عاداتهم.

أخرج فكتور الفونوغراف ووضعه على الطاولة، هذه هي اللحظة الاحتفالية في المزرعة. في صمت ابتهالي قام فكتور بفحص عام للفونوغراف، مسح غشاءه ثبته على قاعدته ثم أداره، ثبت الإبرة في العلبة التي كتب عليها «صوت سيده»: صورة لكلب ثعلبي جالس على قائمتيه الخلفيتين يسمع. ثم الأطراف المطلية بالنيكل، وقرص الأسطوانة

الثقيل الذي تغلفه قطعة لبادٍ خضراء. وعندما جلسنا في أماكننا ووضع فكتور بهدوء الزنبرك، ومن دون أي تردد، اختار الأسطوانة التي سحبها من مغلفها الورقي ونفخ عليها ومسحها بخرقة من الجوخ ووضعها باحثاً عن الثقب الذي يجب أن تستقر فيه، وهي اللحظة التي انتظرها الجميع.

لم يكن هناك الكثير من الخيارات: *ابنة السيدة أنغو*، *النشيد الوطني الفرنسي*، *نشيد الرحيل*، *سامبير إي ميز*.

رافق فكتور الموسيقى بهز رأسه بنظرة حالمة وكأنها تحمله، فالأجواء العسكرية تشعره بالرهبة. أما بالنسبة لزيزي فأتساءل إن لم يكونوا يقيمون هذه الحفلة اليومية سوى لمشاهدته فاغر الفم متسمّراً في مكانه في حال من النشوة. ما يخرج من هذه الآلة يبدو على الأرجح لاذعاً، صوتاً أخناً ضعيفاً بعض الشيء. وأحياناً عندما تكون الأسطوانة طويلة جداً، يقوم فكتور بتسريع دورتها بيده، فيحدث نوع من الشعور بالسقوط والتشنج. وفي إحدى الاسطوانات خرجت الإبرة عن مسارها فأحدثت الصوت فأعادها إلى مكانها.

وفي كل مرور لي على المزرعة كان المشهد نفسه يتكرر، لكل منهم نوع من العبادة. بالنسبة لفكتور إنها جولات الورق في سيدي موسى ولكن بالنسبة لزيزي قمة النهار واللحظة المقدسة وصلاة المساء ماذا نقول بعد؟ القداس هو هذا الفونوغراف. اختار فكتور *فتاة السيدة أنغو*. «فقط لو، كما لاحظت لديك *المارش الجنائزي لشوبان*...».

رمقتني الأم بغضب. رفعت كتفي ونهضت لأظهر لهم أنني لست شريكة في هذا الهزل المروع. في النهاية، بقي أن يرقصوا، لِمَ لا؟

وكأنه خمّن أفكاري، قال ديماتون:

«ما نشعر به أهم بكثير مما نظهره. المشاعر الحقيقية في القلب».

هو وأخلاقياته... بمَ سيشعر عندما سيسمع هذه اللازمة الفرحة التي يعرفها الجميع؟

آه، لا تركضي إذن هكذا
سنلتقطك، سنلتقطك...

وفجأة سمعنا صوت محركٍ وبوق سيارة.

خرجنا لنرى سيارة صفراء باهرة مع أضوائها ومعدنها الكروم[1]، سيارة داراك نفسها التي تخطتنا على الطريق، تقترب وتتوقف تحت أشجار الجوز. وهناك في الممرّ رأينا هكتور ومارغريت يشيران إلينا. نزلنا وفتحنا لهما الباب. خرج هكتور بصعوبة من السيارة من المقعد الأمامي حيث كان يجلس. «لم نشأ أن نمر دون أن نودعكم...».

ثم وبحركة ملكية باتجاهنا: «أقدّم لكم سائق السيارة السيد بلعيش...».

صافحنا الشاب بالأيدي أما أنا فبأطراف أصابعي. أن نسمي هؤلاء «سادة»، آه نعم، هذا ما بتنا مجبرين عليه منذ أن أصبحوا مواطنين فرنسيين وينتخبون في حين أننا نحن فتيات المستوطنات... نحن لا شيء. مفتاح ينظر من بعيد في حين هرولت عائلته لتتفرج وترى تصنّعنا.

تسلق هكتور بصعوبة الدرج متكئاً على الدرابزين. في الأعلى وعند وصوله جال كأسد بنظره على المكان، مغيظاً أيضاً فكتور المشغول بالسيارة المكشوفة وتمتم:

«ها هو الريفي مستثاراً».

(1) Chrome هو نوع من المعادن.

ثم صاح: «تفضل سيد بلعيش».

استعرض الشاب اليهودي مفاخر سيارته وشرح وفتح غطاء المحرك ثم أقفله في حين أخذ فكتور يهزّ رأسه إعجاباً، ثم عرض عليه الشاب أن يصطحبه في جولة في السيارة. ركب فكتور في المقعد الأمامي مع زيزي وشغل الشاب المحرك بتلقائية. «أرأيت؟ بسرعة...».

جالساً خلف المقود، حرك بلعيش جهاز الغيارات فطقطق ورجعت السيارة إلى الخلف تحت السقيفة... «سنعود»، صرخ هكتور.

... تقدم باتجاه الطريق وابتعد فدخلت ماتيلد لتحضير القهوة.

«لقد أزعجناكم قال هكتور، أكملوا»، أردف غامزاً ديماتون.

أنا التي ظننته سيكون متحفظاً، أخرج نظاراته من علبتها وانحنى على الأسطوانة.

– أشياء هزلية...

– هذا كل ما لدينا، قال ديماتون.

– النشيد الوطني ما كان ليكون سيئاً أيضاً.

– أزيلي هذا، قالت لي أمي بلهجة آمرة.

– يا عزيزي، قال هكتور لديماتون، ها نحن أحرار.

ابتسم ديماتون وقرب له الكرسي. فهكتور يعبر بصوتٍ عالٍ عما يفكر به الآخرون أو يقولونه همساً.

– ماذا ستفعل بهذا الطفل؟ قال الكولونيل. لقد حان الوقت لنعفيه من تربية خاله.

بدت ماتيلد متفاجئة فتدخل ديماتون:

– سأربيه.

– ستقول لي إنه ما زال صغيراً جداً حتى نفكر بالأمر. لا أعتقد. قريباً جدا سنبدأ... علينا أن نحضره لدخول سانت سير[1].

اصطدم صحن الغطاء الذي كانت تحمله ماتيلد بسطح الغلاية، وديماتون الذي يتباهى أحياناً تضرّج وجهه فخراً. لمَ لا مدرسة البوليتكنيك؟ يكفي أن تكون ابن مدرّس لنتخيل...

– ثم هذا العصفور الصغير، زيزي... من كان بإمكانه اختراع شيء كهذا؟ إنه نوع من عصفور الدوري، بلبل... طريف.

– هذا رأيي أيضاً، قال ديماتون.

شممنا رائحة النقط المشتعل، وظهر فكتور والصغير «لقد وصلنا حتى سيدي موسى، إنها لمذهلة هذه السرعة. كان عليّ أن أنزع قبعتي وإلا... ثم نظام الكوابح هذا. فنحن لا نشعر في هذه السيارة بالحفر».

تبعه بلعيش بخجل. أفسحوا له مكاناً بين الخالة مارغريت ولاتيتيا وقدمت له ماتيلد القهوة.

الكولونيل هو أيضاً مد يده لابنه بالمعمودية «تعال هكتور».

تناول بلعيش قطعة السكر بحركة استعراضية وعندما علم أنني ولاتيتيا نسكن في الجزائر دعانا للمجيء إلى متجره.

أخذ هكتور يكلم الطفل وكأنه رجل: «عندما تغدو ضابطاً، عليك الحرص على ألا تقترف الحماقات مثلي، وعليك أن تحب بلدك وتؤمن بالكرامة ولكنك لن تحتمل أبداً الظلم. وعند الضرورة ستثور».

أطرق الطفل رأسه ولحسن الحظ لم يفهم شيئاً. رفع هكتور برقة رأس الطفل وأخذ يحدّق في عينيه. «ستواجه الكثير من الحمقى، فالعالم يكتظ

(1) Saint-Cyr هي مدرسة حربية فرنسية متخصصة بتخريج الضباط.

بهم والجيش يفتخر بهم. ولكنه على الأقل لا يضمّ الأنذال. إنها المهنة الوحيدة إلى جانب مهنة التدريس ربما، التي لا يوجد فيها خطر التلوث. لا تتأثر بنياشين كبار الضباط ولا بالألقاب. لقد تعرفت إلى جنرال ماركيز، نعم كان صديقي الذي علمني الكثير من الدروس وقد كلفه ذلك غالياً. لا تنحني سوى أمام النساء لتقبل أيديهن. لماذا أنا على ما أنا عليه؟ لست ماكراً جداً ولا عظمي رخو أيضاً، كانت تلزمني بعض الدبلوماسية. منك أنتظر أشياء مختلفة بالكامل. لا مآزق البتة. لما أحكي لك كل هذا اليوم؟ الكلمات التي نزرعها لدى الطفل كالبذور التي قد تنبت وقد لا تنبت. إنها مسألة حظّ. فإن كانت التربة خصبةً يمكنها أن تصبح سنديانة، أرزة، غابة كاملة. إذن هل تعدني؟».

تمتم الطفل شيئاً ما فلم يسمعه الكولونيل جيداً. «ماذا؟».

فردد له الطفل. بالنسبة لي هذا لا يعني شيئاً، ففي عمره لا يعرف الولد كيف يعبّر عن نفسه. ولكن ديماتون ترجم له ما قال: «أريد أن أصبح مثلك».

كاد الدمع يطفر من عيني هكتور.

«اذهب والعب الآن، هل تريد أن نشغّل لك الفونوغراف؟».

أخرج ساعته من جيبه «هيا فكتور نشيد الرحيل سيكون مناسباً...».

أيضاً الفونوغراف، إنه ختام الحفل، لقد استقر جيداً كونيغ في قبره.

اقترح علينا بلعيش أن يصطحبني ولاتيتيا معه. فقد ننحشر قليلاً ولكن يمكن لثلاث نساءٍ أن يجلسن في الخلف. على الرغم من أنني لا أميل أبداً لقضاء ليلة أخرى مع البوم والذباب وأبو بريص، إلا أنني لم أشأ أن يبقى الميدان فارغاً. هو من كان عليه أن يخجل ويتركنا. فأن يبقى مع ماتيلد في

الليلة الأولى لكونيغ في قبره، أيّ فحشٍ هذا!

شجّعت لاتيتيا على القبول وبدا بلعيش متحمساً جداً.

«لا تقلقوا، إن هبط الليل ونحن على الطريق سأشعل أضواء السيارة بالأسيتيلن».

بدا هكتور كالفائق من حلم. الساعة في البندول قاربت السادسة.

«لو أمكننا أن نضع ثانية مدام أنغو»، اقترحت.

لم تجب ماتيلد وذهبت إلى المطبخ لإعداد العشاء أما فكتور فخرج ولحق به الطفلان.

«لست على ما يرام يا ابنتي»، قالت الأم.

سعلت، ربما كانت محقّة: لو علمنا حقيقة الأمور قد نكون أقل حدةً وأقل عنفاً. ظهرت ماتيلد وطلبت من الأم أن تشرف على العشاء ثم توجهت نحو الباب وانتظرتني، هبطنا الدرج فنبح الكلب من وجاره وحف بسلسلته الخشب، أخذنا الزقاق المؤدي إلى المزرعة، ما زال بإمكاننا أن نراه لكن الليل اقترب وأعتمت الجبال تحت سماء ذهبية وانتشرت رائحة أشجار البرتقال رقيقة كالموج الدافئ على الشاطئ. «لقد بدأت أضجر من كل هذا»، قالت ماتيلد، «ليس لديك ما تلومينني عليه أنت؟ ألا تعلمين معنى أن نعيش مع أحدهم دون أن نشعر بوجودنا؟ تقفين موقف الأحكام الأخلاقية العامة والأعراف وآداب الحشمة. الجميع يعلمون ماذا فعلت، ولستُ بآسفة على شيء».

خفت للحظة من غضبها لكني استعدت ثقتي بنفسي وقلت لها: «هذا الصباح عندما وضعت ذاك الشيء بين يدي لم تتركي لي وقتاً وإلا لكنت رفضت، ما كان ذاك؟».

ترددت.

«عليك أن تخبرينني، لقد رأوني وبالطبع فهم يتساءلون ما هذا».

حركت رأسها بحركة تفيد «ليس بالأمر المهم».

بالنسبة لي هذا اللاشيء هو كثير. وقد ترددت كثيراً بفتحه. أعدت طرح السؤال عليها.

– ماذا كان؟

– صورة.

– لك؟

– صورة قديمه له.

– صورته عندما كان خيالاً، صورته التي أغرتها حينها والتي آمنت بها.

وصلنا تقريباً إلى آخر الزقاق بالقرب من أشجار القصب، فالطريق إلى اليمين تذهب إلى الدوار. إلى اليسار وباتجاه الجزائر، أشجار تين تعطي تيناً أبيض ومشملة وفي مكانٍ أبعد أشجار سرو. تذكرت هكتور الذي لما انطلق في السيارة المكشوفة رفع يده إلينا مدندناً:

الجمهورية تنادينا...

أغاظني ذلك، أما فكتور فابتسم، فعلى الرغم من كل السخرية التي يقابله بها هكتور، فهو لا يمنع نفسه من الإعجاب به وبقدرته على امتلاك كل هذه الامتيازات.

«كان عليكِ الذهاب من أجل ديزيريه».

لقد ضربت على الوتر الحساس عندها. نحب، نتوقف عن الحب، نحب رجلاً آخر أو... فأن نحب هو تحديداً توهّم الحب. ولكن إن

أنجبت طفلاً من رجل، فإنه يخرج من أحشائك، ويصبح جزءاً من جسدك واختلاجاتك ومشاعرك، سواء أكان خيالاً أم شرطياً أم سائق شاحنةٍ أم مدرّساً. كل شيء وقف على ماذا؟

– ديزيريه ليس بحاجة إلي، قالت بعد برهةٍ. فهو مثلك وقف إلى صف والده.

– ديزيريه لقد...

بحثت عن الكلمة. «قتلته» كلمة قاسية جداً وقاطعة جداً.

«وجهتِ له صفعة، يمكن رؤية ذلك بوضوح».

صمت للحظة: «أنت تكرهينني»، قالت.

وقبل بلوغ أشجار القصب قلت لها: «لن أذهب أبعد من ذلك، فأنا خائفة».

كانت لترغب بأن تكمل. بين أشجار السرو لمحت ضوءً خافتاً. «نجمة منخفضة جداً...».

نظرت ماتيلد ثم وبصوت محايد: «إنها دودة مضيئة».

في الليل هي تتنفس وتعيش. وفي الليل، تتمشى بملء إرادتها وسط الحيوانات. أما أنا فأحتاج إلى أمان الضوء والمدينة والضجيج. في المزرعة أعرف أني سأجد رائحتهم التي برائحة الجياد وخبز القرية والثوم والزيت الحاد قليلاً، والبنادق المعلقة خلف الباب. فهو في النهاية منزل ويحمي.

«من المفترض أنهم وصلوا إلى الجزائر...».

تذكرت شارع ميشليه وشقتي المظلمة قليلاً ولكن الهادئة، فهناك لن يطلقوا النار في أذنيك إن سمعوا شيئاً يتحرك، فهي ليست الفئران.

بعد أن أظلمت، وعلى مستوى شجر الدردار رأيت الأم وهي تشعل

المصباح المعلّق، رافعةً يديها لإشعال الفتيل لينتشر بعدها الضوء ويمسي القنديل كقمر كبير مدوّر أبيض اللون، جعل وجهها يبدو صافياً بكامل وضوحه مع شعرها الملموم عند الرقبة، وجبهتها الصغيرة البويشوية وأنفها المستقيم وفمها كفم ماتيلد العريض المنذور للقبل والذي جعلته الأحزان يهبط قليلاً، وعينيها... في البداية لم أتمكن من تمييزهما جيداً إذ حجبهما ظل الحاجبين ثم فجأة لمعتا. شعرت بسخرية تشبيههما بعيون الغنم أو القطط عندما تنعكس عليها الأضواء فتصبح كالكواكب أو مصابيح بالكاد أضيئت. كنت قد بدأت اتساءل إن لم يكن آل بويشو يبصرون في الليل مثل بنات آوى عندما تنبهت أن لهذه الكواكب شهب لامعة تنزلق على الخدود المتجعدة، نعم نهر متذبذب، مفعم بالبرق...

لم يبدُ أنها تتألم. كان ذلك طبيعياً. كجريان مياه في حديقة عند المساء.

2

عاد ديماتون مع الأولاد في الوقت نفسه الذي عدنا فيه نحن تقريباً وعاد فكتور أيضاً ليشغّل الفونوغراف. الصغيرة مارغريت وزيزي ما زالا ممسكين بأيدي بعضهما. ولم تبدل هي فستانها الذي ذهبت فيه إلى المأتم بزناره الحريري البنفسجي، ولكن لاتيتيا تركت كيساً صغيراً لنبدل لها ثيابها.

مُدّت المائدة. أما أمي فكان علي أن أسأل نفسي إن كنت أحلم بأنها بكت، فوجهها لم يترك أي أثر لأي شيء.

– أين كان عقلي؟ صرخ ديماتون، لقد نسيت أن أخبر الكولونيل أن فيلا البارونة احترقت بالأمس، لم ينشروا الخبر في الصحيفة بعد. لم

يبقَ سوى الجدران. احترق كل شيء.

– يا لحظها العاثر، قالت الأم. فهي تذكرني بالحريق الذي نشب في مزرعة أبي في بوفاريك...

– والبارونة؟ سألت فكتور.

– لم تصب بشيء لحسن الحظ.

يا للأسف. لكانت نهاية جيدة لهذه العجوز السليطة التي يتحدثون عنها وكأنها الديفا. فكل الجزائر تحكي عن حفلات الاستقبال في الطاحونتين وكل تلك البهرجة.

تناولنا العشاء واشتد نعاس الولدين، ذهبت ماتيلد لتدبر أمر نومهما. رتبنا سريراً لمارغريت الصغيرة في زاوية في غرفتنا.

أما فكتور فلم يكن يفكر سوى بسيارة درّاك:

«سيارة بلا صمّام، بديعة، تسير وكأنها تنزلق».

مرّ مفتاح كي يرى إن كنا ما زلنا بحاجة إلى شيء، ثم تركنا «برعاية الرب»، كما يقول.

وقف فكتور وحمل البندقية: «بومتك»، قلت له، «اتركنا بسلام ها؟».

تبعه ديماتون.

كنت متحرقة لأنفرد ثانية بماتيلد. أردت أن أسألها لماذا ذهبت في المرة الأولى عند المدرّس؛ ألأن الحب اشتعل في قلبها أم لأنها كانت عصفوراً مسحوراً؟ هذه القلعة المنيعة أشعر بأنها لا تكشف سوى وجهها القوي والذي يخبئ خلفه متاريس منهارة، فجوة ينفذ منها العدو.

أخذت وقتها قبل أن تجيئني، أنهت ترتيباتها. أغفت مارغريت الصغيرة وأصبعها بالقرب من فمها فغطيتها باللحاف.

– أهو في النهاية لأنه غازلك أم لأن الشرطي كان يطلق النار على العرب؟

– لأني أردت أن أهرب منكم جميعاً.

– لماذا لا تلتحقين به إذن؟ فكتور سيفهم.

حدجتني بنظرة كما لو أني طرحت عليها سؤالاً بذيئاً. أردت أن أراها تنهار باكية، إنما لا، ولا دمعة، خذلتني. فتابعت كلامي:

«على الرغم من أنكما تبكيان بسهولة أنت والأم. كان حرياً بكما أن تحتفظا ببعض المشاعر لأجل كونيغ...».

ثم تملكني نوع من الغضب:

«عندما أفكر بهذا الرجل الذي ذهب إلى قبره مع كلبٍ وخطبةٍ طويلة لرئيس البلدية...».

ارتدت قميص النوم وفكت عقدة شعرها فانسدل على ظهرها، مشطته بهدوء وعناية بضربات خفيفة. نمت مديرة ظهري للحائط وأغمضت عيني وغطيت أذني حتى لا أسمع حركة الفئران ثم فتحت عيني لأرى ماتيلد منحنية فوقي تقول. «اسمعي...».

في الضوء الخفيف لقنديل بيجون كانت تتموج جدران الغرفة والمنضدة.

– ماذا؟

– لا أعرف، هناك من يصرخ.

تثاءبت ثم تمطيت وشنّفت سمعي. فالواقع أن هناك من ينادي، رجل ما

من المفترض أنه في الباحة أمام الدرج أو تحت أشجار الجوز ربما. بصوت كتوم وغاضب ومأساوي يعوي قائلاً شيئاً ما، على الأرجح اسم أحدهم. لما نعلف كلباً أمن أجل أن نربطه أمام طبقه المعدني وعندما نحتاج إليه يكون تائهاً في الدوار يلاحق كلبة مثارة؟ وأين هو فكتور الذي يستيقظ لأبسط حركةٍ والجاهز لإطلاق النار على المتسكعين والبوم؟

«أيكون عربياً؟»، سألتُ.

جلسنا نحن الاثنتان على السرير وشعرت بعرق بارد يسيل بين ثديي. وعندما أصخت السمع عرفت معنى هذا النداء الأجش كنداء من الأعالي، متوحش، فهذه الكلمة المؤلفة من مقطعين لفظيين والتي تتردد في الأعماق، هزت أركان المنزل.

لمست يد ماتيلد، ربما ما عادت تتذكر ما قلته لها قبل أن أنام. هزت رأسها وقالت: «إنه قدر...».

نهضنا، حملت ماتيلد قنديل بيجون، وذهبنا حافيتي القدمين إلى شباك المطبخ المطلّ على الباحة. هنا، ومن خلال المصاريع، رأينا ظلاً واقفاً خلف أشجار الجوز على شكل شجرة تحرك أغصانها بصوت خوار أو زئير أو بالأحرى شكوى، صراخ ألم وغضب يخرج من أعماق العالم ويمزق أحشاءنا ويتحرك في داخلنا مثل طفلٍ وكما تتحرك الأرض في الزلازل. في مكانٍ أبعد كانت تلمع أضواء دراجة أو أنها بكرة عجلتها.

في هذه اللحظة بدأ الكلب ينبح بضراوة. وضعت ماتيلد المصباح وفتحت درفةَ النافذة فرأينا الكلب وهو ينزوي تحت شجرة الدردار، لقد توقف عن النباح لأنه يعرف الرجل الذي وصل. أما فكتور الذي تملكه الخوف فقد ظهر حاملاً بندقيته وهو يُدخل قميصه تحت بنطاله.

رفع الظل قبضته باتجاه البيت وباتجاهه وباتجاهنا وهنا بات واضحاً، صرخ: «أين هو؟...».

وإذ بالظل يتقدم ويصعد الأدراج ويبدأ بالضرب على الباب.

اقترب فكتور، لم يتوقف سيزار وقد مزق النباح حلقه.

«اهدأ»، قال فكتور، «والدتك نائمة». ونادى ماتيلد بصوت خافت.

«لا تتحركي»، قلت لها، «لا نعرف بحالته هذه ماذا سيفعل».

ولكنها ذهبت إلى الباب وفتحت. كان يترنح وسقط فوق الطاولة محدثاً ضجيجاً هائلاً كما لو أنه انسحق.

«المسكين»، قلت، «ماذا لو نعد له بعض القهوة، سأشعل الموقد».

في هذه اللحظة قرع البندول مرتين «لنأمل ألا يستفيق الأولاد...». استدرنا لنجد الأم بقميص نومها وقد رمت شالاً على كتفيها وأفلتت شعرها.

«نريد غطاء»، قال فكتور، «سنتركه ينام على الأرض».

اختفت الأم للحظة.

كان ثقيلاً تعبق منه رائحة الأفسنتين.

مساء، في الحانة قدّم المقبلات لزبائن عابرين. ثم هو الذي لا يشرب استسلم للشرب. هكذا قام أخي أيمي برعاية ابن أخته: أي من هؤلاء السذج لم يفكر بأنه لا يمكن ترك ولدٍ وحده في الفندق برفقة كلبٍ تحت المنضدة. ألم يكن من البديهي أن يحصل ذلك، يغادر آخر الزبائن ويبقى وحده مع الكلب الأسود وقد أقفل عليه الفندق... فتجذبه قنينة ويبدأ بشربها رافعاً كأسه باتجاه المقبرة.

«نخب صحتك وغرامك يا أبي...».

مسحت ماتيلد وجهه الذي سال عليه لعابه، وكان يصرخ مستنكراً مردداً الكلمة نفسها التي سمعتها في أحلامي: «ماما، ماما!...».

«لو يمكننا أن نجعله يتقيأ»، قال فكتور.

خرج إلى الدرج ونادى مفتاح وطلب منه أن يركن الدراجة في الإصطبل.

القهوة علاج مناسب للثمالة، فجعلتها ثقيلة. وخلال ذلك، تخيلت ديزيريه ممتطياً دراجته، يلهث ويدور لبعض الوقت في القرية وعندما ينتبه إلى أنه وصل إلى طريق سيدي موسى تسيطر عليه فكرة تكرس والدته لذلك الطفل غير الشرعي وعدم مشاركتها حتى في دفن أبيه. هل يمكن أن يكون ابن عشرين عاماً، صاحب تخيلات تخرج في الظلمات، لتستولي عليه وتحوله إلى شخص آخر وتحرر غضباً وجرأة غير مسبوقين، وتكاد تقلبه رأساً على عقب... ها هو يضغط على الدواسات ويجري وكأنما دون إرادته، ليوقظ هذين البغيضين اللذين حطما ما هو مقدس، ويتهيأ لفصلهما عن بعضهما...

عدت مع غلاية القهوة.

– لقد نام، قالت ماتيلد.

– لو نزعنا عنه ثيابه، تنهدت الأم.

اكتفت ماتيلد بنزع حذائه وطلبت غطاء آخر لتغطيه.

«عندما سمعت جلبته»، قال فكتور بضحكة خفيفة، «نهضت وحملت بندقيتي...».

بعد لملمة الأمر بدا فكتور مستعداً للهزل. في البداية لم يكن لديه مزاج للمزاح ثم راح يتبجّح، أراد أن يجعلنا نعتقد... «يا إلهي»، تنهدت الأم.

ربما خيل لها أن فكتور وقد ظن ديزيريه متسكعاً، أطلق عليه النار بالخطأ. إنه في الواقع الوقت الذي نبتهل فيه للرب، الملاذ الأكبر، مثلما يقول الكهنة، لينزل الطيبة اللا متناهية بالبشر ويجعلهم يحلمون ويزرع الحب في قلوبهم ويهدهد الموتى ويجعل الكلاب تنبح والعيون تدمع... والظلم؟ والجرائم؟ الحفيد الصغير ينام دافئاً في حضن جدته... رجل وقد تخلص من قيوده يمكنه أن يحول أي شيء إلى سلاح؛، سكين منسي، حجر أو ببساطة اليدان، القبضتان.

«في البداية»، تابع فكتور، «اعتقدت أنه مجنون ما وقد هيّجه القمر. وعندما فهمت ما يصرخ به... هو لا يشرب، لذلك فقد أدارت الخمرة رأسه. المسكين، كان يهذي...».

سكب فكتور لنفسه القهوة وأضاف السكر.

«في النهاية»، تابع يقول، «نام وما عاد بحاجة لشيء».

بلى.

أجفلنا أمام البروسي الذي لم نتنبه له حين دخل، وتابع يقول:

ذات مرة أضعت عصفوراً مدجناً، غراب زرعٍ فحزنت. فكيف هو...

سيذهب قريباً إلى الخدمة العسكرية، قال فكتور.

أيقصد الرقة التي سيجدها فكتور في البيوت التي سيدخلها العسكريون أو يقصد أن لا ضرورة لذلك إذ لم يعد لديه الكثير من الوقت؟ ربما فكّر ديماتون مثلي أن إليز ستتكفل بمعالجة الأمر (حتى إنها الوحيدة في غياب

ماتيلد)، وأن ليس هناك سوى امرأة واحدة قادرة على فعل شيء ما.

نظرت إليه برأسه الضخم من دون أن أراه. ذات يوم قالت لي ماتيلد: «إنه رجل طيب، يعيش مع عصفور ويتحدث إليه».

«ألا تريد القليل من القهوة؟»، سأله فكتور.

أحضرت له فنجاناً فشكرني.

أضاءت الأم شمعةً. القنديل، لا، سيشيع الكثير من الضوء. أما ماتيلد فجثمت بالقرب من ابنها تداعب جبهته، وحينئذ ما عدنا جميعاً موجودين. عندما نلمس الخيوط الرفيعة للأجنة وما يربطها بما جاءت به إلى هذا العالم وما لا ينفصل عنها أبداً، فالأم تشبه هذه الأشجار المتقصفة الغصون، ولكن ما زالت أرومتها متجذرة بالأرض. فديزيريه ذكّرها بأن الولد يبقى متعلقاً دائماً بأمه وبأنها هي من تحميه من كل ما يقاسيه. بدأت تكلمه: «بني، الرب وحده يعلم كم أحببتك عندما لم يكن لدي سواك وربيتك ولم أعش سوى من أجلك. ثم جاء أخوك ليحل مكانك...». وانهمرت دموعها على وجه ديزيريه فمسحتها، واختلط كل شيء وكأنهما يبكيان هما الاثنان معاً. دمعت عيناي أنا الأخرى. تحشرج صوتها كما يحصل مع الفونوغراف عندما نحاول تسريع الأسطوانة: «سامحني...».

ودون أن تنظر إلينا، وبصوت حازم: «اذهبوا جميعكم...».

انسحبنا وأغلقت الباب. سمعت فكتور يقول لديماتون في الخارج: «سأوصلك حتى ميزان كاريه».

عدت إلى الغرفة حاملة القنديل لأجد مارغريت الصغيرة وقد رفعت عنها أغطيتها فأعدت تسويتها.

كان السرير بارداً.

على الرغم من أنني لا أحب أن أستفيق باكراً، فقد نهضت في ساعة مبكرة، متحرقة للعودة إلى المدينة، إلى بقالتي وشقتي، تاركة إياهم مع طباعهم وصمتهم، ولأخبر أنجيل بكل ما جرى، ربما يساعدني ذلك على إعادة قراءة الأشياء بنظرة أكثر وضوحاً. لأضحك على نفسي وعليهم في عدم خضوعنا لطقوس الأحزان.

كانت ماتيلد ما تزال مضطجعة بجانب ديزيريه، حراكي في المطبخ أيقظها فساعدتني على طحن البن، في الأثناء سمعنا ضجيج انطلاق العربة ذات العجلتين. ذهبت إلى النافذة ولكننا لم نقل شيئاً.

تمطى ديزيريه فاركاً عينيه وابتسم. فهو لا يتذكر شيئاً أو أنه يدعي ذلك وتظاهرنا باعتبار حضوره طبيعياً. تناولنا الإفطار كعائلة مع الأم. أفاق زيزي فعانقه ديزيريه وذهبا يبحثان عن مارغريت الصغيرة.

أعلن فكتور أنه سيذهب إلى سيدي موسى من أجل مباراة لعب الورق فقلت لهم إنني سأستقل حافلة الظهر فلم يصرّ عليّ أحد لكي أبقى؛ قالت الأم ببساطة: «عليك أن تأكلي شيئاً قبل أن تغادري».

ذهب ديزيريه لينزّه زيزي على دراجته وأرادت مارغريت أيضاً أن تجرب. فوضعت لها ماتيلد مريلة زرقاء. امتلأت السماء بالغيوم وشعرت بشدة بأني شخص غير مرغوب به وما عدت تجرأت على طرح أي سؤال لا بل أرضاني أني لست مضطرة إلى تبرير نفسي. تبادلنا الوداع ببرود ومضيت. بدا أنها ستمطر.

الجزء الثاني

روعة مميتة

فلتنتحر اليد الصغيرة في يدي...

بيار جان جوف، نشيد

الفصل الأول
أنجيل

بعد أربع سنوات، في العام 1914، تلتقي ماري كورنيتو ماتيلد في عين طاية.

كما توقعنا، وبعد عامٍ من وفاة كونيغ تزوج ديماتون وماتيلد في مركز البلدية في الجزائر دون طبل أو زمر، «بأقصى درجات الحميمية». بسرعة قصوى في يوم خميس حتى إنني لم تتم دعوتي ولا فكتور أيضاً. الشهود: الكولونيل الذي تخطى الثمانين عاماً ومارغريت التي ما عدت أراها. لم يقيما حتى حفل غداء. في ذلك الوقت كان ديماتون مدير مدرسة في سطاوالي. وزواجه الجديد هذا أكسبه صيتاً كرجلٍ كريم فهو يتزوج امرأة مع ولد من زواج سابق.

قرأت في لا دييبش أنه تلقى ميدالية فضية مع مكافأة خمسة وسبعين

فرنكاً لنجاحاته في التعليم العام. بعد عامين من ذلك عيّن في مكان آخر، في عين طاية. في 23 يوليو 1914، ما زال التاريخ عالقاً في ذاكرتي، تلقيت رسالة من ماتيلد بحجة أن زوجها تلقى ميدالية جديدة ذهبية هذه المرة مع مكافأة بلغت المئة فرنك، وذلك لتحثني على زيارتهما لبضعة أيام: «اشتقنا إليك، لدينا مكان فسيح، وهكتور كبر وفي هذا الموسم الطقس أجمل من الجزائر...»، شاورت نفسي وقررت.

كنت متشوقة لأعرف إن كانت العلاقة بينهما لم تتدهور. فمع السنين تبرد المشاعر الحارة، وتتكشف الطبائع على حقيقتها، ويتلاشى الحب، أو أنه يتآكل وتغرق الباخرة... كما أن ماتيلد محقّة، ففي عزّ الصيف حر الجزائر لا يطاق وتتكدس الرطوبة على الأرصفة إلى درجة أننا نظن أنها أمطرت. أما في عين طاية هناك دائماً هواء والبحر هائج دوماً أو تقريباً والمنطقة مزودة بالقطارات والحافلات المريحة التي تعمل على الغاز.

بالنسبة إلي لم يتغير شيء تقريباً في عاداتي ولا حياتي، باستثناء أن خياط «شي لاراد» عرض عليّ الزواج ولكنه رجل ملول: مشرقي حزين شاحب الوجه من كثرة السهد.

كما لم يتغيّر الكثير في حياة أنجيل. فهي ما زالت تنتظر الرجل الذي... ويبدو أن فكتور الآن واقع في غرامها دون أن تبادله المشاعر نفسها. كل يوم خميس ينزل من ريفه. في هذا اليوم نذهب أنا وأنجيل وابنتي إلى السينما المجاورة «بلاتو سوليير» لنشاهد فيلماً في التوقيت الصباحي، تاركات الدكان بعهدة ماري، شقيقة أنجيل التي كما يبدو لم تتأثر بمظاهر الحداثة. كان فكتور يصل تماماً بعد الغذاء وأحياناً أثناءه، نضيف له طبقاً فيقول إنه أكل: يقرمش قطعة خبزٍ ومقانق إسبانية أو بعض البوتفارو،

طبق البودينغ الكبير ذاك مع الجبنة الماهونية المحشوة بالسمنة والبصل. يترك عربته والحصان في زريبة في ساحة العمال ويصعد راجلاً إلى شارع ميشليه. فهو يتحدث دائماً عن نيته شراء سيارة ولكن عندما تتاح له الفرصة يجد سبباً ما للتنصّل من ذلك.

أما أنجيل فقد عرف أحد آخر كيف يستميلها من لا شيء. كان لدى فكتور ثروة وكنت دوماً أقول له: «أنت رجل عازب وتقتصد، ويمكنك أن تلبس بشكل جيد ثم إن النساء يحببن الرجال الذين يهتمون بهن...». كان ذلك أكثر من قدرته. وعندما أقول له «النساء يحببن الرجال الذين يهتمون بهن...» فأنا أنظر قليلاً: فارسي من «شي لاراد» لا يبخل أبداً، هو الكرم بعينه، لا يأتي البتة دون وردة وهدية صغيرة، وبكامل أناقته مع ساعة وسلسلة ذهبية وجوارب وحقيبة من الحرير، وحذاء من الجلد الطري المشمّع في باريس، المسكين دائماً يدفع لنا المال ويصحبنا بالعربات مساء إلى مطعم الحمراء. أقول «نحن» لأني لا أخرج بمفردي معه؛ أصطحب معي دائماً ابنتي كي أزعجه، وعندما يحين موعد شكره في النهاية، حتى لا...

أصرّ أن يخيط لي ثياباً فاخرة. «اختاري ما شئت وسأخيطه لك بيدي..». مع أن محل لاراد متخصص بالملابس الرجالية، ولكنه قد يخيط للنساء أيضاً كعمل إضافي. فهو يتقن خياطة كل شيء. ولكنني سريعاً أدركت أن أخذ القياسات هو طريقة ليأخذ ما أرفض أن أقدمه، محيط الخصر ومحيط الصدر، فأنا لست ساذجة. وعندما أصرّ بقوة قلت له: «لا تستعمل يديك، آزور... فقط للضرورة. يمكنك أن تلبسني بقدر ما تشاء، أعدك. ولكن أن تعريني فلا. نحن لسنا هنا...».

فقط لو وصل فكتور إلى الصف الثاني من المرحلة التكميلية.

يوم الخميس عندما جلسنا إلى الطاولة، نظرت إلى الساعة في البندول الحديث «لن يتأخر فكتور».

ابتسمت أنجيل فاقتنصت الفرصة لأختبر الوضع: «ما زال لا يحرّك شيئاً في داخلك؟».

لو كنت في مكان فكتور لكنت فقدت شجاعتي. فلدى أنجيل حماسة متقدة، ترتدي دائماً بطريقة مسرفة بعض الشيء (آه فهي تبحث عنه، هذا الذي...) فساتين على الموضة من الكريب الصيني البنفسجي أو الزهري، قبعات كبيرة يمكنها أن تفقأ عين من يقف بجوارها. فهي بالطبع خياطة (ألم أقل إنها خياطة صغيرة، لا بل إنها تعتاش من ذلك؟) تفتش عن الغواية في الكتالوجات ومن خلال احتكاكها ببعض النسوة... نتخيل رغبتها في أن تكون بارونة دو تونير، تستقبل الضيوف ويكون لديها مجلسها وتدير الرؤوس... ففكتور لا يعرف بمَ يخاطر، أم أن لديه أسباب من نوع آخر؟ أقول له «لماذا أنت مصرّ عليها، انظر إلى ماري...». لكن عيناه لا تريان سوى أنجيل.

أشعر أنني المسؤولة عن ذلك.

في إحدى المرات وصل مكدراً. «أنا على علاقة بشابٍ تعرفه ولكني أخاف أن...»، قالت له أنجيل.

إنه ابن بلعباس الشهير، بلقاسم، ذلك الشاب المغرور الذي هاجمني بخصوص عائلة باري منذ سنوات. فقد تخرج من معهد تدريس بوزريعة ويدرّس الآن في فور- دو- لو كمساعد. «فكواحد من الأهالي، هو

شخص مهم»، قال فكتور، «فقد حدثني عنكِ وهو يعتبر أنك تتمتعين بشخصية قوية».

كان عليّ أن أكون حذرة، إذ أشعرني ذلك بالإطراء: ذهبنا لاصطحابه.

لقد تطور إيجابياً. بدا متماسكاً يتحدث بطلاقة عن السياسة الأوروبية والأدب، وشعرنا بأنه كان فخوراً باستقبالنا له. حدثنا عن رحلة رئيس الجمهورية إلى روسيا والسويد. فمنذ اغتيال الأرشيدوق فرنسوا فردينان[1] في سارابيفو والعالم في غليان تام، اجتياح كشف مؤامرة كبيرة في أوروبا، كما أن النزاع بين اليونان وتركيا لم يحل، وفي النمسا هناك من يتطوعون للحرب، نوع من الجنون يسيطر على العقول: عندما نفكر أن السيدة كايو، زوجة وزير المالية تجرأت على إطلاق النار على مدير *لو فيغارو*... فهو يعتقد أن قضية سارابيفو كانت أخطر من ذلك؛ أما فكتور فيعتبرها نتيجة للبدع والأفكار الجديدة أو أنها مؤامرة أو مكيدة من اليهود (مدام كايو اختارت محامي درايفوس للدفاع عنها) ولكن وكما تقول لا دييش: سوف يُحلّ الموضوع.

– سيحل، سيحل، قال بلقاسم باشمئزاز. علينا أن نقرأ بين السطور.

– وماذا عن التانغو؟ قلت.

هز كتفيه. نحن النساء هل نحب أن نشاهد عروضاً لهذا النوع من الرقص الناري أو أن نسمع خطابات هذا الأستاذ من البليدة الذي يدور

(1) François-Ferdinand (1863 – 1914) وريث عرش الإمبراطورية النمساوية المجرية منذ مولده إلى مماته، مصرعه على يد الصربي غافريللو برينسيب Gavrilo Princip أشعل فتيل الحرب العالمية الأولى عندما أعلنت الأمبراطورية النمساوية –المجرية الحرب على مملكة صربيا وبهذا تخندق حلفاء الطرفين وبدأت الحرب.

في كل مكان ليشرح لمَ على النسوة التصويت في الانتخابات، في حين أن فكتور لا يشغل باله سوى دورة فرنسا في الدراجات. فقد تخلل عيد سيدي موسى سباق ومسيرة مشاعلٍ، وحصد فيه الجائزة الأولى في مسابقة الكرة، وقد حكي كثيراً عن احتفال الطيران، وعن استعراض 14 يوليو في ميدان السباق في الخروب وعن إزاحة الستارة عن اللوحات التوضيحية عند تمثال بيغو في ساحة إيزلي.

كان فكتور فخوراً بالنقاش معه. استعددنا للذهاب إلى السينما كما العادة. كان ليحب فكتور أن ندعوه لمرافقتنا لأنه لم يسبق له أن ذهب إلى السينما ولكنه ذهب مع بلقاسم. ما عدت أذكر ماذا شاهدنا. *ربمالو شيفالييه دو ميزان روج*[1] ولكن بالتأكيد ليس *لا لوت بور لا في*[2]. عندما خرجنا بدت لي أنجيل غريبة جداً «لا يجب أن تصدقي كل ما يعرضونه»، قلت لها، «كل ذلك اختراع، كله».

تركتني دون أن تمر بالبقالة.

يوم الخميس التالي جاءت ماري وحدها. فأنجيل ليست بخير كما يبدو، والخميس الذي تلاه أيضاً الأمر نفسه. وفجأة تولد لدي احساس بأمر ساذج جداً جعلني أنتقد «أنت مجنونة، ابنتي، افعلي ما تشائين ولكن ليس هذا...». كان أمراً صاعقاً لا يصدق... لم أكن مثقفة جداً ويحدث أنني كالجميع أقترف الأخطاء الإملائية ولكن لدي حدس.

«أحصل ذلك بالصدفة؟...».

بدت ماري مصعوقة وكأنني اقترفت شناعة. ولكن رغم ذلك كنت

(1) Le Chevalier de Maison-Rouge

(2) La Lutte pour la vie

شبه متأكدة أنني لست مخطئة «غداً سأذهب لرؤية أنجيل».

في اليوم التالي، عند الغداء ظهرت أنجيل قلقة حانقة. على الأقل فهي صريحة:

– أنت محقة، هذا الصبي يعجبني.

– إنه ليس صبياً، إنه من السكان الأصليين.

– بالنسبة لي، إنه رجل. فهو يدرس ولديه شهادات. أرأيت عينيه؟ بديعتان.

– إنه ابن بقال في لاربعاء.

– وأنت؟ ورجلك الشامي[1]؟

أن تخلط بين تاجر حمص، ابن قبيلة من الجبال وفتاة من عائلة باري... بلقاسم ذاك، من كان ليصدق؟ نحيف عصبي وماكر، لقد انكشف جيداً عندما نهرني يوم العمادة في روفيغو عندما فقد السيطرة على نفسه، مدعوماً من مدرّسه. واليوم يلعب دور العاقل الذي يفكر ويحاول أن يرى أبعاد الأشياء. تحت رموشه ضوءين شريرين يلمعان، هذا هو تعريف عينيه!

رجلي الخياط من «شي لاراد» أليس لهذا السبب أشمئز منه؟ أرمني أو لبناني، فهو يقول إنه أرثوذكسي، ولكن ثمة مسلمين في عائلته! فإن أضفنا إلى اسم عائلته حايك، ليس لاراد هذا الاسم المسيحي الذي اخترعه وإنما اسم مصطفى أو عمار أو محمد، يمكن أن نفهم كل شيء: مصطفى بن حايك...

حسب أنجيل، هناك وجهة نظرٍ للسكان الأصليين أيضاً ! فبلقاسم

(1) الشامي أي من بلاد الشام، ويقصد هنا الخياط من آل حايك.

يكتب مقالات في الأخبار، تلك الصحيفة التي تباع في الأكشاك في ساحة الحكومة ولا أحد منا يقرأها. كما أنه يعمل على تأليف كتاب، رواية. بالنسبة إليها إنه رجل مثقف، وتعتبره من طينة رفيعة.

حتى الآن لم أعرف كيف سأرد عليها. فهي لا ترى فيه ذلك الجبين المتشامخ ولا تسمع صوته الخافت ذاك الذي أعاني لأسمعه إلا عندما يستعرض ثقافته. إذن فهو كمن يوقّع كلماته، تتوالى جمله ويبصق وهو يتكلم فأغطي كوبي. يدخن سيجارة وراء الأخرى ناثراً الرماد حوله، ومالئاً المكان بروائح دخانه. كيف ضعفت وفتحت له بابي؟ لولا فكتور... بالمختصر رسالة ماتيلد جاءت في وقتها إذ يمكنني الاستفادة من تأثير ديماتون عليه، إذ وقد أصبح اليوم فرداً من العائلة، لا أحسب أنه ما زال يرى الأمور بالمنظار نفسه.

2

تمتدّ قرية عين طاية طولياً، في قلب غابة من أشجار الجميز والنخيل. والكنيسة تشبه تلك التي في روفيغو، إلا أنها ذات إطلالة أفضل، عند تقاطع في منتصف الطريق مع جرس ظاهر في البرج، وفي المقابل المدرسة البالغة الأناقة.

كنت سعيدة، ماتيلد ظنت أن ذلك بسبب لقائنا. في الحقيقة كنت سعيدة للصدمة التي سيتلقاها حايك عندما يعرف برحيلي، فبلهجة مربكة سوف يسأل ابنتي متى سأعود وستقول له إنها لا تعلم. سيتخيل أسوأ الاحتمالات، خاصة أنني أوصيت ابنتي بأن تفهمه بأن كل الاحتمالات واردة. لكنهم يقاومون، أولئك البدو.

الجو هادئ هنا، قلت لها.

بسبب العطل المدرسية، خلال أوقات الدراسة وفي مثل هذه الساعة ستصابين بالصمم. صراخ وصياح وعراك. فالآن بات هناك أطفال من «البيكو» أكثر مما هناك أطفال فرنسيون.

– ربما لدى زوجك مساعد من السكان الأصليين؟ فانا أعرف أحدهم وأظن أنك تعرفينه.

– بلقاسم؟ استغرب أنه لم يأتِ اليوم. هنا في هذه المدرسة شابة أوروبية، هكتور في صفها، بالكاد بلغت العشرين.

الوقت ما زال مبكراً جداً كي أسألها عن بلقاسم. تركتها تتكلم عن ابنها، أخبرتني أنه يدرس جيداً بيد أنه حاد الطباع.

– لا نعرف كيف نتعاطى معه، فهو لا يهتم سوى بأصدقائه وهذا ما يقلقني، احتكاكه بالناس هنا. لو سمعت العبارات التي يتلفظ بها وحركاته. عندما لا نسمح له بمرافقتهم يحرد لأيام... وإذا عاقبناه بأن يلزم غرفته، فإنه يهرب من النافذة. الآن بتنا نقفل المصاريع ونربطه إلى السرير، فيبدأ بركل كل شيء، ويرفض تناول الطعام، ربما عليّ أن أحضر له مارغريت ابنة لاتيتيا...

– ربما سيضجر.

– لقد بتنا عجائز بالنسبة إليه. أنا بلغت الثالثة والأربعين وهنري ناهز الخمسين.

في الغرفة المجاورة وبشكل مفاجئ سمعت بعض نوتات البيانو. فأنا لا أعرف في الموسيقى ولكن يمكن أن نشعر بأن هناك نشازاً ما يثقب الأذن ثم يصدح صوت عالٍ بالغناء:

إنها النمساوية بالقميص الأحمر
تشرب النبيذ الأبيض وتترك الأحمر

- أغنية مرحة، قلت.
- هو يغني ذلك لابنه روبير المغروم بابنة الجارة السيدة فابر والتي أغرمت هي أيضاً به. فروبير دائماً في منزل هاتين الامرأتين، الأم أرملة لديها الكثير من المال ولكن هذا لا يروق لهنري.

ولَم لا تتزوج؟ يصدح الصوت ثانية
لأنها في الحقيقة غير قادرة...

ثم وصلة تجعل الأسنان تصطك وبعدها يظهر ديماتون.

«آه! أنت هنا...».

لقد تغير، حلق لحيته ولم يبق سوى على لحية تيس وعنفقة شبه شائبة كشعره. أين هو مدرّس روفيغو الذي كان يحطم الجدران ولا يتحدث سوى داخل صفه؟ تعانقنا ببرود.

قادتني ماتيلد إلى غرفتي التي تحوي سريراً كبيراً وتطل على باحة داخلية ومنها على الكروم، دون رطوبة الجزائر الندية.

جاء زيزي، أو لنسمه هكتور بما أن هذا اسمه الحقيقي، ليقبلني أو أنه يتظاهر بذلك. «إنها خالتك ماري، تعرفها جيداً»، قالت ماتيلد «لقد مضى أكثر من أربعة أعوام، يا إلهي...».

اليوم يبدو رجلاً صغيراً بشعره القصير الشبيه المقصوص دائرياً عند الجبهة كشعر الضباط، وبصمته وهيئته الحرونة اللذين يخيفانني. أخرجت من حقيبتي كيس من الملبّس:

- لقد جلبت لك هذه.

– *ماذا نقول؟ علقت ماتيلد.*

وضع يديه في جيوبه وأطرق رأسه.

«ألا تريد؟» قالت له أمه، «حسناً سأحتفظ بها لك. ملبّس من الجزائر...».

فرّ مسرعاً. «لا ينفع أن نفاجئه» استنتجت ماتيلد.

وجدت ديماتون في غرفة الطعام حيث كانت ماتليد تضع مفرش الطاولة. كان البيانو عند الحائط يبدو صغير جداً وأسود ولوحة مفاتيحه مرفوعة، كدرنا لقاؤنا من جديد، فوجدتني أقول أي شيء:

– أنتم قريبون جداً من البحر.

– هكتور يحبّ السباحة لكن الشاطئ هنا خطير، بسبب التيارات، وأنا لا أعرف السباحة السباحة. لذلك ولكي نحميه من الغرق نربطه بحبلٍ عند صدره.

حدثني عن ابنه روبير الذي يدرّس على بعد زهاء خمسين كيلومتراً في ربيفال في أول منطقة القبائل وكان حينها في عطلة عندهم. ظهر بعد قليل: بشرة نقية وشعر أحمر متجعد مفروق في منتصف الرأس. بالكاد صافحني قائلاً «مدام». «كنا نسمعك من بعيد» قال لوالده بصوت ذي رنين معدني.

وقال لي: «لأبي موهبة في أن يورط نفسه بما لا دخل فيه. لقد أصبحت بالغاً بما فيه الكفاية، لكنني أبقى بالنسبة إليه الطالب الذي اصطحبني لأتعلم في بار– سور– أوب أو طالب المدرسة الإكليركية في بلعباس وبوزريعة. وهو الذي لم يكن يوماً عسكرياً، ينسى أنني عانيت لعامين حاملاً الحقيبة على ظهري مع الزواوين بين أومال والحصن الوطني».

قلت لهم إنني أشعر بأني وصلت في الوقت الخطأ. «لا»، قال ديماتون، «بالعكس، فوجودك يضفي بعض البهجة».

شم روبير رائحة قلي السمك الآتية من المطبخ.

– الآن يصوم أهل الدير عن تناول اللحوم يوم الجمعة.

– إلى الطعام، صاح ديماتون.

– لديك بيانو جميل، قلت له.

– عندما أفكر بأن أبي العزيز أوهمني يوماً أنه اشتراه لكي أصبح موسيقياً عظيماً... لو حدثتكم عن فتاة ساروت...

– أنا معجب بلياقتك يا بني. فيما يخصك نحن نقدرك. أما إذا اعتبرت أن من الحكمة الزواج في سن العشرين...

– هذا الكلام على لسان أبي الذي لم يتوقف عن عقد الزيجات...

شعرت بالأسى من أجل ماتيلد. يبدو أن روبير يشعر بالغيرة ويتحرق لتكون له امرأة. جالساً قبالتي، بدا أشبه بديك غاضب. «والأحداث أيها المغفّل؟»، صرخ به ديماتون.

وفجأة تذكرت ما قاله لي هذا الصباح بالذات أحد عمال التوصيل الذي علم أنني سأتغيب لبضعة أيام «ألا تخشين السفر؟ يبدو أن حرباً ستقع...».

زيزي كان يأكل بهدوء واضعاً الفوطة حول عنقه والحسك على طرف صحنه.

– على أية حال، قال روبير، إن اندلعت الحرب فمن سيخوضها أنت أم أنا؟

– لست مسناً إلى هذه الدرجة، يمكنني المساهمة في الخدمة، فالقوانين

الجديدة يمكنها أن تجد لي مكاناً في المنطقة.

– إذا اندلعت الحرب، قالت ماتيلد، فلن تحظى زيزي بفرصة المشاركة، مع قانون الثلاث سنوات. فهو بالكاد سينهي...

– ستنتظره إليز، علقت.

قهقه روبير ثم ساد بعدها صمت ثقيل. بعدها سكب لنفسه النبيذ الوردي وشرب كأسه دون إضافة الماء. لروبير شاربان غضان، جريء كما بدا لي؟ صحيح أن أولاد اليوم...

«لن تقوم الحرب، قال، «فهؤلاء السادة بوان كاريه وفيفياني يلتهمون الكافيار ويتبادلون كؤوس الفودكا مع القيصر نيكولا الثاني. لا يحصل شيء عندما يتشارك قادة الدول الولائم».

استغللت الفرصة التي سنحت لي:

– بلعباس يعتقد أن الوضع جدي.

– هل تلتقين بلقاسم؟ صاح ديماتون.

حينئذ تحدثت عن أنجيل وبدا ديماتون متفاجئاً: «لا تقولي لي إن...».

تكدّر وجه روبير:

– لا شيء يمكن أن يفرح أبي أكثر من ذلك. فهو يهتم بهذا الصبي المعّاز أكثر مني. وها هو يدخل في العائلة...

– لن نصل لهذا الحد، قلت مستدركة بسرعة.

– بلى، من باب الخدمة...

– إنه شاب متحمس، قال ديماتون، على الأقل يعترف بفضلي.

ساعدت ماتيلد في غسل الصحون، ثم ذهبنا نتنزه مع هكتور. توقفنا على الشاطئ الممتد أسفل منحدر محتشد بالصنوبر. مشينا فوق الحصى

المغطى بالطحالب الجافة حتى وصلنا إلى الحزام الضيق من الصلصال الذي يمتد على طول الشاطئ. فمن جهة الشمس المشرقة تبدو المنحدرات أقل عامودية إذ يجعلها الرمل أقل وعورة والشاطئ أكثر اتساعاً. وفوق سلسلة صخور سوركوف تتقوس الأرض. وبعيداً في الخلف تلمع تعرجات جبل جرجرة تحت سماء رمادية. يهدر الموج، وبعد أن يتلاشى على الشاطىء ينسحب كاشفاً عن نوعٍ من شفة هاوية. شعرت بارتعاشة. كان هناك مجموعة من أطفال السكان الأصليين يصطادون متظللين من الهواء بمظلات من القصب، وآخرون يجرون على المنحدرات بين الماعز ويلعبون بالطائرات الورق.

– يضعون المصائد ويصطادون العصافير بعود المطيط[1]، قالت ماتيلد، يبدو كل ذلك عنيفاً بالنسبة إليك.

– أنا أحب ذلك، قال هكتور.

– من المنزل، قالت ماتيلد، نسمع هدير البحر، وأيام العواصف يكاد يصل إلى المنزل مع الغبار والملح عند الأبواب الذي يحرق كل شيء. عندما يهتاج، تشعرين بشيء ما يقلب كيانك.

– معلمتنا أخبرتنا عن العالم، قال.

– معلمتهم، علقت ماتيلد، تدرسهم وكأنهم رجال.

– مثل ماذا؟

– الهواء والسماء والبحر، وبعد البحر...

فوق لسان رملي، يتكسر البحر المزبد فوق سلسلة من الصخور الشبيهة بالمراكب المحطمة. فالهواء يعصف بالأشجار دون أن يعترض

(1) أي «النقيفة» في التسمية الدارجة لها.

طريقه شيء. وقطعان النوارس، تتأرجح في الدوامات وتغامر أحياناً بأن تحط على الأرض ثم تعود مسرعة وتغطس زاعقة.

بعد فترة صمتٍ سألتُ ماتيلد: «أأنت سعيدة؟».

تلاقت أعيننا في الضوء ثم أخذت أحملق في الفراغ:

أأنا حقاً المرأة التي يحتاج إليها هنري؟ عليّ أن أضحكه وأريحه. إنه رجل مضطرب.

– لماذا؟ لا ينقصك شيء، فلديه كل ما يريده.

– الرجال، أمر معقد. تعتقدين أنهم إلى جانبك ومنشغلين بحياتهم معك، ولكنك تدركي فجأة أنهم بعيدون. مثلاً كما هكتور على البحر. عندما كنت شابة كنت أفكر بالصحراء وبكل هذه الرمال والجبال والحيوانات التي تعيش هناك حيث لم أذهب يوماً. الحسن في هنري أنه قنوع، يكفيه «طبق دسم» كما يقول من وقتٍ لآخر لكنه لا يشرب الخمرة».

حدثتها عن حايك، بدا لي أنهما يعلمان. هزت رأسها.

– لماذا لا تتزوجينه؟ يمكن للأشياء أن تحدث من تلقاء نفسها...

– فقط لو أعرف من أين يتحدّر.

– إن كان يحبك...

– هذا لا يكفي. فالأهم من ذلك، أقله في البداية، هو أن أحبه أنا. ثم... دبماتون ماذا يعني لك الآن؟

ترددت. لقد تباعدنا قليلاً منذ الطفولة، ثم قالت: «الدفء، عندما أشعر بالبرد. الرقة... مع أنه يبقى لأيام دون أن يتفوه بكلمة واحدة، فهو يتألم ولا أعرف مما ولا أستطيع لأجله شيئاً. فأصمت مثله».

هذا هو إذن الحب الكبير؟ عزلة مضاعفة، صمت، أن نرى الآخر يروح ويجيء ثم ننام في الليل جنباً إلى جنب، نسمع الريح، نلمس يداً، نغمض العينين لكي نترك الليل يدخل فينا، نبحر من حلمٍ لآخر حتى الصباح ثم نبدأ من جديد، نفيق ونغتسل ونحضر القهوة ونسمع أحدهم يسعل ونعجز عن فعل شيء من أجله؟

كان هكتور أمامنا يرمي الحصى في البحر.

– أنت قلقة على أنجيل؟ سألتني.

– لو ترك زوجك ابن القبيلة هذا يبيع الحمص لدى والده...

– اليوم جميعهم يذهبون إلى المدرسة، كيف يمكن منعهم. حايك، إن كان يعجبك، ستقولين إن اللبنانيين رقيقون وأذكياء ومن أفضل الشعوب. إن كانت أنجيل تحب بلقاسم...

– على العرب أن يبقوا في أكواخهم مع ماعزهم. ضعيهم في شقة في الجزائر سينامون على الأرض ويربون الدجاج على الشرفات ويسدون المغاسل وينحنون على البلاط مصلين، ونساؤهم لن يخلعن الحجاب أبداً. وهذا ما لا يمكن لأنجيل احتماله.

– هذا الرجل سيصبح بروفسور. من يعلم؟ فإن كسرت القشرة ستجدين اللب.

– أو لا تجدين شيئاً.

أعرف أنجيل جيداً، لو كانت هنا لقالت لنا بصوتها الناعم: «بالنسبة إليكم فمن الكياسة أن أتزوج فكتور وأكرس نفسي للمطبخ وأساعد أمكم وأقضي مساءاتي أسمع الولد يحكي عن الكروم والبقر والأرنب البري الذي أفلت منه، عن الجفاف أو الفيضانات، وأعلمه كيف يغسل أسنانه

هو الذي تفوح من فمه رائحة الدجاج وأسمع أمكم تجتر قصة حياتها. ونصبح مومسات وتشعرون بالخزي. أو أنه قد تلزمنا سيارة فاخرة لمستوطنٍ كبير أو مستشار مالي وشقة في شارع إيسلي أو فيلا في البيار. وإن نجحنا بشبك أمير أو حاكم فيا للنصر! فالسلوك الأخلاقي والنزاهة بالنسبة إليكم هما التألق في السرير الذي نضطجع عليه. أهي غلطتي إن كان بلقاسم اكثر ذكاء منكم ويعلمني أشياء تجهلونها؟ ستعلنون الفضيحة لأنني لا أفكر مثلكم؟ ولا أفكر أن أعيش مثلكم وأنتهي مثلكم...».

عندما استمعت لماتيلد استنتجت أنها تؤيد أنجيل. فكلاهما من آل بويشو دائماً لجهة الرفض والثورة واللاشرعي، من يتركن أنفسهن يغتصبن في الإصطبلات أو يخن أزواجهن وينحين باللائمة على ظروف خارجية فرضت عليهن.

نادينا هكتور وصعدنا بهدوء باتجاه القرية. هذه المرة كان الهواء يدفعنا والنوارس تدور حولنا زاعقة وهكتور يركض أمامنا ملوحاً لها بيده.

3

بالكاد كنت تمددت على السرير وأغمضت عيني عندما سمعت طرقاً على الباب.

فتحت ماتيلد الباب:

– هناك زائر لأجلك.

– من هو؟

– سترين.

لماذا رتّبت شعري وكنت مهتمة بإضافة بعض بودرة الأرز على

خدودي؟ عند دخولي نهض حايك. وعند طاولة الطعام رأيت أقفاصاً من الفاكهة تعلوها باقة قرنفل.

لم أستطع إخفاء استيائي.

«لا تغضبي، عندما علمت بمكان وجودك...».

اعتقد أنه قرأ علامات تشجيع في عيني ماتيلد.

«عندما يتعلق الأمر بها، فأنا أتمتع بكل الجرأة...».

إنه جريء... عليكم أن تروه كيف يجبر نفسه على الابتسام وهو يرتجف ويتلعثم ويشحب ويتلوى. «أهذا منك، كل هذا الأغراض؟».

مجموعة باهرة وغنيةً جداً بحيث أنه لم يشترها بالتأكيد من بقالتي: برتقال على الرغم من أن هذا ليس موسمه، برتقال هائل الحجم، وأناناس وأيضاً خوخ ومشمش حلو، وعلبة شوكولا وكعكتان وزجاجتا شامبانيا.

ديماتون لا يحب كثيراً زيارات الغرباء ولكن هذا الإسراف الخيالي في أنواع الطعام أدهشه. كما أنه تأثر بالسيارة التي وصل فيها حايك، فقد فاته القطار، وعندما قرر المجيء كان آخر القطارات قد انطلق. «هلا عرفتنا بنفسك؟».

انحنى أمام ماتيلد وكأنما أمام أحد الزبائن في «شي لاراد». فالقصد من هذا الإسراف في الهدايا إذهال عائلتي على أمل أن تقف في صفه.

– وهل تركت عملك بهذه البساطة؟

– قلت لهم إنني مريض.

– أنت فعلاً مريض ولكن هنا، وأشرت إلى الرأس.

– انظروا كيف تعاملني، قال متنهداً. أتعرفين ما الذي دفعني لذلك؟ هو ما يشاع في الجزائر من أن النمساوي بعث بإنذارٍ إلى صربيا،

أردت أن أحذرك، إن حصلت الحرب...

– لن نكون هنا.

– ... سأرحل ولن أتمكن من رؤيتك ثانية...

– هنا لا يرحّلون الأجانب.

– وإن شاركت بالحرب؟

– أنت، جندي؟

– لمَ لا؟

– هم ليسوا بحاجة إلى خياطين وفنيين ولا حتى إلى تجار ملابس مستعملة. فسلاحك هو المسطرة والطبشورة وتريد أن تدافع عن البلاد. أين هي بلادك؟ وتفرض نفسك على الناس هكذا دون سابق إنذار وحتى دون أن تزعج نفسك لتعرف إن كانوا سيستقبلونك؟

دلقد حدثتني ماري كثيراً عنك، قال لماتيلد. هذا صحيح لم يكن عليّ أن آتي دون سابق إنذار.

– لا تقلق، ردت ماتيلد. ستبقى معنا الليلة، أليس كذلك هنري؟

– مع وليمة كبيرة، قال ديماتون وعينه على الطاولة.

– أهو خطير هذا الإنذار؟ سأل حايك.

– ليس إلى هذه الدرجة، فرئيس الجمهورية في سانت بطرسبورغ ولن يعلنوا الحرب في غيابه.

– مع كل الوسائل المتاحة اليوم...

دوبما أنه ساد الصمت فجأة:

– انظروا، قلت، هذا هو حايك الظاهرة الغريبة.

– إنه لطيف، ردت ماتيلد.

- مع هذا العقل؟

وعندما ادعى التفاجؤ: «انظر إلى نفسك في المرآة: بدويّ يحمل خردته».

ابتسم: فهذا جزء من سخريتي المعتادة.

تنهدت ماتيلد مطرية عليه: «أنت محظوظة...».

بمَ؟ أن أكون محاطة بهذا الكرم؟ أن يكون لدي رجل مثله في الحياة؟ أتتخيل بأنه لا يمكنني أن أطمح إلى من هو أفضل من حايك؟

بحماسة كبيرة أخرجت ماتيلد الأغراض التي جاء بها.

قدم حايك الشوكولا إلى هكتور فابتسمت ماتيلد:

- أنت تدلّلها..

- ها أنت مثلي إذن، قال ديماتون. لم تؤدّ الخدمة العسكرية؟

- ألديهم جيش أساساً في لبنان؟ علقت.

نظر إليّ ديماتون بسخرية ثم إلى حايك:

- عليك أن ترسل لها إنذاراً أنت أيضاً: أن تتقبلك كما أنت أو... فأنا أعرف الكثيرات ممن سيكن سعيدات...

- لماذا لا تهرع إليهن؟

- يا عزيزتي ماري، قال ديماتون اسألي أختك إن لم تكن تفضل رجلاً مثل حايك على الشخص الفظ الذي أنا عليه وإن لم تكن تحب أن تتدلل مثلك... ما كنت لأبدو ثقيلاً...

- لو نشرب الشمبانيا؟ اقترح حايك. على شرفكم؟

- لمَ لا؟ قال ديماتون.

أخرجت ماتيلد كؤوساً ومسحتها. قدم حايك الزجاجة إلى ديماتون:

«أنت خبير بها أكثر مني، إنها من بلادكم، أليس كذلك؟».

تنحنح ديماتون، وأزال المغلف الذهبي وضابط الفلينة وصوب عنق القنينة باتجاه السقف وفك بيده القويتين الفلينة وأخرجها بهدوء، وبينما لعبنا دور الخائفين وضمت ماتيلد هكتور إليها لتحميه، انتظر هو انفجار القنينة. انتشر الزبد فملأ الكؤوس، مفرقعاً، بفرح.

«لهكتور رشفة واحدة فقط»، قالت ماتيلد.

رفعنا الأنخاب وقال لي حايك:

- إلى ملكتي..

- مخبول، قلت له.

- مام[1] قال ديماتون، إذن...

وتمتم بعض الكلمات.

«الجملة اللاتينية الوحيدة التي أعرفها وعلمني إياها أبي: بونوم فينوم[2]... أفضل أن أسمعكم فولتير: *في إحدى الليالي، غنت روح النبيذ في القناني*... لا تبقى معنا يا صغيري»، قال لهكتور، «اذهب والعب».

عادت إليّ فكرة الحرب: «هذا الإنذار، ما المقصود به بالضبط؟».

بحركة اشمئزاز قال ديماتون: «الإنذار النمساوي هو نتيجة اغتيال الأرشيدوق. العرش النمساوي الهنغاري يريد أولاً الانفصال عن صربيا ومن ثم تصفية الحساب معها. ما الذي نخشاه؟ هو أن تتصدى لها روسيا، وبما أن الروس حلفاؤنا، نخاف أن يتم التحرش بنا في بلياردو السياسة ونصبح جزءاً من تصادم عام».

---

(1) Mumm أي بالألمانية رجل مفعم بالحيوية.

(2) bonum vinum أي في اللاتينية النبيذ الجيد.

عبّ جرعة وطقطق بلسانه: «بديع...»..

وأكمل خطابه الطويل حاملاً كأسه:

«إن تبِعنا الروس ستتدخل ألمانيا وستكون الفرصة المناسبة لنا لنستعيد الألزاس واللورين؟».

نظر إلى اللصاقة على الزجاجة: «من النبيذ الخام الذي أفضله... روسيا؟ حسناً روسيا هي راسبوتين[1] وراسبوتين... ماذا نكون نحن وما هي قدراتنا؟ دمى في أيدي لاعبين خفيين وقادة دول...».

4

كنا نتناول العشاء عندما وصل بلقاسم.

كان الوقت ما زال نهاراً، انتظرنا روبير وهذا ما أزعج ديماتون. فالأب

(1) غريغوري يافيموفيتش راسبوتين (1869 – 1916) راهب روسي. ظهرت لدى راسبوتين في طفولته رؤى مستمرة عن القوى الإلهية وقدرات الشفاء الخارقة، إذ حكي عن قدراته شفاء حصان بمجرد لمسه، لكنه اكتسب شهرة في فترة مراهقته باسم راسبوتين (أي الفاجر بالروسية) بسبب علاقاته الجنسية الفاضحة. وحين بلغ راسبوتين الثلاثين من عمره كان زوجاً وأباً لأربعة أطفال، إلا أن ولعه بالشراب وسرقة الجياد كان دائماً ما يتناقض وأصول الحياة العائلية التقليدية، وكان حادث اتهامه ذات مرة بسرقة حصان نقطة تحول في حياته هرب على أثرها من القرية ولاذ بأحد الأديرة حيث اتخذ صفة الرهبانية التي لازمته بعد ذلك طيلة حياته. رحل راسبوتين عن قريته ليصبح مسافراً جوالاً في أنحاء روسيا وخارجها، وخلال هذه الرحلات لم يغتسل أو يبدل ملابسه لفترات بلغت عدة أشهر وكان يرتدي القيود الحديدية التي زادت من المشقة، وقد شملت هذه الرحلات الدينية الشاقة رحلة إلى جبل أثوس باليونان وساعدته على اكتساب أنصار ذوي نفوذ مثل «هيرموجن، أسقف ساراتوي». وأثناء فترة تجواله، التقى راسبوتين طائفة متطرفة غير شرعية تعرف باسم خاليستي، وتنزع إلى الجلد والممارسات الجنسية، ولعل سمة الجمع الشاذ بين الورع والأفعال الجنسية الفاضحة هي التي شكلت القاعدة التي ارتكزت عليها ممارسات راسبوتين الدينية فيما بعد، فلم تفارقه قط فكرة أن الفرد يمكن أن يصبح أكثر قرباً من الله إذا ارتكب عمداً ذنبا شهوانياً ثم تاب توبة نصوحاً.

وابنه يتبادلان السهام. برأيي فإن روبير يظهر غراماً مبالغاً فيه بالنمساوية[1] لكي يغيظ والده.

أزعجه ظهور بلقاسم، فهو لا يحتمل أن يرى زميلاً في المهنة من السكان الأصليين يتصرف وكأنه في منزله ويبدي لأبيه الحب والاحترام. وبفظاظة ترك له مكاناً بينه وبين ماتيلد. هكتور لم يكن جالساً إلى الطاولة، فيما جلس حايك خجلاً إلى جانبي. أنهينا الكعكة المحشوة.

«أسمعت بالأخبار الجديدة؟ سأله ديماتون. الإنذار...».

بدا بلقاسم مستمتعاً بذلك. بالنسبة إليه هذا سيجبر الحكومة على إدراج كل الشباب العرب تحت رايتها، لا أن تحد الأمر بتجنيد جائر، من قبيل قبول أربعة آلاف بالقرعة من أصل ثلاثين ألفاً مع منحة جندي مرتزقة واحتمال الاستبدال وهذا ما لم يدفع سوى الفقراء إلى التجنيد.

– تريدون الحصول على حقوق، قلت له.

– حق الاقتراع خاصة.

– وبما أنكم الأكثر عدداً...

– تذكري أن التجنيد الإلزامي كان عندنا ثلاث سنوات في حين أن الأوروبيين واليهود معفيون منه، ولم ينخفض إلى سنتين إلا من فترة قصيرة، لَم هذا التمييز؟ إما أن تنقل فرنسا الحضارة ويسري القانون على الجميع وإما يجب أن نمحو عن واجهات المؤسسات العامة شعار: حرية عدالة أخوة. هل هناك طريقة دمج أكثر فعالية من...

لا تتعب نفسك يا صديقي، قال روبير.

– ... من الخدمة العسكرية؟ فلهذا يتم إبعادنا ويدخلون بعض الفقراء

(1) لذلك علاقة بالعداء التاريخي الفرنسي النمساوي.

على شكل رماة. لماذا لا يعلّمون كل أطفال السكان الأصليين؟ فعندما يزور المحافظ ثانوية الجزائر يقدمون له ولداً مسلماً يلقي خطاباً «انظر السيد المحافظ، ليس هناك أي فرق...» وفي الحقيقة بالكاد هناك ولد مسلم من أصل عشرة في الصفوف الثانوية، ويعرضونه وكأنه قرد.

– تذكر منذ نحو خمسة عشر عاماً، قال ديماتون، في القطار حيث يذهب...

– أنا ما يصدمني، هو أنك مهتم جداً بأنجيل.

لم يبد لي مستغرباً.

– أنا من السكان الأصليين، أليس كذلك؟ فـ«البيكو» لا يقرب من فتاة مثل أنجيل؟ أستاذي السيد ديماتون يعرفني. له الفضل في كل شيء. أحياناً أتساءل إن كان محقاً بقبولي في صفه...

– دعونا لا نبالغ، قال روبير.

– من دونه كنت سأبيع الفاصولياء وما كنت لأدخل إلى المكتبات.

تدخل ديماتون:

– أقرأتِ هذه الأيام في لا دييش أن ناطور روفيغو كاد يقتل برصاصة؟ يفاجئني أن ذلك لم يحصل من قبل.

– صه هنري، توسلت إليه ماتيلد التي كانت تقدم القهوة. ربما لم ينم هكتور بعد.

– يا عزيزتي ماري، أكمل ديماتون بلهجة جدية واثقة، كنت دائماً أتساءل خاصة في الفترات الأولى لوصولي إلى الجزائر لماذا ليس هناك أو أن هناك القليل جداً من الزيجات بين المستوطِنين والمستوطَنين.

لقد قدمت لي الإجابة. لديكم الشعور بالفوقية غير المبررة، الوعي الفطري بأنكم من عرق لا يجب دمجه بآخر تعتبرونه أقل مرتبة. كيف يمكن إقناعكم؟ فأنتم تظنون أنكم تملكون ناصية الحقيقة، بالنسبة إلي فكرت دائماً بأنه ليس هناك رجال أو نساء لا يمكن أن نقيم المساواة بينهم، وبعدئذ يصبح كل شيء سهلاً. وإن رفضت سأستخدم لغة الكاهن التي كان يتكلم بها ابني روبير الآن: أنتم الآن تقترفون ذنب الاستيطان. لا بل سأقول ما هو أبعد: ترتكبون ذنباً تجاه أنفسكم.

– آمين، قال روبير بصوتٍ كنسي.

سادت لحظة توتر فأعلن حايك أنه راحل فلم أتمسك به، وتبعه بلقاسم.

روبير أيضاً اختفى وعدت إلى غرفتي حيث قضيت ليلة سيئة مع البرغش.

تحجّجت في اليوم التالي بأنني مضطرة إلى العودة. وشعرت بالتحرر بمجرد صعودي القطار. الأخبار التي تمتلئ بها لا دبيش لا تهمني كثيراً. لا يهمني أن إنكلترا وروسيا بدأتا «المساعي الدبلوماسية» وأن بوانكار وفيفياني دخلا ستوكهولم دون إنذار وأن شباناً يجولون في باريس صارخين «فلتسقط ألمانيا!». إذ أن خبراً أخطر ينتظرني. «لم أعرف كيف يمكنني أن أعلمك بذلك»، قالت لي ابنتي.

استبد بي الجزع:

– ها، ما هو؟

– لقد حاولت أنجيل الانتحار.

لم أصدق أذني في تلك اللحظة. تنتحر؟ لماذا؟ أمس، نهاية بعد الظهر، وجدت أختها الغاز مفتوحاً وأنجيل تحتضر.

حتى من دون أن أبدل ثيابي، قفزت إلى الترام. كان الطقس جميلاً، لكن العالم برمته بدا لي كئيباً.

5

تسكن أنجيل بالقرب من ساحة الحكومة بين شارع باب عزون وجادة الجمهورية. غرفتان ومطبخ في الطابق الأول من بناية كبيرة لا تبعد كثيراً عن غاني بيتي وفندق دي فيل. من هناك يمكننا سماع صفارات السفن لكننا بالكاد نرى جزءاً صغيراً من السماء فوق البيوت. النوافذ تطل على باحة داخلية. ولكي نرى الشمس علينا أن نخرج أو نصعد إلى الطابق السادس على السطوح حيث يتناوب سكان البناية على غسل ثيابهم ونشرها. وبما أن تاريخ إنشاء الحي يعود إلى الإمبراطورية الثانية فالبناية مجهزة بمياه الشرب.

كان وجه ماري ما زال يحمل آثار الصدمة غير أنها بدت مرتاحة: لقد تخطت أنجيل مرحلة الخطر. المحتالة: اشترت أنبوباً من المطاط وخبأته لتوصل الغاز إلى الغرفة. لو كنت مكانها لتمددت بالقرب من الفرن، ولكن يبدو أنها أرادت فعل ذلك دونما ضجيج...

كانت تتقيأ بلا توقف تقريباً، الرأس محني والعينان مغمضتان. بدت نحيلة جداً تحت اللحاف والأغطية، محطّمة، وشعرها الأسود منثور على الكتفين. أحياناً تنتابها ارتعاشات أشبه بارتعاشات روح تعاني صقيع

الموت. لم أجرؤ على معانقتها: كانت تبصق بعض الدم. في الشقة فوقهما امرأة تترنّم بأغنية شعبية دارجة كأنما عن قصد:

أغمضي عينيك الجميلتين
لأن الساعات قصيرة...

صحيح أن عيني أنجيل جميلتان، تشبه رموشهما أجنحة الفراشات على الزهور.

في الوقت الاعتيادي تتناول الأختان طعامهما في المطبخ وعندما تستقبلان أحداً تتحول غرفة أنجيل إلى غرفة الطعام. بالطبع أنجيل هي الصغرى. في الغرفة سرير لشخص واحد ووسادة جلدية محشوة للجلوس وطاولة وغطاء مطرز ونبتة خضراء كبيرة الورق ملساء، وماكينة خياطة وأربعة كراسي وبوفيه طراز هنري الثاني اشتريت مستعملة من سوق دي شارتر، وقرب النافذة مانيكان تبدو هي الأخرى فرداً من العائلة، وقد ألبست فستاناً غير منته، لوح خشب للتقطيع وعدة كاملة للخياطة، مقصات كبيرة وقماش وصور نماذج وعلبة دبابيس وبكرات خيطان.

رفعت أنجيل أهدابها كما يفعل المرء وهو نائم يحلم. بدا أنها عرفتني بشكل ضبابي، وحركت شفتيها فانحنيت لأسمع ما تقول، كان صوتها واهناً جداً فلم أفهم شيئاً. شعرت بالغثيان فسويت لها الوسائد خلفها، عليها أن تبقي رأسها مرفوعاً. بعد ذلك خرجنا لنتركها ترتاح. غرفة ماري أكثر بساطة لا بل تبدو شبه فارغة: مجرد سرير وخزانة وكرسي وأدوات زينة، ليس هناك حتى مرآة إذ لديهما خزانات جدارية عند المدخل. ولا ما يمكن أن يدل على وجود رجلٍ كعلبة سجائر قديمة مثلاً. لم أفكر بفكتور فهو لم يزر هذا المنزل أبداً. كان عليّ أن أحمل معي القليل من البن والسكر

وبعض المعلبات، بسبب هذه الحادثة، تكشفت لي شدة عوز هاتين الفتاتين التي تتناقض مع أناقة أنجيل، وحذرهما بعدم إظهار شيء، خاصة مع طبع ماري الأكثر انغلاقاً وكونها أقل تطلباً.

«بلقاسم هذا أمر يتعلق بكما، ولكن عندي لا مجال، لن أدعه يدخل منزلي».

فقد اعترفت لها أنجيل بأنها التقته عدة مرات.

– أين؟

– في البداية في الخارج ثم عندنا. كنت هنا، جاء وتحدثنا عن فرنسا والنقاشات في مجلس النواب، وقد أثار الموضوع اهتمام أنجيل، فهو يتمنى كثيراً أن يتم تجنيسه. كما أنه أحضر لها كتاباً عن الكاتدرائيات. شرب فنجان قهوة وذهب. لقد تكلم خاصة عن السياسة.

كتاب عن الكاتدرائيات إنه لأمر غريب. فالكتب التي يقرأها أعطانا نموذجاً عنها بالأمس وبتنا نعرف مضمونها. الناس المشغولون دائماً بالقراءة يشعرونني بالريبة. هل نحن بحاجة للكتب؟

في الأعلى امرأة أخرى تردد لازمة أغنية:

في البلاد العجيبة

في بلاد الأحلام السعيدة

هنا ومع الأغاني التي يغنيها الجميع، يردون على بعضهم بعض من طابقٍ لآخر، ومن بناية لأخرى، خلال أداء الأعمال المنزلية الصباحية. وقعت عيناي على لوحة لم يسبق لي رؤيتها، لأننا كنا دائماً نجلس في غرفة أنجيل عندما أزورهما. في شقق الجزائر وتقريباً في كل غرفة، هناك مدفأة، مجرد فجوة بسيطة في الجدار حيث يضعون القناني مع غطاء حديدي مخرم

يرفع أو أسطواني يلف. لا يتم إشعال المدافئ أبداً حتى عندما يكون الطقس بارداً. بأي حطب؟ وحتى إن بعضهم يخبئ أمواله في المدفأة. أما رف المدفأة فيستعمل كمنضدة. في اللوحة صورة لقصر فرساي.

ففي الجزائر لدينا حنين دائم إلى فرنسا، وطننا الأم، الذي لا تعرفه غالبيتنا. ومن عاد منها يحكي عنها بانبهار، وكأنها السراب: كنزول موسى من جبل سيناء[1]. يقولون إن الجزائر كلها تبدو صغيرة أمام فرنسا ولكن لا يمكنهم العيش فيها، فالشتاء هناك شديد الوطأة، كما أن الناس أكثر تزمتاً من هنا، جنس آخر من البشر مثل ديماتون. فنحن نحب أن نشهد القسوة المناخية المبهرة نفسها، ولكن هذا لا يساوي عندنا البحر والسماء.

– ألم تلتق أنجيل رجالاً آخرين، ففي عمركما تذهب الفتيات إلى الحفلات الراقصة؟

– الشباب هنا؟... لم يعنوا لها شيئاً.

للحظات، كنا نتحدث عنها بصيغة الماضي، وكأننا نتحدث عن إنسان فارق الحياة. فمع أنها ما زالت حية وتستلقي بالقرب منا، ولكن ما حصل كان بالغ الخطورة، لحد أننا أردنا أن نسجل الفرق.

سمعنا الترام. ليس ترام جادة الجمهورية الذي يجري بسرعة مطنطناً بأبواقه. بل ترام الخطوط الجزائرية، شارع باب عزون: نشيد السكك عند المنحنى ثم عند التوقف، تماماً قبل تحويلة السكة. تتردد الأصوات على الجدران وتتكسر عليها ثم تنفجر مرة أخرى بالاتجاه المعاكس وأخيراً تعود إلى تقاطع شارع بوزا حيث تبدأ تغلي كطنجرة فوق النار. يغير عامل سكة

(1) جبل سيناء هو الجبل الذي نزلت فيه الوصايا العشر على موسى.

الحديد أسلاك العجلات، أتخيله، في الاستراحة، مرتدياً قبعة مسطحة، وبعد أن ينطلق الترام يجلس على كرسي بلا ظهر أسفل عمود القنطرة من حيث يمكنه أن يرى وصول الترام، مرة بهذا الاتجاه ومرة بالاتجاه المعاكس. هو المسؤول، متمركزاً في المكان المناسب، تقريباً في مقابل محل الحلويات «فييْ» الذي يعطر الزاوية برائحته الطيبة.

عدنا إلى غرفتها ووجدناها مستلقية على جانبها باتجاه الضوء، نظرت إلينا وابتسمت فهززت رأسي تأنيباً: «ماذا كدت تفعلين بنا يا ابنتي...».

رفعت قليلاً يديها الطويلتين.

«ماذا كان سيحصل لنا من دونك؟ ألست سعيدة معنا؟».

بعينيها أشارت بحزنٍ إلى الشباك.

«سيأتي فكتور وسنخرجك في نزهة».

تحركت قليلاً فعانقتها بحنان وخرجت.

عند المساء مرّ حايك «بكامل الصدفة» كما يقول. فاجأته عودتي السريعة من عند ماتيلد وعندما علم بما حصل لأنجيل راح يلوم نفسه: إنها غلطتي فأنا لا أهتم بالفتاتين.

«ابنتا خالتك يتيمتان، فقط لو تسمحين لي بالاهتمام بهما... ولكنك لا تفكرين سوى بمعارضتي. هل تخجلين بي إلى هذا الحد؟ غداً الأحد، سأمرّ بكن وأصطحبكن جميعاً إلى الغداء في لا بيشري».

قلت له إن الحياة كانت صعبة.

واقترح أن يصطحبنا إلى الحمراء ولكني رفضت، فأنا أفضل أن أبقى الليلة وحدي، فخرج مع ابنتي التي يعاملها مثلي والتي تتعامل معه بخشونة

أقل مني. بمَ يتحدثان عندما يكونان وحدهما؟ فبعد ليلتي السيئة في عين طاية كنت متشوقة للنوم.

دائماً ما كان يقول لي حايك إن عليّ أن أؤثّث بيتي بأثاثٍ أفضل. فعلى الرغم من أن شقتي أكثر اتساعاً من شقة أنجيل بيد أنها ليست أجمل. ركام أشياء تافهة حملها باتيست من تنقلاته: نحاسيات وأباريق مزيفة لا نضع فيها الماء أبداً، قدور للنباتات، صينية منقوشة كالتي نراها في «لو سود» في شارع إسلي. أغطية مبهرجة على الجدران وأشياء تافهة.

بدأ الظلام يخيم. ألهذا السبب كنت حزينة؟ فعلى ضوء قنديل الغاز كل شيء يبدو لامعاً واضحاً. الانتحار، إنه مرض معد. فإن أنا أيضاً تركت حايك ومحل البقالة، أنا نفسي؟... وفجأة تملكني الخوف وأشعلت القنديل بالنفط الذي نستعمله عندما تتمزق الرتينة، وسيطرت عليّ الفكرة، لقد أقفلت العداد في الخزانة ولكن يمكن أن يحدث تسرب ما، وإن أرادت ابنتي أن تنهي حياتها بسرعة... ابنتي؟ أنا لا أعرفها جيداً فنحن نعيش تقريباً مثل أختين. وإن تساءلت هي أيضاً لماذا هي موجودة وماذا تفعل معي في بيع المعكرونة والخوخ؟... فأنجيل لا تكبرها بأكثر من أربعة أعوام. ما عاد بالإمكان أن أنتزع من رأسي فكرة أن الفتيات لا ينتحرن في سن الحادية والعشرين. إنها آلام الحب، وهذه الشمس...

حاولت مراجعة أسباب الانتحار التي يمكن أن تكون لدى أنجيل: كأنها مشوهة أو مشلولة لا تملك أي حظ بلقاء شاب. وضعها المادي؟ القليل من الصبر، يا إلهي... أنا التي كنت أحسبها عاقلة! ربما كانت أنجيل تخفي طموحات هائلة يحبطها عدم قدرتها على تحقيقها يوماً أو

لا أعرف ربما تولد خوف ما في داخلها دون أن نتنبه له. أميل غالباً الى احتمال أن تكون هذه الشقة هي السبب. فعندما نكون مسكونين بأفكار سوداوية ونطل على مشهد جميل، وحتى في الليل خليج الجزائر مع زنار الضوء وسمائه المليئة بالنجوم، لا يمكن مقاومة ذلك، أو أن هذه الأفكار تتحول إلى رفاهية. الفقراء لا يملكون الوقت فالضرورة تحكمهم إذ لديهم ما يفعلونه غير طرح الأسئلة. أن نتفجع لأننا لم نحَب أو نحِب...

كانت السهرة ثقيلة والليل يختنق تحت طبقات الغيم والصمت يسود المرتفعات الجرداء للمدينة. تخيلت الأرصفة اللامعة في الرطوبة تحت أضواء مصابيح الشارع، لم أكن أسمع سوى مرور الترام الذي يهبط من مصطفى أو إليه. دودة طويلة مضاءة تتلوى بين طنين أبواقها أو نشيد العجلات على السكك. في هذا الوقت تصبح رحلات الترام قليلة وعند العاشرة تتوقف تماماً. فمساء السبت، يذهب الناس للمرح في المنطقة السفلية، في شارع ميشليه أو شارع إسلي في صالات السينما والمقاهي والمطاعم. شعرت بالظلم.

فعندما بعثت البرقية لفكتور تنبهت للتاريخ 25 يوليو، كم من الأحداث مرت بعد رسالة ماتيلد! شعرت بالضيق وبوهن في قلبي، واكتشفت جزعة أني أعيش في كهف بل يكاد يكون قبراً. وفجأة تذكرت الربّ.. فقط لو أعرف كيف أصلي...

صرير المفتاح في الباب، لقد عادت ابنتي فأسرعت في إطفاء النور. ماذا سيصيبها إن وجدت أمها ميتة، ها يا أصدقائي الأعزاء أي مسرحية هزلية سلسلة الانتحارات هذه... كان يمكن أن أناديها وأطلب منها كأس ماء محلى بطعم البرتقال أو كوب زيزفون، ولكانت حكت لي عن السهرة.

ولكنني لم اشأ أن أسمع القصص نفسها وأتخيل وجه حايك الباهت مع عينيه الحزينتين. لقد أشعلت الشمعة ويكفيني الآن أن أحسّ بوجودها.

في اليوم التالي، تبددت تلك المشاعر.

يبدو أن الطقس جميل. ذهبت لشراء الكرواسان من محل الحلويات، الطقس جميل ورقع من اللازوردي تظلل الأرصفة، والهواء يكنس ما تبقى من الحرّ. ما عدت بحاجة للصلاة وبدرجة أقل للذهاب إلى الكنيسة إذ كانت ستسألني ابنتي ما هي مناسبة كل ذلك، كما أن كنيسة سان شارل بعيدة.

شعرت برغبة في التبرّج ولبست فستاناً فاتح اللون وقبعة من القش. في الحادية عشرة وصل حايك، فقال لي: «تبدين رائعة، فقط لو...».

أما هو فلبس طقما رمادياً من الألبكة[1] وقميصاً من التوسة[2] تفوح منه رائحة عطر فاخر فشعرت به إنساناً حقيقياً. حضرت رزمة من قصب السكر والبن لأنجيل. وفي محطة عربات الخيل، اختار حايك العربة التي لها المنصة الأنظف مع مظلة زين حرفها بتخاريم كبيرة. هبطنا شارع ميشليه حيث كانت كل الدكاكين مقفلة ما عدا دكاكين القصّابين والحلويات، والأرصفة مزدحمة بباعة الزهور والخضار وعربات الترام المكتظة. ثم إلى شارع ديمون– دورفيل ووصلنا حتى دار الأوبرا وتقاطع بريسون وتوقفنا في شارع باب عزون. اشترى لنا حايك من محل «فييْ» مصاصات بالروم ثم أمام لا ريجونس ورود زهرية وباقة دلبوث بلون ناري. وبعدها من

(1) الالبكة أو بالفرنسية alpaga وهو نوع من الصوف الحيواني.
(2) التوسة tussah أو tussor هو حرير هندي خشن تنتجه دودة قز برية.

محلات الذهب في شارع ديفان وشارع جوبة، بروش جزائرية من الفضة القديمة مع خرزات من المرجان.

– كل هذا من أجل أنجيل.

– اتركيني أفعل ذلك. أريدها أن تشعر كم نحبها. تماماً مثلك، وفقط أنتن، سآتي لأصطحبكن عند الثانية بعد الظهر.

– وهي؟

فكر للحظة «هي أيضاً ربما».

ساحة الحكومة تتوهج مكتظة بالناس الذين ارتدوا ملابس الأحد يتحضرون للمشاركة في قداس الكاتدرائية التي ترتفع مآذنها فوق الأبرشية، ومتسكعون يتجولون. ويا للبضائع المعروضة! ملبّس روسي وترمس وحمص محمّص والثلج المطحون والقشطة وطاسات من الليموناضة تسبح فيها قطع كبيرة من الليمون، وأكوام من البطيخ المشقوق بحبوبه السوداء وداخله الأحمر وفواكه من كل الصنوف. وأمام جامع لابيشري، وتحت قبته الباهرة دوق أورليانز فوق حصانه يصافح بسيفه الشمس بتلويحة كبيرة، ومقاهي الرصيف تختنق بالزبائن. تدخل سفينة إلى المرفأ فيتكئ الناس على درابزين الجادة المطلة على البحر لمشاهدتها ترسو. وتحت الرواق المقنطر يمشي أناس مريبون في خطوط ملتوية متجنبين الاصطدام ببعضهم بعض. المدينة تبرق وتشتعل بالحياة والحرارة والنداءات المتقطعة والأغاني والمزامير والطبول وآلات الكروتال[1] المعدنية بمرافقة راقصين سود. اخترقتني الشعاع وشممت رائحة الياسمين والخبز

(1) Crotale آلات موسيقية ايقاعية تستعمل لمرافقة الرقص لدى الشعوب القديمة واليوم لدى الأفارقة عموماً.

باليانسون والكمون والمشاوي والمقانق الأفريقية والكعك بالعسل.

«هناك سفن حربية أمام المركز البحري»، قال حايك. «ماذا لو ذهبنا بعد ذلك إلى الشاطئ؟ أعرف هناك مطعماً في بيونت– بيسكاد. سنستقل عربة...».

دائماً عرباته تلك. فهي تمثل بنظره منتهى الرفاهية في حين يتكدس الناس في عربات الترام والحافلات، يختال هو فيها متباهياً وكأنه يقود قطاراً.

6

وصل فكتور قبلنا وقد بدا عليه بعض الكدر وجعل يسعل. وضعت ماري زهورها في إناء. أما أنجيل فما زالت تعاني من الدوار ولكنها تحسنت ولم تعد ترتعش لا بل أنها بدأت بالتحدّث. فالطبيب عندما عادها نصحها بالكثير من القهوة وجرعات من أسيتات الأمونياك.

وكذلك نصح بالشمبانيا.

لو علمت فقط، قال فكتور.

تبادلنا النظرات أنا وابنتي، لقد غيرنا شيئاً ما فيه. فبالنسبة إلى حايك الشمبانيا أمر طبيعي ولكن هل يعرف فكتور كم ثمن الشمبانيا وخاصة تلك الفوارة، هناك شيء ما جديد في داخله ولكن ما هو؟ المانيكان التي لم ينتهِ فستانها بعد بدت وكأنها هي الأخرى تتساءل.

ما زالت الشبابيك مفتوحة وضجيج الخارج خانق.

– نريد أن نصطحبك إلى الشاطئ، قلت لها. فالهواء هناك سيشعرك بالتحسن.

– نعم نعم، قال حايك. لا يجب أن تبقي في العتمة، عليك أن تستعيدي تشبثك بالحياة، إنها جميلة الحياة.

أوصى الطبيب بأسبوع من الراحة. وعدتها بألا نتعبها وإن شعرت بالتعب فسنعود باكراً فرضخت. نزل فكتور وحايك لتدبر عربة. حملت معي شرشفاً للاحتياط، فإن هب الهواء وشعرت بالبرد...

أجلستها إلى جانبي في اتجاه سير العربة وجلس حايك وابنتي في الجهة المقابلة، في حين لحق بنا فكتور في عربته ذات العجلتين مع ماري شقيقة أنجيل. مررنا بمنزل غربيه. أخبرنا حايك أن الكولونيل طريح الفراش وليس بصحة جيدة؛ التقدّم في السن. بعد باب عزون وسانت إيجين عند أسفل نوتردام دافريك، وصلنا إلى الطاحونتين، إنها فيلا البارونة كما يبدو وقد جددت بعد الحريق. أطل علينا البحر جميلاً والسماء من دون أي غيمة وكأننا ذاهبون إلى العيد. تنفست أنجيل الهواء.

كانت لتصنع أسطورة بانتحارها؛ الوحيدة في العائلة التي تنتحر بسبب الحب.

أكثر ما أدهشني هو ما قاله فكتور لماري وهما في العربة وهو يضرب الحصان بالسوط بجانب أذنيه: «المزرعة ليست باسمي إنها باسم أمي وسنكون ستة لتقاسمها... أما الأرض، فلا أملك إلا القليل. إذ اشتريت عشرة هكتارات من العرب كي أزرعها بالعنب، هم لا يفعلون شيئاً. فإن قدمتها لأنجيل... جميعكم تلومونني على بخلي. كيف كنت لأشتري الأرض إن كنت أنفق أموالي؟ لا يمكنني تقديم ما لا أملكه. أما الأرض فبلى».

في سهل متيجة، بين هضاب السهل والجبل، هناك حيث السبخات فحسب، اشترى عشر هكتارات من الأرض الطمي (قريباً جداً من نهر جمعة) عشرة هكتارات مزروعة بالعنب الفرنسي والأرامون[1]، مزيج يمكن أن نصنع منه النبيذ الأبيض الذي يباع...

كل هذا كان ليقدمه فكتور لأنجيل!

فهو يدفع ثمن فتاة غالية جداً: زهور وعشرة هكتارات، ما ثمن الهكتار الواحد؟ مئة الف فرنك ربما، إنها لثروة. «هل تعتقدين أنها ستقبل؟...».

وهكذا، فكتور الذي كان حتى الآن غير قادر على تقديم أقراط بأربعة قروشٍ أو نبتة خضراء أو أن يدعوها إلى الغداء في أُوازيس أو غوبر أو أن يقدم لها كأساً في توتوفيل، ها هو يرمي أمام قدميها عشرة هكتارات من الكروم. غير معقول! ربما اكتشف فجأة تفاهة حياته وأن لا قيمة لهذه الكروم إن لم يجدها تنعكس في عينيّ...

حايك رجل مجنون، أصرّ عليّ كي أنزل للسباحة «سأشتري لك لباس بحرٍ فهم لديهم هنا».

كي يبصبص عليّ دون شك وأنا شبه عارية، لذا رفضت.

«هيا اذهب أنت عزيزي»، قلت له.

لم يجروء. سأل المسؤول في المطعم إن كان لديه شامبانيا، شامبانيا جيدة، فقط تلك الفوارة. لن تكون خفيفة تماماً بالنسبة لأنجيل. في النهاية، ودون حماسةٍ، طلب قنينة عادية من الصنع المحلي.

(1) Aramon نبتة من الكروم في أواسط فرنسا.

بدأنا بحساء السمك. بجانبنا كان أناس يضحكون ونساء يقهقهن.

فخذ خروف ثم التحلية: مسكات[1]. وبعدها فتح مسؤول المطعم قنينة الشامبانيا ورفعنا الأنخاب. فتغضن وجه حايك وقال: «اعذروني إنها رديئة، سأعوض عليكم، هذا وعد، بنخب محبتكم» ونظر إليّ غامزاً.

أما فكتور وبعد أن أنهى الحساء قال إنه سيذهب للبحث عن محارة عند الصخور، أو بالأحرى كي يفكر. ثم تبعه حايك وابنتي واحدٌ بعد الآخر. ولم نبق سوى أنا وأنجيل وأختها على الشرفة. اعتمد فكتور على ماري لتنقل عرضه لأختها. ولكنه يبدو الآن أقل ثقة بطرحه، لا بل يبدو وكأنه ندم على ذهابه بعيداً وتساءل إن كانت أنجيل تستحق فعلاً كل هذه الكروم.

«الحديث بيننا أنجيل هل يمكنك أن تقولي لنا لماذا...»، سألتها.

يبدو أن البحر والهواء النقي أسكرها كما أن الشمبانيا الفوارة زادتها ثمالة. أحنت رأسها قليلاً كي تتهرب من النظرات «لا تخجلي»، قالت لها أختها.

فانتصبت ولكنها أرخت قليلاً جفنيها وهنا فجأة... فلأن شعرها كان يغطي جبهتها كالعرف، بدت شبيهة بفرس عربية، واحدة من تلك الحيوانات التي نراها ترعى القش في الدوار. وبدأت تتكلم بهدوء كأنما في حلم بصوت خفيض خاص، نوع من الصفير الذي يجب أن ننصت إليه جيداً حتى لا نخلط بينه وبين الموج، لأنه في بوينت بيسكاد، لا رمل تقريباً بل صخور وحصى ولكن الأمواج أقل اندفاعاً من عين طاية. «اسمعا، في أحد الأيام في المزرعة، منذ عامين أو ثلاثة...».

---

(1) مسكات هو عنب طيب الشذا.

عندما نقول «المزرعة» نقصد مزرعة باري في سيدي موسى، إنها المزرعة الوحيدة، مزرعتنا. وإن كنا نتحدث عن واحدة أخرى فنذكر اسمها... «... في نهاية أكتوبر وبداية نوفمبر، خرجت باكراً والضباب لم يكن قد انقشع بعد...».

ذهبت من جهة الناعورة بدلاً من أن تتوجه صوب الحوض والآلة البخارية خوفاً من أن تتسخ قدماها بوحل الحديقة، وأكملت لجهة اليمين، بعد قن الدجاج وسياج أشجار التين الذي يخفي كوخ مفتاح لجهة الكروم التي تبدأ هنا ولا نعرف أين تنتهي: لجهة الجنوب تنتهي عند أسفل الجبل، ولجهة الشمال تنتهي عند البحر ولكن على اليمين واليسار لا حدود لها. كروم وكروم تقطعها أشجار وسقوف مزارع أخرى وأشجار كينا على الطريق المؤدية إلى القرية ورقع أرض في أرض الدوار (إذ لا يمكننا تسميتها حقولاً)، وكروم قطفت منذ وقت طويل وهي اليوم تتعرى تدريجياً...

«وهنا، في قلب الضباب الذي يتلون بالزهري والذهبي تحت ضوء الشمس الذي لم يتسلل بعد، رأيت ما لا يكن من الممكن رؤيته في وضح النهار ومن دون ضباب. لأن ذلك موجود أساساً ولكننا لا نراه: في كل مكان، كل مكان، نسيج العناكب، عناكب كشعر العذراء[1]، مكعبات كبيرة ومعينات ومثلثات ومضلعات مثنية مخاطة بشكل متوازٍ.

«أشكال هندسية من كل نوع متدلية بين صفوف الكرمة أو حتى بين كل خطوة وأحيانا معلقة بين الأوراق أو التلعات. وانتبهت أنه ذلك لأمر نادر: يلزمه الفصل والساعة والضباب ثم أن نصل في اللحظة المناسبة:

(1) ويقصد بها akène وهي نوع من النبات الذي يحمل بذرة واحدة ويخرج منه ما يشبه الشعر الأبيض.

خيوط وتخاريم وجذور هوائية أو عروق دموية كالتي تظهر أحيانا في العين أو عبر جلد اليد عندما نرفعها إلى الضوء، أنسجة وأنسجة وخيوط تلغرافية، حبال مجموعة في شرنقة، شبكات لالتقاط الحشرات، عشرات آلاف من النجوم في المجرات.

«ظننت»، أكملت أنجيل، «أنهم صيادون نصبوا شباكهم على الأوتاد كي يجففوها ثم أدركت أنها أعدادٌ هائلة من العناكب الكبيرة والمتوسطة والصغيرة الجائعة وتعمل على إخاطة أنسجتها من أجل التقاط الذباب والبعوض والنحل. في الجبل وفي أماكن محددة حيث تتقارب القمم يمد العرب شباكاً للعصافير التي تمر أسراباً باتجاه الشمال. فكي لا تتكبد عناء الطيران عالياً، ترفرف العصافير على ارتفاع المضائق بين الجبال فتقع المسكينة في الشباك فيلتقطها الصيادون ويجمعونها في أكياس. بلقاسم لماذا لا نقول اسمه صراحة؟ لا دخل لبلقاسم. لقد وجدت نفسي هنا، واقعة في الفخ...».

لم أكن مخطئة: إنها أورتينس خرجت من زهرة الآلام، أورتينس أصبحت فرساً. لقد تحدثت أنجيل طويلاً عن النحل والعصافير، أما بالنسبة لي فهذا كان يجعلها تشبه اكثر وأكثر فرساً عربية، تلك الحيوانات بدمائها الحارة وقوائمها الناصعة البياض، ورؤوسها الناعمة، وعيونها طويلة الرموش كسنابل القمح، وخطومها كتويجات النبات، وآذانها الشبيهة برؤوس الحراب. حيوانات وحشية رقيقة تتغذى بالريح، جاهزة لأن تشبّ صاهلة، مشعلة النيران بأطرافها الأربعة: نساء مغرومات.

«... وفكرت بك، تخيلي. لقد بدأتِ تحدثينني عن فكتور، وترددي لي أنه رجل طيب وجدي، مقتصد، وبأن علي أن أفكر. ليس في العالم

سوى هذا العزيز فكتور، قريبي، فأنا محظوظة لاهتمامه بي، أنا الفتاة المفلسة، فتاة بويشوية من الفرع الذي لم ينجح...».

الجياد العربية، الفرسان بعد أكثر، إن عطشت فلا تقودوها إلى نهر من المياه العذبة، ستصدكم، فهي لا تحب سوى المياه العكرة. أو إن كانت أمام مجرى نهرٍ، ستظل تغرز في حوافرها حتى تصبح الماء معكرة بالتراب، موحلة، وحينئذ ستشرب باستمتاع.

ومضت أنجيل تقول: «إن شئتم، يمكنني عقد مقارنة بين بلقاسم وفكتور، في اليوم الذي سيقفان فيه الواحد إلى جانب الآخر، هذا المعدم بلقاسم الذي يتحدث عن مونتانيْ والفلاسفة وفكتور الذي يتحدث عن الزراعة والطقس، جميع أوهامكم، ما تقولونه وما لا تقولونه، أنت عزيزتي، وأنت شقيقتي، وأنتم جميعاً في العائلة، مع كلماتكم ونظراتكم، نعم شعرت أنني نحلة أو عصفور في هذا التفجر الضوئي المميت....».

«هذا التفجر الضوئي المميت...» أي حجة! الكلام عن نسيج العناكب، في عز الصيف، أمام الشاطئ في حين كان حايك يتسلق على الصخور ببزته المصنوعة من الألبكة، أما فكتور فخلع حذاءه ورفع ساقي بنطاله ليدخل في البحر.

هب الهواء وحرك عرف أنجيل على جبهتها الضيقة ووجهها المتقد. «أعتذر على انتحاري الفاشل. فقد وصلت ماري ساعة أبكر من المتوقع. وحسناً سأقبل إن كان فكتور ما زال يريدني...».

صعقت.

فهي غير مهتمة نهائياً بما سيقدمه فكتور لها. عقود من اللؤلؤ، فساتين، أموال، لمن لا يحب... لو شئت، لجعلت حايك يغرقني بالحلى

ويتكفل بكل تكاليف الدكان، ومن ثم؟ سأجد وجهه أمامي طيلة النهار والليل....

ارتدت قليلاً إلى الخلف وأغمضت عينيها (هذان الثقبان من الظلال الزرقاء كأنما حفرتا في السماء لحظة العاصفة، حيث ستنفجر) ودمدمت بصوت كئيب أنها تشعر بالتعب.

نادينا الجميع، وبما أنه علينا أن نبحث عن عربة إلى الطاحونتين، قررنا أن يصطحبنا فكتور أنا وأنجيل وينضم إلينا البقية في عربة أخرى.

– هل أعرض عليها؟ سألني فكتور بصوت خفيض.

– اسكت، لقد تم الأمر.

لم يصدق أذناه، لم يتوقع أن يجري ذلك بهذه السرعة. فغر فاه وكأنه لم يعد قادراً على التنفس، كسمكةٍ أخرجناها من الماء بعيون مدورة. نظر إليّ بداية بقلق ثم بنوع من النصر.

وبكل فرح طرطق بلسانه كي يستحث الحصان العربي وبدأ يتكلم إلى الحصان الذي لا يفهم وإلى أنجيل التي لا تسمعه حانياً بجسده عليّ. تخيل نفسه في البلدية والكنيسة وفي مأدبة الطعام في أورفيلا، سيكون عليه شراء سترة مع بنطال مقلم سيخيطهما له حايك مجاناً وسيدعوه إلى حفل الزواج فيقول له حايك: «هذه هديتي لعرسك...».

بسبب قوة الشمس أعاد القبعة إلى رأسه كي يرى بشكل أفضل أمامه ويشمّ الهواء. فهو لا يشك بأن من تقدم له أميرة. فعندما تغسل أنجيل الأواني بعد الطعام هي وأختها، تغسل صحنين وكأسين وأكثر بقليل فقط عندما تستقبلان أحد، فليست هذه المرأة المناسبة لأعمالٍ كهذه، حتى مع المضخة التي يشغلها مفتاح. ففي المدينة يكفي أن يفتحوا الحنفية...

هكذا وصلنا إلى جادة الجمهورية حيث كانت عائلات تتنزه وتشاهد السفن الحربية في المرفأ، زوارق طوربيد كما يبدو. ساعدنا فكتور على النزول ونصحته بالذهاب، فأنجيل ما عادت بحاجة إليه هذا المساء.

صعدنا بهدوء نحن الاثنتان، تمددت فوق سريرها فأعطيتها جرعة الدواء، أخذت تنصت إلى صمت الأحد، لم يكن هناك سوى الترامات، ولكن أقل من العادة. وصراخ باعة الكعك بالعسل. «إن لم تكوني راغبة في فكتور فما الذي كان يمنعك أن تجدي شخصاً آخر؟ كان ليكون روبير، ابن ديماتون، وكنت لفهمت. بلقاسم بالنسبة لي يخفي أشياء كثيرة عنا، وبالمناسبة ألا يشرب الكحول؟».

ادعت النوم فأكملت، شعرت أنني أقول ما تفكر به المانيكان في الزاوية واتخذتها كشاهد فوافقت.

– لا يفاجئني ذلك. فليس عبثاً أن حظر عليهم النبي الكحول. أتعرفين قصة المسلم الذي قيل له: يمكنك أن تنجو بحياتك إن ذبحت أمك واغتصبت أختك أو شربت الخمر. فاختار أن يشرب الخمر وحينئذ ذبح أمه واغتصب أخته. فلكي يتحمس لأفكار لا معنى لها، لابدّ من أنه يفرغ قنينة في الخفاء. نحن نعتبر ذلك ذكاء: إنها ليست سوى الخمرة. أمامنا يشرب القهوة ولكني لاحظت في ذلك اليوم عند ماتيلد لم يمتنع أبداً عن النبيذ الوردي. وبعد ذلك تخلطين بين هذا وبين الفصاحة والعلم والثقافة، ويجذب انتباهك بكتاب عن الكاتدرائيات، يتلاعب بالكلمات فتحسبينه رجل فكر كبير ومثقفاً في حين أن فكتور مجرد فلاح بسيط. في الصوم، سيكون أقل بريقاً.

لو قدم له برنس قائدٍ أو قاضي شرع يشعر بالفخر وسيأخذ صف الأقوى، وهنا يتوقف طموحه. هذا ما أعتقده يا جميلتي. إن رأيته على حقيقته هذا الغلام المراهق بعقله هذا... والآن سأتركك ترتاحين.

– معك حق.

قالت ذلك همساً حتى دون أن تفتح عينيها لأظن أنها توافقني الرأي. في الحقيقة... أساساً أن تقول بهذه الحالة لأحد أنه محق فهذا يعني: «تحدث كما تشاء، فأنت تصيبني بالسأم بهذيانك هذا».

انحنيت على النافذة ونظرت إلى الطريق الفارغة، واحدة من أقدم طرقات الجزائر حتى قبل إنشاء الجادة وأرصفة الميناء، كل هذا يعود لفترة الإمبراطورة إجيني، تهرّأ البلاط بسبب سكة الحديد وشتى العجلات التي تمر فوقها.

وصل الآخرون وذهبنا بعدها جميعاً. في الطريق فكرت بماتيلد وبما بدت عليه، امرأة بلا ذنوب. بالطبع بسبب أنجيل وهذا التشابه بينهما. أو بالأحرى نعم عرفت لماذا تذكرت ماتيلد. فقد مرّ الترام أمام دار الأوبرا، في هذا الوقت من العام 1900 ووسط فضيحة ماتيلد والمدرّس، كانوا ما زالوا يسمونه المسرح البلدي.

ليس في الخلف تماماً، قليلاً لجهة اليسار.

الفصل الثاني
لو شيان كي فوم[1]

كيف تفجّر الشرطي غضباً واستسلم لموجة سخطٍ وطرد ماتيلد ونغلها.

1

... في طريق صغيرة تسمى طريق الحامة، حيث ما زال قائماً محل الحلويات الكبير سيمِراي نفسه ولكنه أمسى أكثر اتساعاً، فهو المحل المهم الوحيد في مدينة الجزائر. في ذلك الوقت.. وكنت قد اشتريت للتو دكاني وبدأت العمل به، لذا بدأت أصبح معروفة. قالت عاملة المحاسبة عندما عرفت أنني شقيقة مالكة فندق أوترمال في روفيغو، وبكل إعجاب: «يا لتلك المرأة المحبوبة! كم هي مهذبة ومميزة وجذابة و...»، وشفافة أليس كذلك؟

كانت كل يوم خميس تأتي إلى الجزائر بعربتها. قبل مغادرتها روفيغو تقدم للجياد حصة جيدة من الطعام كي تتسلق طلعة القبة في ومضة عين! فعلى امتداد الطريق تفقد المرأة المغرومة وعيها. كلما اقتربت الساعة واجتازت الكيلومترات ودارت العجلات، تسارع نبضها وارتعشت. ماذا لو خرج القطار عن سكته، ماذا لو يتلق حبيبها الرسالة وماذا لو تعرف إلى امرأة أخرى... قبل يومين يتلقى رسالة في سلة العشاء وأخرى

(1) Le chien qui fume لو شيان كي فوم (وهو اسم مطعم) وهو على اسم طبق فرنسي من النقانق الحارة.

عشية اللقاء من أجل التأكيد (إذ قد يحصل طارئ ما، مأدبة غير متوقعة أو مرور مجموعة كبيرة أو ان الشرطي مريض؟ لا، فهذا لن يكون عائقاً فصحة الآخرين تأتي بعد الواجب المهني). وبعض إشارات سرية صباح اليوم نفسه: غسيل منشور على شباك أو شيء آخر.

تركن العربة لدى سيمِراي عندما لا يكون هناك مكان في شارع روسيني في الجهة المقابلة. وبكل حماسة، حاملة القائمة في يدها، تراقب الأولاد الذين يتسلقون السلالم أو الرفوف المزدحمة. ها هو السكر والبن، هناك نوع جديد منه ويقترحون عليها تجربته، من الدرجة الأولى. فالشخص الذي يشتري نحو العشرة كيلوات يهتمون به: «لا تقلقي سيدة كونيغ كل شيء سيكون جاهزاً». الطلبية ستكون جاهزة في الجهة الخلفية للمحل: «كما العادة حوالي الساعة الثالثة؟ يمكنك أن تتسوقي بهدوء...» أيّ كلمة، التسوق!

وتنتظر إذن تحت أشجار الموز أمام دار الأوبرا. هناك دائماً يتواجد ناس والترام يصل من باب عزون، يتشعب عند تحويلة السكة، يتوقف ثم يعاود السير مع انطلاق الصفارات. هنا تدعي الاندهاش ثم وقت مستقطع من السهو. وبعدها تعود لتراقب ثانية الرصيف المقابل حيث تتوقف عربتان أو ثلاث وحيث يتفرج الناس أسفل أشجار النخيل على الحمير الصغيرة تنزه الأطفال تحت الظلال بين أحواض إبرة الراعي والبغونيا المسيجة بقصب الخيزران المتشابك. وفي مكانٍ أبعد، خلف الأشجار، ستارة من الضوء ترفرف خلفها الأعلام وقلب المرفأ الكبير ينبض على وقع صفارات البواخر. وعلى خطٍ مائل من ساحة الحكومة وبوزريعة التي لا نراها، تضرب الشمس القصبة التي تتسلق فوق قبعة دار الأوبرا المصنوعة من

الزنك. يمكن تخيل الأرصفة المائلة وصوت الناي وعبق الياسمين المخلوط بروث الحمير. بالنسبة إلي، كل الطرقات المظللة هذه، وكل الأزقة الزلقة حيث يتكدس رجال القبائل على الأسيجة من عمال الرصيف أو تفريغ الشحن، كل ذلك يخيفني.

يذهب ديماتون في البداية إلى دائرة التفتيش الأكاديمية التي تعتبره مدرساً نموذجياً هو الذي يستغل يوم راحته ليطلع على كل جديد في مجال التعليم، ويعرض الحالات الاستثنائية التي تصادفه ويقدم طاعته. لا أستغرب حصوله على كل هذه المكافآت.

دقيق للغاية... في تمام الحادية عشرة، إذ ينظر أكثر من مرة في ساعته، ينهض عن المقعد حيث يكون في نقاش مع غرباء وأحياناً مع عرب، يجتاز الميدان، يتنشق رائحة اليانسون في المقهى ورائحة البتشول في محلات الزينة القريبة، يمشي بمحاذاة كشك الموسيقى ويتقدم والعصا في يده بكل أناقته وحيويته تحت أشجار التين السامقة حيث لا تتوقف عصافير الدوري عن التشاحن، ثم يظهر كرجل بالغ الثراء.

تندفع باتجاهه متجنبة أن تدوسها سيارة، فيتوقفان وجهاً لوجه.

«هذا أنت...».

لا يتجرآن على معانقة واحدهما الآخر. ماذا لو رآهما أحد من معارفهما... يجب أن يعتقد أنها مجرد صدفة. ومن ثم يتقدما. فنادق جادة الجمهورية وشارع قسنطينة[1] أو شارع إسلي، أولاً هو لا يملك المال الكافي للفندق ثم أنهما قد يلتقيان بأناس يعرفونهما من متيجة. عند زاوية

(1) القسنطينة غير القسطنطنية (تركيا)، فالقسنطينة هي من أكبر المدن الجزائرية وعاصمة الشرق الجزائري.

الميدان، بالقرب من شارع بوخويس، هناك «لو شيان كي فوم»، مهفهفاً أنيقاً محايداً. وفي مكانٍ أبعد هناك حي لمنازل البحارة مع فتيات هوى من مرسيليا أو ليون، أحمر شفاهٍ وتنانير قصيرة، وفي أعالي القصبة منازل للزواويين وجنود المشاة مع الجزائريات. فلا عيب في الحب إلا أنه... عندما تدير امرأة مؤسسة محترمة في روفيغو وتكون متزوجة من رجل شرطة سابق، وقد نشأت على الخوف من الخطيئة، امرأة محترمة كهذه لا تذهب أينما كان. في «لو شيان كي فوم»، يستقبلون مسافرين على متن بواخر ترانسات[1] أو طواش في استراحة قبل أن يستقلوا قطار بسكرة، كتاب أو شعراء يشاركون في مؤتمرات أو مغنون. فأهل روفيغو وإن أتوا إلى الجزائر لا يأتون إلى هنا.

«حبيبتي، ما عدت أحتمل...».

الخطابات، إنه هو. تتأمله وقد رطب الدمع وجنتيها. يركع أمامها، يعريها فتغمض عينيها على العاصفة التي تهب في داخلها خلال فترة غيابها عنه والتي تهدأ مع صراخ متوحش ورعد وبرق وريح وأمل مفقود، وتمزق روحها بحريتها... من الشباك، يمكنهما رؤية الترام والناس المحتشدين تحت قناطر باب عزون باتجاه غاني بيتي ودو ماغو أو العائدين من سوق لا لير عبر شارع شارتر.

يضيعان في نشوة أبدية ثم يعودان للواقع، تتساءل ماتيلد بخجل إن كان الرب (لأنها تدخل الرب في كل شيء) سيقبل يوماً اجتماعها بهذا الرجل، وإن كان ممكناً تصحيح خطأ اقترفته في شبابها. يتحدثان عن الشرطي الذي بدأ يشك... ولا يتجرآن على الظهور معاً في المطعم وفي

(1) Transat بواخر قديمة تعبر المحيط الأطلسي.

حانة ماسكلو مثلاً غير المكلفة كثيراً. يطلب ديماتون شيئاً ما ويأكلان في الغرفة. تنظر إلى ساعتها وتتفاجأ ويغرقان في معانقات جديدة ويقتلعان أخيراً من بعضهما ويرتديان ملابسهما. تهبط هي في البداية. ومن الأسفل ترفع ناظريها سريعاً إلى النافذة حيث يكون يراقبها وترسم حركة ما بيدها وتغادر باتجاه سيمِراي حيث ركنت العربة.

«تبدين سعيدة سيدة كونيغ...».

تبتسم. لا ليست سعيدة، فهي تتألم ولكن الحب يمتص كل شيء، تشعر بقبلاته ومداعباته، تضيئها أنوار خفية وتهدهدها موسيقى سمفونيات كبيرة ولقاءات حصلت وضاعت، قوة ودمار، تقودها كلها من فضاءات الحياة إلى فضاءات الموت. الجميع يجدونها جميلة كسيدةٍ عذراء، فليس على الشرطي أن يقلق من امراة محافظة إلى هذه الدرجة، أو أنها محفوظة لمن، بما أنها ما عادت له سوى بالاسم؟

في قطار الخطوط الجزائرية، يأخذ خط سيرٍ آخر، عبر الداي حسين، ميزان كاريه ثم لاربعاء، أما هي فتمر بسيدي موسى أمام المزرعة. لمَ لا تتوقف لتعترف؟ فابتداء من معبر قسنطينة وأراضي براقي التي ما زالت مستنقعات تردد في سرها: «لو أتوقف...» وتبدأ: «أمي يجب أن أخبرك...»، ماذا هناك، ابنتي؟

ماذا إذن، هل هناك شيء ما عليك ان تخبريني به حبيبتي ماتيلد؟

أفي هذه الفترة، اتخذت الأم هيئة رئيسة دير تستقبل اعترافات الراهبات؟ يوم الخميس بعد الظهر تبدأ بمراقبة عقارب البندول، وطنينها عند اكتمال الساعة وعند نصفها: «لقد غادرت ماتيلد «لو شيان كي فوم» وتهبط الآن باتجاه شاطئ القبة وتستدير...». طوال سنوات لا

شيء، باستثناء مرتين أو ثلاث وليس بسبب الحدث الأعظم الذي كانت الأم تخشاه: وإنما لتخبرها بأن ديزيريه يتعلق أكثر وأكثر بالميكانيك أو أن الفندق يسير على ما يرام. وفي الحقيقة بقيت متكتمة. ولكي تخفي عن نفسها ما تفكر به الأم تقول لنفسها: «ماتيلد ما زالت شابة، عليها أن...». وفي أعماقها تلمس الأمل الخفي الغامض المشين لطفلٍ جديد ليس من الشرطي الذي بدأ يشرب الخمرة لينسى شكوكه ولكن من الآخر الآثم المطلق والمحروم كنسياً مرتين.

لمساعدة ماتيلد على الكلام، أخبرتها الأم كيف حصل ارتباط عائلة بويشو بالجيش في الإصطبل. «فربما تجهلين بالطبع كيف تزوجت أختي مارغريت النقيب الجميل غريبه، الضابط المساعد للجنرال دو رواي الذي جاء لزيارة جدك الذي كان يعمل مرافقاً له خلال حملة الجزائر. الانتصار للخطيئة أوصل إلى الحذاء الملمع والبنطال الأحمر المزنر بالأسود والنياشين العسكرية المذهبة!». وفي مكان الأم وحتى لا أبدو جدية وأتفادى الوقوع في الأفخاخ التي تنصب للأرواح الساذجة والمسحورة كان عليّ أن أضيف: «لتحيا فرنسا، ابنتي!» ولكن لا تستطيع الأم الاستخفاف في أمور كهذه: فهي محتشمة جداً وعنيدة جداً.

لا شيء طوال ست سنوات. مع الوقت، بدأت تكون تقليداً، عرفاً راسخاً، شائعة يعرفها الجميع. فإن سميناها فضيحة، فهي فضيحة مقبولة عائلية، واضحة جداً إلى درجة أنها ما عادت تهين أحداً ولا حتى المعني الرئيسي بها، بما أن ذلك يحصل على بعد ثلاثين كيلومتراً في الجزائر... في السنة السادسة جاءت أخيراً ماتيلد وتوقفت حقاً في المزرعة. لم تكن هذه المرة على عادتها، لا بل أقل رغبة بالكلام ولكنها كانت مجبرة. عندما

رددت أنها ما عادت قادرةً على الاحتمال، حسناً، هذه هي. صمتت ماتيلد لأن سلاحها الدائم هو الصمت.

بالنسبة إلى ماتيلد كل الأزمة تكمن في كلمتين: «أنا حامل..».

بصوتٍ واضحٍ قالت الأم منافقةً: «كونيغ سيكون سعيداً».

– سيحصل الشرطيّ على وريث جديد. حدث سعيد.

– لا، أجابت ماتيلد.

– لا تقولي لي...

– بلى.

نظرت الأم حولها لتتأكد من أن مفتاح ليس في الجوار. «يا ويلي، يا ويلي» تمتمت. مدت يدها إلى مسبحتها الخشبية الكبيرة التي حملتها لها أختها لاتيتيا (فلاتيتيا هذه عكس مارغريت: قصيرة جداً ولكنها حيوية ومحتالة) من زيارة الأماكن المقدسة في لورد[1]: حبوب كبيرة كالكرات وقبل الصليب المعلق فيها، ميدالية كتبت عليها كلمات السيدة العذراء لبرناديت سوبيروس: *اذهبي واشربي من النهر وسوف تغتسلين من الذنوب*. مررت المسبحة بين أصابعها وتنهدت. فأمام ما حصل تتخيل فضيحة كبيرة ينتظرها كل السذج. خافت. وإن أنجبت ماتيلد طفلاً أصهب الشعر؟

تكلمي ابنتي، وإن كنت تفضلين ابكي، فضفضي عن نفسك...

(1) Lourdes مدينة فرنسية تقع إلى جنوب غرب الحدود الفرنسية الإسبانية وتتبع دائرة أوتي بيرنيز، وهي بجانب تلال بيرنيز يبلغ عدد سكانها 17،000 نسمة وتشتهر بكونها مزاراً للروم الكاثوليك. وفي كل عام يزور لوردز زهاء مليوني زائر على أمل حدوث معجزة شفائهم من الأمراض.

سيكون وليد الحب، قالت ماتيلد.

نهضت ماتيلد وارتمت الامرأتان في أحضان واحدتهما الأخرى، اصطحبت الأم ابنتها إلى العربة المركونة تحت شجرة التين حيث كان يمسك مفتاح بالجياد في هيئة من لم يعرف شيئاً.

وضعت الأم يديها المبقعتين في جيبي مئزرها الأسود.

«أخبريه الآن، سيكون ذلك أسهل».

هزت ماتيلد رأسها موافقةً، واعتلت المقعد وهزت الرسن.

2

في ذلك اليوم بدت الجياد مهتاجة، تشب وتشب، وكان عليها أن تضبطها بضربات السوط. ماذا أطعموها لدى سيمِراي؟ كاتدرائية الكينا، قرية سيدي موسى، البيوت الواطئة بسقوفها القرميدية الدائرية، الكنيسة التي تحمل اسم القديس شارل وبيت الكاهن، الطنين المبهج للأجراس بعد الظهر، رائحة المنعطف المسفوع بحوافر الجياد، المدفن فوق المدرسة ومركز البلدية، ساحة النجمة مع المقهى ثم الجسر فوق النهر التي انتشرت على ضفافه أشجار الزيتون وبعد ذلك، الطريق المستقيمة الخالية تقريباً التي توصل إلى روفيغو بين الكروم والمزارع المنتشرة على الجانبين أسفل الجبل الذي يقترب شيئاً فشيئاً، كل ذلك في برهة كقذيفة مدفع!

من السهل قول ذلك، ولكن كيف لرجلٍ لم يلمسها منذ سنين، هل يمكن لامرأة أن تعترف بهذا الإثم الذي يحفر فجأة داخله ثلماً من الآلام؟ ربما كان هذا الرجل طيباً صبوراً مستسلماً أو متلبّد الإحساس، لكن عندما سترمي بالحقيقة في وجهه، سترتد من أعماق مشاعر مظلمة، حجارة

مطعمة بمحارات مطبقة منذ ملايين السنين، هناك حيث قديماً، كانت تتنشق البحار، وستوقظ غيرة حيوانات تمزق بعضها بعض بالأنياب أو القرون، وستستنهض ركام ظلمات وغضب أو من يدري؟ ربما لا شيء. بالكاد الضربة العنيفة الجنائزية لسقوط شاهدة القبر.

وبعد ذلك الغبار والعدم والليل.

في هذا اليوم، بدأ كونيغ يقلق، أكثر من العادة، وفي النهاية رأى العربة تظهر وهي تسير بأقصى سرعتها فمشى باتجاهها. أراد أن يساعد زوجته على النزول لكنها قفزت منها كالمعزاة. اكتفى بنقل الصرر. بدت له مرهقة عصبية لحد أنه سألها:

– ما بك ماتيلد؟

– لا شيء.

لحقت به إلى الغرفة حيث يوضبون المؤن. لن تتأخر السيدة لاغاريغ في الوصول، لذا قالت له مباشرة في وجهه: «سأنجب ولداً».

بسيطة جداً، يكفي أن نلفظ الكلمات.

وإذا به يشحب وتصطك ركبتاه، يترنح فيتشبث بأحد الرفوف.

– ليس صحيحاً... ليس صحيحاً، تمتم.

– بلى.

الجواب نفسه الذي ردت به على الأم. كلمة من ثلاثة حروف تقطع، تفلق إلى نصفين، تمزق كساطور. «أتريد أن تعرف ممّن؟».

قسوة غير مجدية. ولكن عندما يتجرأ أخيراً الخجولون فلا شيء يوقفهم، كل شيء يتفجّر. هي التي لا تتكلم سوى في المناسبات الكبيرة وخلال لحظات شغفها، انقضّت وحطمت وأشعلت النار. استغلت تلك اللحظة

التي أرادها الرب... لا تقولي لي يا ماتيلد إن الرب هو من وضع المدرّس في طريقك أو أنه أيضاً دفعك لخيانة زوجك وأن تسلمي نفسك له بكامل رضاك. ستقولين إنك في عمر التاسعة عشرة تزوجت شرطياً معتقدةً أنك تتزوجين فارساً مدرعاً، تحلمين بالسير تحت قوس من السيوف عند باب الكنيسة، قوس السيوف ليس سوى للخيالة، للضباط، وليس لرجال الشرطة.

أدارت عيناها وذهبت. ماذا يفعل كونيغ المسكين وقد ضربته الصاعقة؟ أيّ كلام يمكن أن يؤاسيه؟ ماذا سنقول له؟ أنه لا يمكننا أن نفعل شيئاً، وبأن القدر حلّ بك، مكتوب؟ ستقول لنفسك الأمر نفسه: فلتذهب إلى الجزائر قدر ما تشاء، لن يلتقيا ثانية في القرية، وليبقى القوطي الشرقي في مدرسته. ستتقلب وتتأرجح وتتمايل وتتدحرج ولا تعرف على أي جهة تقع. تماسك من جديد، اذهب إلى مكتب المحاسبة، اسكب الكأس التي تريدها واشرب فهذا يشفيك. وللناس الذين يحدثونك قل لهم أي شيء بعينين تائهتين.

مثل ملاكم مصعوق، يترنح محاولاً أن يعرف أين هو، وكل شيء أمامه ضبابي، بقي كونيغ صارّاً ليومين على أسنانه. في المساء الأول نام في غرفة فارغة ثم وضع لنفسه سريراً في المكتب، هناك حيث تلقى الصدمة، إلى جانب أكياس اللوبياء المجففة ورزم المعكرونة ومونة السكر ومصائد الفئران. زوجته؟ كأنها غير موجودة.

تجاهلا الأمر طوال ستة أشهر: صباح الخير، مساء الخير. هو في حجرته. ماتيلد ما عادت تناديه حتى باسمه وهو ما عاد يتجرأ على لفظ اسمها.

هو كظلٍ خلف مكتب في المقهى الذي لا تدخله ماتيلد أبداً. وهي تتولى المطعم حيث لم يعاود الظهور. أمسا يتحاشيان واحدهما الآخر.

عندما ولد الطفل، رد على ابتسامات التهنئة، وأفرغ كؤوساً على شرف المولود الجديد، ولحسن الحظ فهو يشبه الأم ويمكنه أن يخدع. أعلن عن المولود باسم كونيغ مع اسم صغير من العائلة: هكتور، أيمي، إيبوليت...

عيد الميلاد في هذا العام، يوم ربيعي بامتياز، يوم دافئ مشمس امتلأ خلاله الفندق بالزبائن، ومدت ماتيلد طاولة في الباحة الداخلية مع زهور وسجاجيد معلقة لإخفاء الاحتفال. الجميع فرحون والزبائن يلقون نظرة قبل دخولهم إلى صالة المطعم، والسيدة لاغاريغ والنادل يشرحان أنها عمادة الصغير الذي ولد منذ شهرين.

تساءل الناس لماذا لم نسمه نويل. لا هكتور مثل عرابه، هذا الرجل الوسيم الذي ترونه هناك بسترته المرصعة بالنجمة الوردية، كولونيل سابق، الكولونيل غرييه... من الظلمات التي كان غارقاً فيها، ذهب كونيغ نحو الأسود والجنائزي والموت. فالعمادة كانت ملحمة حقيقية مع وليمة كبيرة أبدعت فيها ماتيلد والسيدة لاغاريغ، وهكتور لم يكفّ عن الإشادة بهما، وماسة مارغريت لم تتوقف عن اللمعان، فكتور والنجار بديا في مزاج جيد، وأنا كنت أتضرّج خجلاً من تلميحات هكتور.

كنا قد انطلقنا للتو وتم ترتيب كل شيء، وهبط الظلام، وإذ بكونيغ يدخل الغرفة الزوجية السابقة والتي تحولت إلى غرفة خاصة بماتيلد، وهنا وبشكل مفاجئ نعت زوجته بالعاهرة. فالرجال يمكنهم أن يطلقوا الشتائم بسهولة. فهذه هي نقطة ضعفهم أو أنها طريقتهم الخاصة للتعبير

عن شخصيتهم.

واندفع نحوها.

خافت ماتيلد لأنها اشتمت فيه رائحة الأفسنتين وكان يحوزق. ففي لحظة كهذه يمكن للرجل أن يتحول إلى وحشٍ يضرب ويقتل. أخرجت الطفل من سريره وضمته بين يديها كي تحميه.

«اخرجي أنت ونغلك! إلى الجحيم».

لا أتجرأ على رواية كل ما تلفظ به. في النهاية تهاوى على الدرج قاذفاً ثمله وغضبه وحزنه. وضبت ماتيلد أغراضها وهي ترتجف. وفي الصباح عندما وصلت خادمة الفندق طلبت منها أن تقرن العربة وحملتها رسالة للمدرّس عبر السيدة لاغاريغ التي تكفلت أيضاً بإخبار أرتور وانطلقت إلى المزرعة.

هنا استنتج مفتاح أن هناك ما حصل، فبنظرة سريعة علم أن المولود ليس ابن الشرطي.

لكي أبتعد عن أنجيل وألا أتوقف عن زجّ نفسي بأمر هزني بعنف، ركبت القطار يوم سبتٍ، في بداية يوليو، باتجاه عين طاية.

الفصل الثالث
النصر لبلادنا الخالدة فرنسا

يردد بلقاسم «نشيد الرحيل» ثم يدق ناقوس الخطر مع هكتور.
على الطرقات عربات مهترئة المقاعد محتشدة بالعرب تتدفق إلى مكاتب التجنيد.

هذه المرة أحلم بأن أحط في عالمٍ آخر في جزرٍ محمية. لقد وصلت في قلب المأساة: روبير رحل مع فتاته النمساوية. هذا الهروب يدمّر كل أمل بالزواج من المدرّسة. ولكن ما المانع ما دام هو نفسه، روبير، ليس متحمساً لها؟ فهو سيد نفسه وحر بتصرفاته، وسيتحدى سلطة أبيه. وهذا ما أغضب ديماتون.

طلبت منه ماتيلد أن يتذكر: «لو أمكن للبيانو أن يتكلم...».

فانفجر غضباً، ووضع بحنقٍ فوطة الطعام حول عنقه. «تلك العاهرة...»، صاح مزمجراً.

نظرت إليه ماتيلد برقة.

– تذكر هنري...

– نعم، نعم، كنا أسياد أنفسنا أنا وأنت.

– هما أيضاً.

فما أن أعلنت الحرب، حتى كانت فرصة لتجاوز كل الحواجز. أنجيل، تجرأتُ على قول ذلك، ليست في حالة خصام ورغم ذلك...

ارتمى على البيانو، اختار لازمة وبدأ يغني بصوتٍ راعد.

– إنها النمساوية ذات القميص الأحمر...

وإذ به يتوقف فجأة ويعود إلى مقعده مسترخياً.

«الكلام بيننا، هما لم يخطئا»، قال.

بنظرة نبهتُ ماتيلد إلى الولد الذي يسمع. يحرّمان عليه اقتراف الأخطاء فيما سمحا لنفسيهما بالمحرمات.

«ارأيت»، قالت ماتيلد، «حياتنا ليست مملة».

وحدجني زيزي بنظرة:

«قريباً سأطلق النار على الألمان...».

تضرّج ديماتون فخراً وفجأة انهمرت دموع ماتيلد.

انحنيت عليه:

لا تقل هذه الأشياء.

لماذا؟

لأن الحرب مريعة.

أنا لا أخاف. النصر لبلادنا الخالدة فرنسا...

وأخذ يردد أبيات فكتور هيغو التي نعرفها جميعاً:

النصر لمن قتلوا لأجلها

للشهداء والشجعان والأقوياء...

أردت أن أقاطعه لكنه أكمل

لمن هم قدوة لنا

يضيئون الطريق إلى المعبد...

أشار إليه ديماتون كي يتوقف. «هذا جيد بني».

احتضنته ماتيلد بقوة. فهذه المرة إنها الأرض بأكملها هي التي تهددها، مع الحشود التي تتحرك وتنطلق في مسيرات، الطلبة الذين تظاهروا في باريس، الجنود المعفيون من الخدمة الذين تم استدعاؤهم، الأجانب الذين طردوا، تحرك ثلاثة عشر فيلقاً من الجيش الروسي، مؤتمرات رؤساء الدول، خرائط القيادة العامة التي تفتح على الطاولات، والخطط التي ترسم والشائعة الكبيرة التي تشبه الهدير... عنوان بالخطوط العريضة في لا دبييش «الوضع خطير»، تتراقص حروفه أمام عيني.

«لم يتحول بعد إلى كارثي»، قال ديماتون. القيصر نيكولا تلقى برقية مصالحة من غِيوم الثاني. ومكتب الأممية الثانية[1] اجتمع في بروكسل. وأعلن جوريه: «أنا الذي لم يتردد يوماً في استدعاء كراهية الشوفينيين، أؤكد أن الحكومة الفرنسية تعمل من أجل السلام...». بلى، كما أعلن... «ففي رأيي هناك أمل...».

بلقاسم الذي دخل مثل إعصار لم يتركه ينهي جملته «ألم تسمعوا

(1) «الأممية الثانية» تأسست في باريس عام 1889، كانت تعهدت بأن تكمل عمل الأممية الأولى، ولكنها تعرضت عام 1914، في بداية الحرب العالمية، إلى انهيار كامل. وهي الاتحاد العالمي للاحزاب الاشتراكية، وقد تشكلت في مرحلة انتقال الراسمالية من مرحلة ما قبل الاحتكار إلى الاستعمار، وتألفت من عدة أحزاب عمالية واشتراكية ديمقراطية في ألمانيا وفرنسا والنمسا. الأممية الثانية هي الاتحاد العالمي للأحزاب الاشتراكية، وقد تشكلت في مرحلة انتقال الرأسمالية من مرحلة ما قبل الاحتكار إلى الاستعمار. وفي هذه المرحلة نفسها تزايد نشاط الحركة العمالية العالمية التي قامت بإضرابات عامة ما بين (1885 – 1889م) وتألفت عدة أحزاب عمالية، واشتراكية ديموقراطية، ما بين (1875 – 1888م) في ألمانية وفرنسة والنمسة الأممية الثانية هي الاتحاد العالمي للأحزاب الاشتراكية، وقد تشكلت في مرحلة انتقال الرأسمالية من مرحلة ما قبل الاحتكار إلى الاستعمار. وفي هذه المرحلة نفسها تزايد نشاط الحركة العمالية العالمية التي قامت بإضرابات عامة ما بين (1885 – 1889م) وتألفت عدة أحزاب عمالية، واشتراكية ديموقراطية، ما بين (1875 – 1888م) في ألمانيا وفرنسا والنمسا.

الأخبار؟ ركبت سريعاً دراجتي. صدر مرسوم بالتعبئة!».

وبما بدونا متشككين: «في رأس ماتيفو[1] وضعوا اللافتات مع علمين مشبوكين».

شحب وجه ديماتون ومسّد شاربيه ونهض تاركاً فوطته تقع على البلاط يتبعه بلقاسم.

وفجأة دفع هكتور الكرسي وهرب، بقينا وحدنا أنا وماتيلد. انتابني شعور بأن شيئاً فظيعاً سيحصل لنا. بعينين دامعتين تائهتين دخلت ماتيلد في الصمت. عند الباب، تقدمت قليلاً ووقفت بين أحواض المارغريت على العتبة. في المقابل، في مركز البلدية، من الجهة المقابلة لأشجار الكينا والنهر، كان الناطور يعلق اللافتات البيض.

– كنت سأخبرك سيد ديماتون، قال رئيس البلدية. أتعتقدون أن الحرب ستقع؟

– أخشى ذلك.

– أنا في عمري. لو أمكنني...

– ما الذي يمنعك؟

– الفخر للشباب في البداية. بالنسبة لك إنه ابنك روبير؟

– عليه أن يلتحق بالفرقة الأولى للزواويين خلال أربع وعشرين ساعة...

«ولكن أين هو؟» تساءل ديماتون؟

في غمضة عين انتشر الخبر في القرية كلها وبدأ الناس يتحركون بكل الاتجاهات ثم بدأوا يتجمعون في حشدٍ كبير.

(1) Cape Matifou رأس ماتيفو تبعد 12 ميلاً عن مدينة الجزئر العاصمة.

– إذن، كل شيء على ما يرام، سيد ديماتون؟

– نعم، على ما يرام...

تقدم وهو يضبط قبعته بنقوشها «قدم الدجاجة» التي تترك الأذنين ظاهرتين، فقبعات اللباد السميكة أمست اليوم مخصصة للاحتفالات، ثم مسد ربطة عنقه الكبيرة المعقودة بعناية والتي تضبط خلف العنق بعلاقة.

– سنعيد الألزاس واللورين، سيد ديماتون؟ كم سيتطلب ذلك من الوقت؟ ثلاثة أشهر للوصول إلى برلين؟ لن نرسو فقط في مرسيليا...

– سينتهي كل ذلك، نعم.

– ثم سنذهب أبعد من ذلك وسنفرض احتلالاً.

راح يفكر بكلمة بوانكاريه[1]: «التعبئة ليست الحرب...» جاء ذلك في البرقية الرسمية. «لو كان يعرف الجزائر»، قال رئيس البدية، «لما كان اتخذ كل هذه الاحتياطات...». فمتى فرضت التعبئة دون أن تتبعها حرب؟ يد صغيرة تلكزه، التفت ليرى في عيني ابنه احباطاً فأكمل في سره البيت الأخير:

والذين يموتون كما مات...

متبنياً إلهام هذا العبقري الجليل الذي سالت من ريشته هذه الإيقاعات والصور والكلمات التي تصنع من المأساة ضوءاً أبدياً. بِرليوز[2]، آلات

(1) Jules Henri Poincaré (1854–1912) هنري بوانكاريه، أحد أعظم العلماء الفرنسيين في مجال الرياضيات والفيزياء النظرية كما كان من فلاسفة العلوم. عادة ما يوصف بوانكاريه بأنه آخر العلماء الشموليين –بعد غاوس– والذي كان قادراً على الفهم والمساهمة في مختلف فروع الرياضيات. وسميت مجموعة بوانكاريه في الرياضيات والفيزياء تيمناً به.

(2) هكتور برليوز (1803– 1869) مؤلف موسيقى فرنسي. تميزت أعماله بقوة الحسّ الدراماتيكي وثراء النص الأوركسترالي. ترك العديد من الكتابات الموسيقية. من =

نحاسية، كورس.

اهتز «ماذا بي أنا؟ هذا السافل روبير الذي يشغلني...». ما زال الوقت نهاراً فقط السماء شحبت. شعر برغبة بالذهاب إلى مدينة الجزائر. بالسيارة يمكنه الوصول إليها خلال ساعة وربما أقل. هل يمكن لرئيس البلدية أن يعيره سيارته ويصرف نفطه كي يذهب بحثاً عن صبي وسط حفلٍ صاخب؟ لا يمكنه أن يدور في كل شوارع الجزائر منادياً اسم روبير في كل الفنادق. فإن كان يحترم التقاليد، لنزل في «لو شيان كي فوم»؟... إنه لرجل مدعٍ هذا السيد: يلزمه في الحد الأدنى «أوازويس»، الفخامة. الأمل: ضجيج، موسيقى عسكرية، هذا ما يوقظ هذا السافل وينتشله من ذراعي النمساوية.

«قل لي سيد رئيس البلدية...».

رئيس البلدية لم يسمع فهو يرد على مواطنيه ويخطب.

«عظيم أصدقائي.. سنفرض...».

اقترب أحد المستوطنين، من القلائل ذوي الأصول الفرنسية، يملك مزرعة جميلة ومئة وخمسين هكتاراً من الكروم، رجل ذكي رصين. قام ديماتون بالتعريف:

– أنتم تعرفون السيد بلعباس، الأستاذ المساعد في رأس ماتيفو؟

– تشرفنا. أنت لن تذهب.

ليس هناك سؤال في الجملة. استنتاج جلف بعض الشيء. ملاحظة جافة بعض الشيء مطعّمة بشيء من الأسف. لا احتقار. استنتاج، وصف

= أهم أعماله: «لعنة فاوست الأبدية» (مقتبسة عن قصة للكاتب الألماني غوته) و«روميو وجولييت»....

واقع: بعضهم استدعي وبعضهم بقي.

أريد المشاركة، قال بلقاسم.

– آه هذا جيد... حسناً أسرع إذن.

– سأذهب صباح الغد.

اليوم التالي كان يوم أحد، ولكن هل هناك من أيام أحاد في ظروف كهذه؟ مكتب التجنيد سيفتح.

«العرب أيضاً سنجندهم، فهم لا يفعلون شيئاً سوى استغلال الوضع».

من هو الغبي الذي قال ذلك؟ استدار ديماتون وكاد يفلت يد هكتور الذي كان يختنق وسط غابة من الأقدام، فرفعه على كتفيه: «هل ترى جيداً؟ هل تشرف على كل شيء؟... ثم جال بعينيه بحثاً عن بلقاسم: «آه، أنت هنا، ما الذي دهاك أنت؟»».

لم يكن بلقاسم قادراً على تحمل المزيد. جملة واحدة جعلته ينفجر. «ماذا تريد يا بني، لن يشكوا بك، دائما حاسر الرأس، لا يمكن تخيلك عربياً...»».

بكل قواه بدأ بلقاسم يغني:

بارا، فيالا، القدر يجعلنا نرغب...

الجميع التفتوا إلى هذا الشاب الذي غنى بيتين من نشيد الرحيل ثم توقف ليلقي عليهم خطبة:

– هل تعلمون فقط من هما بارا وفيالا؟ جذع تين سيخبركم من هما:

هما بطلا 1789 اللذان قدما حياتهما كما نفعل نحن اليوم جميعاً، نحن «البيكو»...

- مجنون.

- أنا تلميذ قديم لدى مدير مدرستكم، فرنسي بقدركم وإن لم يكن أكثر، بفارق أنني لا أتمتع سوى بالواجبات...

صفق أحدهم «برافو».

- بارا، فيالا قد تخالونهما اسمي أناس من هنا؟ كلاهما ولدان. بارا جوزيف الذي قتل بالقرب من شوليه في 1793، أجبروه على أن يهتف «ليحيا الملك» فأجابهم «فلتحيا الجمهورية» وسقط. نشيد الرحيل هو لماري جوزيف شينييه. فيالا تجند وهو في الثالثة عشرة في الحرس الوطني في أفينيون، اندفع ليقطع بفأسه حبال الجسر الذي سيمر عليه الملكيون فاخترقته الحراب...

- ماذا يحشرج هذا؟

اتخذ ديماتون لهجة قائد: «إنه لا يحشرج، ولا يخطب بكم حتى...».

كان ذلك الكلام موجهاً للكاهن الذي اقترب.

«ماذا أصابني؟»، قال لنفسه، «كما لو كنت أحدثهم عن جوريه الذي نشرت عنه لا دييش هذا الصباح سطرين في الساعة الأخيرة: «تم اغتيال السيد جوريه». بالنسبة إليهم هو حقوقي اشتراكي يكتب في أومانتي[1].

«أصدقائي، السيد بلعباس ليس الوحيد من السكان الأصليين الذي يقدم لنا مثالاً، فأنتم تعرفون سواه، أولادهم هنا يسمعوننا. لنعطهم ما رفضنا أن نقدمه لهم سابقاً، فلنجعلهم مساوين لنا. ليكن الاتحاد المقدس كلمة لها معنى».

---

(1) Humanité الصحيفة الفرنسية الشهيرة.

هز رئيس البلدية رأسه، فقال أحدهم بلهجة محلية: «جذوع التين سيبقون دائماً جذوع...».

الطرقات مزدحمة، والناس يتدافعون تحت سرادق شجر الجميز باتجاه مركز البلدية بمحاذاة النافورة، يتسلقون الدرابزين ويتعلقون كالقردة بجذوع أشجار النخيل. انتهى النهار ولكن من جهة الجزائر وهضاب السهل ما زالت الشمس مشتعلة.

أشار رئيس البلدية باتجاه الغرب. «فأل، أليس كذلك؟».

«فأل نصرٍ بالطبع»، فكر ديماتون. وفجأة خطرت له فكرة:

– السيد رئيس البلدية، علينا أن ندق ناقوس الخطر.

– أتعتقد؟ قد نرعب الناس بذلك.

لا يهم! إنه حدث وطني وعالمي. معظم الحكومات الأوروبية ترسل إنذاراً، والجيوش تتوجه إلى الحدود، عيلنا أن نهز ضمير الهاربين من الجندية، نغسل سحر النمساوية، نادِ نادِ، وأقرع الأبواب والنوافذ في كل مكان! «ما رأيك سيدي الكاهن؟»، سأله رئيس البلدية.

أولاً، هذا ليس من اختصاص الكاهن. فمنذ مصادرة أملاك رجال الدين، أصبحت الأجراس ملكاً للدولة، ثم أنه لا يمانع والكنيسة ما زالت مفتوحة. وكأن القرية في عيد، فقد أضيئت، أكثر مما في مساء السبت، الكهرباء التي مدت شبكتها للتو توهجت فجأة في الميدان وبدأ الناس يتساءلون: «هل ستندلع الحرب في أوروبا كلها؟».

لكزه بلقاسم.

– إن شئت يمكنني أن أدق ناقوس الخطر.

– هل ستعرف؟ ستقرع الجرس ولكن احترس: لا تتأرجح، فقط دقات

سريعة متلاحقة دون توقف.

نزل هكتور عن كتفي أبيه ملتفاً حول جسمه.

أريد الذهاب معه.

– إذن اسمع بلقاسم: تجرّ الحبل بهدوء لتضرب الجرس بلسانه، مفهوم؟

رغب بإضافة شيء آخر، مزحة، ولكنه سكت.

لابدّ من أن السيدة فابر خلف نافذتها، تراقب فهي لا تجرؤ على تخطّي عتبة بابها مخافة أن تُسأل أين هي ابنتها. آه نعم، هذه... مع روبير الذي اصطادها...

2

عربات تغادر القرية باتجاه المزارع مع قناديلها المضاءة، بوق يعزف النوتات الأولى من «نشيد الرحيل»: النصر، نغنيه. وإذا بالجرس يرن من الجهة التي بدت فيها السماء وقد أشعلت الأرض، من الجهة الأخرى من القرية. في البداية ضربات متباعدة غير مترابطة، قرع الناقوس؟ ثم أخذت تتلاحق شيئاً فشيئاً، ضربات عادية سريعة تتوقف أحياناً وتتردد ثم تبدأ من جديد.

شعرت بارتعاشة فالجرس عندنا مبهجٌ وحتى في المآتم لا يبدو طنينه جنائزياً سوى ربطاً بالميت. الشمس تسحب شعاعها عن القرية، وأثناء هبوط الليل هذه النغمة المكسورة، هذه اللعثمة التي لم تعثر على إيقاعها أو كلماتها أو أنها لا تجرؤ، ثم هذا القرع من جديد، المتلاحق المتشنج الذي يكتسب مسحة حزن، قرع جرس الإنذار، إعلان الكارثة، كقلبٍ يخفق

مفتوناً.

في الساحة تهليلٌ: رماة قدماء ببزاتهم العسكرية يتحضرون لإعادة التجند يترأسهم مستشار بلدي من السكان الأصليين.

– أنت محق سيد ديماتون، قال رئيس البلدية، عليهم أن يقروا بجميلنا بأننا حملنا لهم الحضارة. ماذا عن ابنك لا أراه بيننا. هل ذهب؟

– أجل، أجل...

عند مدخل الكنيسة، ابتسم الكاهن وهو يرى مدرّس رأس ماتيفو من السكان الأصليين، المسلم، وهكتور الصغير، يتمسكان بالحبل الذي يحملهما كل مرة ثم يرميهما مع كل ضربة.

– سآتي لأحل مكانكما.

– هل ستستمر طوال الليل سيدي الكاهن؟

يتحول هذا الجرس إلى إيقاع مهلوس، يثقب الروح وينكل بها. في المزرعة، على فكتور والأم أن يخرجا إلى درج المدخل ليتمكنا من تبيان الفرق بين جرس سيدي موسى وجرس لاربعاء والشبلي، وحتى ربما روفيغو وبوفاريك... يفقدان الاتجاه في الليل... تصبح الأبعاد مختلفة مع الهواء... يتساءل فكتور ويهبط ليناد مفتاح ليهيء له العربة ذات العجلتين لينطلق باتجاه القرية. هل سأل نفسه إن كان سيتسنى له الوقت ليتزوج قبل أن يلتحق بالحصن الوطني في سلاح المدفعية في الجبل؟ ستعيش امرأتان وحدهما في المزرعة، وربما ثلاث إن جاءت معهما شقيقة أنجيل أيضاً.

لا أذكر أني رأيت يوماً سماءً كهذه.

عادوا ثلاثتهم، ديماتون وبلقاسم والولد. ركض هكتور باتجاه والدته. في صالة الطعام، أزاح ديماتون الصحون وفتح أطلساً انكبوا عليه جميعاً على ضوء القنديل المعلّق. تشكل روسيا بقعة خضراء كبيرة وكأنها تسحق ألمانيا المرسومة بالأحمر، النمسا– هنغاريا بالأصفر، أما فرنسا فبالنفسجي.

بالنسبة إلي ألمانيا خاسرة، قال بلقاسم. ففي الطريقة التي تبدو فيها محاصرة، ستكون مضطرة لفتح جبهتين.

– إنها أقوى مما تظن، قال ديماتون. لا تنسى في العام 1870 التهمتنا في لقمة.

– ولكن هذه المرة لدينا روسيا، ولدينا المدافع الأكثر قوة: 75 كما لدينا جوفر[1].

– جوفر نعم، إنه لشخص قويّ قليل الكلام.

يبدو أنه وصل منذ قليل، كان الباب مفتوحاً، وكنا جميعاً مشغولين بالخريطة، لم نلتفت إليه إلا عندما ظهر في الضوء:

«ها أنت»، قال له والده.

على الأقل لم ترسلوا الشرطة بحثاً عني؟

طرح سؤاله بسخرية هادئة، بدا مسكوناً بسعادة هائلة. «سيبدأون بالتحرك غداً في الثاني من أغسطس، أليس كذلك؟ حسناً غداً سألتحق بالزواويين وأصعد إلى ثكنة أورليانز في الجزائر. وأنا وبلقاسم سنلتقي في الألزاس، في برلين؟ إلا إذا كان ذلك في لا لوار أو لا غارون. والآن ابتهج

(1) Joseph Jacques Césaire Joffre (1852- 1931) جنرال عام فرنسي خلال الحرب العالمية الأولى وهو صانع انتصار معركة لا مارن واستقرار الجبهة الشمالية في بداية الحرب وقد عين مارشالاً لفرنسا في 1916.

يا أبي العزيز. فزواجي أمسى في خبر كان».

نهض بلقاسم:

– سأترككم.

– ستحلم بالنصر أيها المجنّد الإلزامي؟ قال روبير. أأنت مستعد لإراقة دمك من أجل الوطن؟

وبتحدٍ رد بلقاسم:

– حتى آخر نقطة عزيزي.

– بصحتك، أيها الطموح! سيروون لنا لاحقاً أن فرنسا لم تعرف كيف تجعل الآخرين يحبونها. عليك أن تصبح في البداية مجرد جندي. وحتى ذاك الوقت وإن أتيحت لك الفرصة فنصيحة مني استغل الوضع.

– لحسن الحظّ توقف طنين الجرس في النهاية. وكانت السماء ما زالت تحتفظ بشيء من التوهج.

3

كاد بلقاسم يتعثر.

أمام بابه، تراجع إلى الوراء ثم انحنى. كانت متكورة في الليل مثل امرأة في حالة حداد، فقد ظنها في البداية ولداً ضالاً أو حيواناً نائماً.

«حسناً، حسناً» تمتم.

أشعل عود ثقابٍ وأضاء القنديل بالنفط، فظهرت الطاولة المحتشدة بالصحف والأوراق والمنفضة الممتلئة بأعقاب السجائر والسرير الضيق والكتب على الأرض وفوق الرفوف بخشبها الأبيض. غرفة ناسك

فوضوية ورائحة نتنة. كانت تريد أن تفتح النافذة، أما هو فقد تعجل لإقفال كل شيء، الباب ومصاريع النافذة. «تريدين أن تتزوجي وتأتي عندي...».

أخرج سيجارة من علبته، أشعلها من لهيب القنديل ثم نفث الدخان. «لقد حاولتِ أن...».

هزت كتفيها فأصرّ:

– لماذا؟

– هل كنت لتشتاق لي؟

استدار للحظة وربّت على الأوراق.

– ربما سيكون من الأفضل أن أصمت، قالت.

– لا، لا، تكلمي.

أغمض رموشه نصف إغماضة وكأنه يحمي عينيه من الهواء الصحراوي الذي يندفع دون سابق إنذار. أعتم الأفق فجأة، وأمسى بلون الصلصال وفرّت العصافير جماعات، ولفحت عاصفة من الرمل الصخور وتناثرت وأعمت النظر.

– ليست مسألة خطأ وصواب، قالت.

– ماذا إذن؟

– إنه بالأحرى الأمل.

– لم يعد لديك أمل؟

فأشارت بحركة غامضة من شفتيها، فضرب على السرير ودعاها: «أنت متعبة، استلقي».

في قرارة نفسه قال: «لا يجب أن يفقدها ذلك وعيها. لماذا يقومون

بذلك؟ ليسوا مثلي ولا أنا مثلهم. تنام وكأنها لا تخشى شيئاً. أجاءت ربما من أجل ذلك، وربما لا».

أحسّ بالقلق:

– منذ متى وأنت هنا؟

– استقللت القطار الأخير.

وصلت عند الخامسة بعد الظهر في وضح النهار، بحثت عن المدرسة، قيل لها إن المدرّس من السكان الأصليين في عطلة، ذهبت إلى الشاطئ، على بعد كيلومتر لجهة الغرب، جلست على تلعة من الحصى دون أن تتجرأ على الاقتراب من الأكواخ. في الطرف الآخر من الخليج، دخان المرفأ يحجب الشمس المائلة، والجزائر تبدو مكدسةً بمنازلها وقببها ومآذنها.

«هل سمعت جرس الإنذار؟»، سألها.

المنارة فوق التلة الحمراء، لجهة الشمال، تدور أمام اللسان الأرضي للمقدمة الجبهية للمعسكر. بنظرة مواربة مختلسة وحزينة، رأى وجهها المتقد المحاط بشعرها الفالت، إنها مجنونة، نعم مع هذه الغرة على جبهتها والبحيرات المظلمة لعينيها وانعكاس النجوم فيها، هذه الذقن الرخامية، هذا الأنف المستدير، منقار ماذا؟ يمامة؟ مع صيتها كعصافير نواحة، فاليمامة لا تفكر سوى بالقتل، مع منقار أكثر قسوة ومخالب، وقد تصبح طيوراً جارحة. لا شيء شهوانياً في هذا الجسد الذي لا يبدو أنه أثقل على السرير: نصل فولاذي رفيع وبارد على الرغم من أن ناراً سرية تلتهمه.

– إذن أنت سعيد؟ تمتمت. الحرب ستكون فرصة بالنسبة إليك، كيف تسميها؟ للدخول في الاتحاد الوطني...

– مع الحرب سنصبح فرنسيين. في عائلتك كنت الوحيدة التي...

«لهذا السبب سيأسف عليّ، وليس لشيء آخر...»، أسرّت لنفسها.

– تعتبريننا مع ديماتون بشراً.

– ولكنك في أي حال لن تبكي...

– كيف تعرفين؟

– على نفسك، إذن. كنت لتعتقد أنك فقدت نصيرةً. وقد نسيت الكولونيل، هو أيضاً كان يحبك، لقد توفي هذا الصباح.

– العسكريون لهم طريقتهم في أن يحبوننا.

– ليس هو.

– لن يصبح أسطورة هذا الكولونيل؟ ناقوس الخطر، ومن الفرح كدت أحطّم للتو جرسه، بالنسبة إليهم إنه العزاء بالنسبة لي...

– أشعر بالاختناق...

أبعد بيده دخان سيجارته وسحق عقب السيجارة في المنفضة وفتح النافذة: «هل تشعرين بتحسن؟».

وفجأة تذكر نصيحة روبير: «استغل الفرصة...». ونظر إليها بازدراء. «وهل يمكنها أن ترفض فكتور؟، كلم بلقاسم نفسه، يكفيه أن يقودها إلى مركز البلدية والكنيسة. وبسبب الأحداث سيعجلون بالمراسيم، يتممون كل شيء على عجل، تواقيع بالأحرف الأولى وسيجد فكتور في سريره هذه الجميلة الصغيرة بمخالبها: هذا المساء، وبضربة عصا سيُسكت مفتاح الضفادع في الحوض. والقمر أيضاً يا مفتاح، هل سيرضح لك؟ هل يصعد إلى السماء بناء على طلبك؟ فسيد المزرعة ينام مع زوجته الشابة. هو لا يعتقد أنه يضم فرنسا بين ذراعيه، ففكرة كهذه ستضحكه. ولن يعرف هو أنها وهبت نفسها قبله لابن بقال من لاربعاء، لا بل كادت تموت من

أجله، بسبب الحب، نعم بالضبط. ولم يبقَ لفكتور سوى الفضلات. أنت تمزح؟ لا أبداً. أو تعرفين لدى «البيكو»، وحتى أفقرهم، يكون هناك شيء ما، ليلة عرس. يبيعون آخر غنامهم وعند اللزوم يقترضون. يقومون بكل الطرق لاستحضار الموسيقيين بمزاميرهم، والريتس والطبول، حفلة عظيمة وضيافة، ينصبون الخيم ويستعيرون السجاجيد، عالم من الفانتازيا، يطلق الرصاص وتعبق رائحته، تنقل العروس فوق حصانٍ في هودجٍ أرجواني مع مرافقين من المزغردات، هذه القبرات اللواتي أثملتهن الشمس. ومع الحلى البربرية، تمسي العروس معبودة بعينين يأكلهما الكحل وشعر أحمر ويدين مزينتين بالحنة. فنحن في عالم المتوحشين، أليس كذلك؟ الفتاة لم يسبق لها أن رأت زوجها، تعرف بشكل مبهم عن بنيته وبأنه رجل طيب. الزواج لدى الماعز، هل تتخيلين؟ كم دفع ثمن هذ الفتاة؟ في اليوم الذي لا يعود يرغب فيها يرسلها إلى أمها مع قفة تمر وعنزتين. وهنا في رأسِ ماتيفو، في غرفتي كمدرس مساعد من الأهالي، وعشية التعبئة العامة...».

انحنى عليها.

«لا»، قالت.

كيف لا، فريح الرواية تكنس كل شيء.

ابتعد عنها: «هذه الفتاة، في الحقيقة...».

اخفضت رموشها وغرقت في هاوية. «هذه المرة إن فعلها من جديد...» ولكن لا، لم يتجرأ.

بحثت عنه بعينيها. كان يبدل أماكن الكتب.

– أنت لا تفهم بلقاسم. بالنسبة لك كما بالنسبة لي، مستحيل.

– اسمعي.

تقدمت وشنفت أذنيها. وشوشة بالكاد مفهومة، إنه البحر الذي يتنفس أو أحدهم على الطريق؟

هزّ رأسه وأشعل سيجارة جديدة باللهب المتصاعد من القنديل وتأمل تبدد الدخان.

نهضت:

– سترافقني قليلاً على الطريق.

– كما تشائين.

بدت القرية ميتة. وكشّافات منارة رأس ماتيفو تدور: التماعة طويلة ثم اثنتان وجيزتان. فترد منارة الجزائر: واحدة حمراء وأخرى بيضاء، البحرية والميناء. وكأن القمر سوف يطلع من خلف الجبال.

بعد آخر المنازل يقطعان وادي الجميز فوق جسر حديدي. صحراء سوداء، الهواء لطيف ومثقل بعض الشيء.

«الأضواء التي ترينها هناك هي فورت – دو – لو، لقد حصلوا على الكهرباء».

وتحت التماعات هائلة لبعض النجوم.

– ما اسم هذه؟

– علمني إياها أبي ولكني نسيت، هناك دوار من كل جهة. أعرف أسماء الدوار، أعرف أسماء الأرض ولكني نسيت أسماء السماء.

توقف فجأة: «عربة...».

عربة يجرها حصان مرقّط هزيل كئيب.

ألقى التحية على الرجال المتكدسين وسألهم، فشد السائق الرسن: *أو.. أو.. أو*... لن نتخيل أن يحصل في فرنسا أن يحيي مجهول مجهولين

آخرين موزعاً عليهم البركات ومتبادلاً معهم التمنيات والأسئلة ومتقاسماً معهم كل شيء، الماء والحليب وكعك الشعير، ويتكدسون لكي يفسحوا في المجال من دون أن يسألوا إن كان الحصان قادراً على احتمال المزيد وإذا لم تكن محاور العجلات ستتكسر.

«اصعدي اجلسي، ألن يزعجك أن تجلسي وسط كل هؤلاء العرب؟ يبدو ذلك غريباً بالنسبة إليهم، أوروبية مع رجالٍ منهم وسط الليل. قلت لهم إنني مدرّس، فهم يأتون من دوار الزوزورية يصطحبون ابنهم إلى الجزائر، ويلحق بهم آخرون في عربة يد، حفاة وعلى ظهر الحمار. هذه المرة، نعم...».

أشار لجهة الشمال «أسمعتِ؟».

ماذا يمكن سماع غير ضجيج العجلات على الطريق المليئة بالحفر وصوت الحوافر؟

«يأتون من كل مكان من المدية والبليدة وتشرشيل وموزاية[1]... في منطقة القبائل أنا متأكد من أنهم نزلوا إلى الحصن الوطني».

نحن نضيع، نخلط، لا نعرف. يجب أن تكون لنا حساسية سمعٍ عربية حتى نكتشف انزلاق بنات آوى وهسيس الهواء بين الكروم، تشقق الأرض العطشى والماء الذي يسيل في القنوات. خطوات الشرطة يسهل تمييزها، فهم يحدثون ضجة ما، أما دوس الحيوانات، وخطوة امرأة تذهب لملاقاة حبيبها...

شنّفت أنجيل أذنيها جيداً، لكن لا شيء. ثم شعرت أن شيئاً دفعها جانباً. مم؟ عجيج جماهير غير مرئية؟

(1) المدية والبليدة وتشرشيل وموازية جميعها مناطق في الجزائر.

من كل مكان، باتجاه الروبية والرغاية، وأكثر إلى الجنوب نحو بوفاريك، على كل طرقات الجبال. رأت أخيراً دوراناً مربكاً لعربة نقلٍ مخلعة المقاعد كهذه العربة، وحتى إنها دون قناديل أو إن وجدت فإن شموعها استهلكت منذ وقتٍ طويل، سيوقف رجال الدرك سائقها لمخالفة القوانين. كل هذه العربات البالية المحتشدة بالبرانس، هذا العرق الحقير، هذه الحثالة من العاطلين عن العمل، رواد المحاكم السريعة، احتياط المحكومين، المتمردون، هذه السلعة التي لا تساوي شيئاً، بذور الرعاع التي لا يحق لها الاختلاط مع البذور الفاخرة المختارة، كلها تتوجه نحو مكاتب التجنيد. فهم يسبقون الآخرين الذين سيتأخرون عنهم «يوم التعبئة هو الثاني من أغسطس 1914». الآخرون هم الأجانب المجنسون منذ زمن بعيد، آل غارسيا، فرنانديز، أتيا، مونتيرو، بنيجان، ماهونيون وإيطاليون وإسبان من لقنت، مالطيون، كالابريون، صقليون، ميلانيون، كاستالينيون وأيضاً فرنسيون من آرياج أو فرانش كونتي أو أيضاً المرحّلون القدامى من ثورة 48، المبعدون، رجال إيسِّر وكالارمان أو ماك ماهون الذين هربوا من الألزاس والألمان في العام 1870، الآتون من المنطقة الجنوبية ورُسيون وغاسكونيْ ولانغيدوك وحتى من كانتال، هؤلاء الآتون من كل فرنسا ما عدا الشمال، هناك السهول سوداء وحزينة جداً حتى إنهم لا يقوون على الخروج منها. والآخرون، كل من جرهم البؤس وجذبتهم المغامرة وخدعتهم الدعاية... أو المتفاخرون: «إنها بلاد الوفرة، كل شيء ينبت في الشمس، تعيشون هناك دون جهد، ويكون لديكم خدم...». هؤلاء جميعاً اجتازوا البحر ليصلوا إلى هنا. لقد أخفوا عنهم تماماً الكلام

عن الشلوق[1] والحمى، ولم يخبروهم بعدد من تركوا عظامهم قبلهم. فتحت تأثير كلمة الشمس مشوا مؤمنين بإله جديد. وبعد ذلك تحرر الكثيرون منهم من الوهم ولكن الأغلبية تحمست. سراب غدا حقيقة، كوتهم السماء، شقوا في العمل ولكن الأرض كافأتهم في النهاية، فولد لهم وطن جديد ولغة جديدة استحدثت وضغطت وكثفت كل كلمات المتوسط لتسيل منها نبيذاً ملوناً لذيذاً مطعماً بالكلمات العربية. ولكن هؤلاء كان لديهم الوقت لأنهم مسجلون في البلدية ويخدمون في الجيش الفرنسي. في حين أن أولئك على العربات بمقاعدها الرثة...

في هذه اللحظة كانت يد أنجيل تبحث عن يده.

4

نمت في عين طاية؛ لم أنم جيداً. الكثير من العربات وعويل الكلاب، ومنذ الفجر أناس يتناقشون ويتنادون، وجياد تصهل. في الغرفة المجاورة خطى روبير وهو يتمشى.

نهضت وشربت وماتيلد القهوة في المطبخ. وحشت هي حقيبة ظهر روبير بالخبز الطازج الذي اشترته من الفران، والنقانق الإسبانية وعلب سردين بالطماطم والزبدة المملحة والمعلبة. فكرت في البداية بأن تضع له كل شيء في الحقيبة. «هل تعتقدين أنهم يحملون الحقائب إلى الحرب؟»، قال لها.

عندما دخل إلى غرفة الطعام بالكاد تمتم تحية الصباح. ببنطاله الأحمر الواسع المشدود بزنار أزرق، وصداريه المحشو وقميصه الأسود بلا

(1) الشلوق هي ريح جنوبية شرقية حارة.

أكمام، بدا أطول مما هو. ومع شاربيه وشعره الأحمر الطويل قليلاً بدا بربرياً؛ لابدّ من أنه يشبه أباه في شبابه. هكتور الذي كان قد أفاق أخذ ينظر إليه معجباً. فلكي تكتمل صورة المحارب لا ينقصه سوى البندقية والجعبة التي لا توزع سوى في الثكنات، لأن الرقباء أيضاً يحملونها. ليس هناك سوى المعاونين معفيين كما يبدو.

أمسك روبير هكتور بين ذراعيه ولاعبه على ركبتيه. في النهاية إنه أخوه غير الشقيق، لديهما قواسم مشتركة: الشفتان، الطبع الفظ، طريقتهما بوضع اليدين في الجيوب. أما بالنسبة للأب ولا أي إشارة لليلة السابقة. روبير سيتصرف على سجيته، وسيذهب ليلقي السلام على السيدتين فابر لو شاء، لا أحد يمنعه.

فكرنا بالذهاب لوداعه عند المحطة حيث سيمرّ قطار خاص لنقل الجنود، لكنه أجهض فكرة الوداع. «الأمر أساساً ليس سهلاً، فكيف إذا أضفنا إليه دموع النساء...».

فبمعنى ما، أراد أن يوصل لماتيلد أن دموعها لا تعنيه. ربما ظن أنه سيلتقي أمه الحقيقية في شامبانيْ وقد تزوجت بحارس غابات؟

حمل حقيبة ظهره وعانقناه بحنان وبكت ماتيلد. بكته وبكت نفسها والحرب وابنها ديزيريه في تولون وكل هؤلاء الشباب؟ كل شيء اكتمل أو كاد. علمنا للتو أن المانيا أعلنت الحرب على روسيا. سدت الطرقات وامتلأت الساحة بالحشود، ومثل ديك وقف هكتور بجانب أبيه وأمسك بيده. أمام منزل آل فابر شعرت بأن روبير لم يلتفت حتى. وبعدها غابوا بين الحشد.

عند عاد ديماتون كان الصباح قد قارب على النهاية. انطلق القطار مع

بعض تأخير، وهناك التقى روبير بزميل له، فبالنسبة إليهم إنها عطلة ممددة، والزواويون سوف يركبون السفن أولاً بالطبع.

لم تبدأ ماتيلد تشعر بالفرق إلا قبل الظهر بقليل. في البداية لم يكن شعورها قوياً. فهكتور عادة يذهب ليلعب مع أصدقائه، إذ يسمحون له بذلك في الصباح، ولكن عليه أن يعود وقت الغداء. مدت الطاولة، وفجأة بدت كمن دبّ فيها حريق، خرجت إلى عتبة الباب وأرسلت زوجها إلى الساحة حيث كان ما يزال هناك تجمعات. وتقدمت هي تبحث في كل الاتجاهات، وفجأة تركتني وركضت تصرخ بين الحشود: «هكتور، هكتور...».

الفصل الرابع
هكتور

هكتور يسأل من هو أبوه؟ وابنة خالته مارغريت هي شغفه الخفيّ المدمر.

1

يعتبرونني طفلاً، مخطئون، فأنا كبير، حتى إن الناس يحسبونني في العاشرة. وفي مثل هذا العمر نكون أشخاصاً مهمين. عالمهم هو العادي، المرئي، إلا حين يقفلون على أنفسهم. أما عالمي فعالم أشجار القصب وكل الحيوانات التي تعيش هنا. مع حامد وحسن نلعب كل أنواع اللعب، علمتهم التصويب بالبندقية، بندقية مزيفة بالطبع، بيد أنني أعرف البنادق الحقيقية، وسأتدبر الأمر ليعيرونني بندقية لاصطياد العصافير.

نلعب غالباً بالطائرات الورقية، وقد صنعت طائرات كبيرة منها بهياكل خفيفة وأوراق ملونة. إنها بالأحرى أسماك طائرة مربوطة بالخيطان في بحر السماء أو أنها عصافير الأحلام. وعلى امتداد أيامٍ كاملة نتسلى بأن نحسب أنفسنا نحن العالقون بأطراف هذه الخيوط، مادين أذرعنا للشمس مع ذيل يقاوم ويخفق، أو جواداً يشق الهواء بصدره وعرفه، مع ذيلٍ طويل لصيد النجوم.

حامد وحسان علماني التمييز بين أنواع النمل، هناك الكثير منها بأشكالٍ مختلفة منحناها وظائف البشر: الشرطيون، سرّاقات الحبوب، سرّاقات فتات الخبز، آكلات لحم البشر، آكلات الجيف، الراكضات التي

لا تفعل شيئاً، فقط تركض. أعرف أيضاً كيف أكتشف أعشاش الخضيري، والتهام بيضها أو مراقبة صغارها في داخلها. جميعنا نحن الثلاثة، أنا وحامد وحسن، ننام في الأسيجة، نتجسس، نلصق أذاننا بالأرض ونستمع. في غرفتي أشم الروائح من تحت الباب وأتخيل ما يقوله الكبار وما يفعلونه. أنا مضطر للتخيل لأني أكاد لا أسمع شيئاً أو أسمع التأوهات، يؤذون بعضهم كأنهم يفعلون ذلك للتسلية، يحبون ذلك، فإن شكوا الآن لا يبقى من شكواهم شيء لاحقاً، فعندما أراهم لا يبدو عليهم العذاب، ربما كانوا يشاهدون شيئاً ما معاً ولكن ما هو؟

الرجال نعرفهم. فهم أقوياء صاخبون وأقل مكراً مما نظن، ما عدا العرب الذين يراقبون دائماً وينصتون مثلنا. بالنسبة إلى النساء الأمر أكثر صعوبة فهن يقرأن الأفكار. النساء جزء من الأسرار، مع أجسادهن التي تهبط واطئة وسيقانهن القصيرة التي لا تبدو أنها تزعجهن. صدورهن؟ لقد رأيت أمهات يرضّعن. فهن لديهن أثداء كأثداء الماعز ولكن أصغر بقليل، كما نتخيلها حتى وهي مخبأة. يمضين أوقاتهن بإخفاء كل شيء ما عدا الوجه وأيضاً مع الحجاب. النساء العرب: الكثير من الخرق والأكياس المحشوة ما عدا عايشة التي تعمل في المنزل ولديها ساقان. ولكنهن لا يتشابهن جميعاً، كما أنهن يتبدلن: في الصباح يكنّ في حال، وفي المساء في حال أخرى.

كان حسن صاحب الفكرة، عندما التقيته لدى عودتي من المحطة هو وحامد، قال لي: «ماذا لو ذهبنا إلى الحرب؟...».

فقلت لحسن: «معك حق، علينا أن نثبت لهم...».

سكت حامد مع أنها واضحة، إنها الحقيقة. حاولت هزّه:

«ما بك أنت، أأنت خائف مثلاً؟».

هز حامد رأسه: هو لا يملك المال. نظرت إليه بشفقة.

– سنجد المال، سنسرقه. إلى كم تحتاج؟ هل هذا سيمنعك من أن تتسلى؟ سنتسلل في كل مكان ولن يتنبه لنا أحد. إن أردت سنذهب نحن الثلاثة، وإن لا نحن الاثنان، أنا وحسن.

– سآتي.

لن نصعد القطار فهناك الكثير من الناس الذين قد يتعرفون علينا كما أنه يلزمنا بطاقات. ماذا نفعل إذن؟

«أنتما تعرفان كيف نذهب إلى هناك. في الجزائر سنقرر».

وبهدف إثارتهما صرخت: النصر لبلادنا الخالدة فرنسا!... شبكنا الأيدي والأصابع كالكبار. حسن لعب قليلاً دور القائد فنظرت إليه بحزم: «ليس هناك شيء كهذا بيننا، ولا شيء من هذا عندما أتكلم عن فرنسا... فأنتم من السكان الأصليين أصطحبكم إلى النصر...».

فرنسا، لا يحق لهم أن يمسوها، فهي لي أكثر مما هي لهم.

«ما الذي لنا؟»، سأل حامد.

لهم أشجار القصب والتين والشلوق والدجاج والبيض والغنم والأكواخ والجبل والدراجات التي بدأوا باقتنائها. الكروم لا، إنها لنا وكذلك البيوت والمدارس والقطارات والسيارات، كما الكسّارات والثيران والنساء. لا تملك نساؤهم الفساتين السود مثلنا. هن بفساتينهن الملونة وكأنهن زهور تمشي على قدمين. وبالنسبة للنمل، رجال الشرطة هم نحن، والسارقات والآكلات هم. أنا أعرف البزات العسكرية، ولا

أجد صعوبة في التمييز بين الزواويين والمشاة لكنني أخلط ما بين المدفعيين والخيالة والمهندسين العسكريين. من خلال الأزرار، لون الشارات والياقة وطريقة ارتداء الطربوش وما يعلوها من شرائط، فقد تعلمت وبتّ أعرف.

نحتاج إلى قائد.

«إلى الأمام، اتبعاني».

تسللنا بين مجموعة ولم يتنبه لنا أحد، فقط واحد:

– هل تذهبون إلى الحرب أيها الأطفال؟

– نعم.

– أحسنتم.

– وضحك، لماذا؟

لا يمكن لحسن وحامد أن يقودا. نحن أخوة وأصدقاء، يعلمانني أشياء ولكن صغيرة، أشياء حميمة. الأشياء الكبيرة مسؤوليتي أنا. في الصف أعرف أكثر منهم. هم محظوظون، فالكثير من أولاد السكان الأصليين يبقون في أكواخهم يلعبون بالحصى أو يحرسون الماعز، هم يأتون إلى الصف ولكن دائما هناك من يغيب لأن هناك دائماً من هو مريض بينهم أو لأسبابٍ أخرى. أتكلم بشكل أفضل منهم وأحفظ دروسي بصورة أفضل، وأفهم أيضاً أحسن منهم، وذلك طبيعي فوالدي هو مدير المدرسة.

– ليس والدك، قال حسن، اسم عائلتك غير اسم عائلته.

– هذا لا يخصك يا عزيزي.

إنه ليس أبي؟ إذن من يكون؟ وهل يتخيلون أن أبي هو والد ديزيريه، الرجل الذي لم أره يوماً والذي توفي، أين يقع قبره؟ عندما يموت الإنسان

يحملونه إلى المقبرة ويكون له مكان خاص باسمه وصليب ولوحة رخامية، أو بالنسبة للأغنياء مزار صغير. لكانت أصطحبتني أمي إلى هناك وقالت لي «ها هو والدك، فهو يسهر عليك». لا بل تقول لي العكس تماماً: «اسمع أباك، أطِع أباك، عانق أباك...». أبي بشاربيه الكبيرين وقبعته وساعته وطبعه الصارم، ولكن بالنسبة لي عيناه تضحكان دائماً ما عدا عندما يأتي لزيارة الصف، حيث يتصرف وكأنه لا يعرفني، وأنا أعامله كمدير، أخفض رأسي، يقرأ في دفاتري ويصحّح، فهو يخيف الجميع، ما عداي. لا أحمل اسمه، وماذا إذن؟ في التعليم الديني، يروي لنا الكاهن أن الربّ هو أبونا، لا بل نحن نردد الصلاة التي تبدأ بـ «أبانا»، وهل يمكن تسمية أحد بالرب؟ عندما أكون في حضن أبي يدعوني بني. وإن ناديته «بابا» فإنه يرد. والدليل هو أنه في المجموعة التي نحن فيها، قال أحدهم مشيراً لي:

«الكبير، هذا، هذا هو ابن المدير».

في البداية وقفت منتصباً «الكبير...»، ثم نظرت إلى حسن الذي جذبني من بنطالي:

«أسمعت من هو أبي؟»».

الأمر الجيد عندما لا نكون برفقة أهلنا هو أنه يصبح بإمكاننا التكلم على هوانا والقيام بالحركات التي نريدها، فبحضورهم يتوجّب علينا الانتباه دائماً. أحياناً نظن أننا نستعمل الكلمات المناسبة ونردد كلماتهم هم. لا حظ لنا مع هذه الكلمات: ما لا يلزم. يبدو أنه لا يحق لنا والكلمات في فمنا لا تعني الأمر نفسه. «أين تعلمت هذا، أيها الولد الشيطان؟»، أنت

من قالها بالأمس. «أنا لي الحق...»
ما عدنا نعرف شيئاً.

عندما رأى الرجال الذين كنا معهم حركتي ضحكوا. فهذا لا يصدمهم، ولكن لماذا؟ فهم من علمونا هذا. في البيت ما كنت لأتجرأ. لدي شعور بأن ما أفعله هو شيء لا يجب أن يقوم به الصغار كما يقولون، ولا يناسب عمرهم، والذي يعود لسر الاكتشاف، والذي على أية حال لا يجب أن نكشفه للأهل. هنا وصلنا إلى الحدود. «هؤلاء رجال»، قال الرجل.

أعرف هذا الرجل: إنه ابن الفران سانتيس. لكزت حسن بكوعه:

– أسمعت؟

– وإن يكن؟ ألم تكن تعرف بأننا رجال؟

قلت لسانتيس: «صديقاي عربيان ويريدان المشاركة معي».

ضحك مرة أخرى: «إذن سيأكلون لحم الخنزير مثلنا».

نظر إليهم حسن وأعاد الحركة. خذ! مثل الصبيان لنثبت أننا رجال. على أية حال هذا ما قالوه لنا.

– أوه، قال سانتيس لرجل جالسٍ بقربه، إنهم لفطنون هؤلاء.

– لماذ؟ سألت، هل تحسبوننا أطفال شارع؟

بالنسبة إلينا، الشتيمة الأسوأ: الأولاد الرضّع، القاصرون، الملائكة، الساروفيم[1]، المغفلون ذوو المصاصات، الحمقى، التافهون.

ولكي أغيظ سنتيس صرخت:

(1) ساروفيم: الطبقة الأولى من الملائكة في الديانة المسيحية.

النصر لبلدنا الخالدة فرنسا
النصر لمن ماتوا من أجلها...

«أين تعلمت هذا؟»، قال سنتيس، «في المدرسة؟ وهل تعتقد أننا راغبون في الموت؟ تمهّل قليلاً وستبدل رأيك».

دائماً الكلمة نفسها.

– وأنت حسن؟ قلت له.

– أنا أفكر مثلك.

– باستثناء أنك من «البيكو». ماذا ستصبح بعد ذلك؟

لا يعرف، ناطوراً؟ شرطياً؟ لم أر قبلاً رجال شرطة من السكان الأصليين. كيف سيمكنهم جرّ أخوانهم إلى السجن؟ السجن لهم أصلاً.

– وأنت حامد؟

– أنا مستشار بلدي مثل أبي.

وكأنهم مستشارون بلديون أباً عن جد. لقد انتهى ذلك يا صديقي. منذ العام 1789 بتنا نعمل لنكون. أنا أيضاً قد أصبح مدير مدرسة مثل أبي ولكن عليّ اجتياز الامتحانات قبل ذلك. نظرت إليهما بازدراء. سأكتب: *النصر لبلدنا الخالد فرنسا*... في النهاية ليس هذا بما أنه وارد في الكتب. ولكنه شيء من هذا القبيل.

في كاتر شيمون، انعطفنا يساراً إلى رأس ماتيفو. تخطّتنا عربات ملأى بالناس. قال سانتيس إننا لن نصل قبل الليل، وإننا سنتوقف في فورت– دو – لو لكي نتناول الطعام. تعثر حامد بحفرة. ماذا سيحصل عندما سيحمل الحقيبة على ظهره والبندقية على كتفه؟ لا نستطيع من هنا رؤية الشاطئ،

الطريق تمتد وسط الكروم ويمكننا أن نتوقع أين تنتهي الصخور، مثل هاوية أو فراغ وبعدها السماء والبحر... «فكتور هيغو»، قال سنتيس، «كان قوياً لكنه ترك الحرب للآخرين. أما هو فكان حامل الريشة».

هززت كتفي: «كان صغيراً جداً لما اندلعت الحرب وبعدها غدا مسناً جداً».

سألني عن عمري. عمر البلوغ. ليس بعد ولكن قريباً جداً. «لا يمكننا أن نقوى على القدر يا صغيري».

لم أرد على هذا الأبله الذي يبدو مجبراً على مناداتي «الصغير» فقط لإذلالي. وفجأة، سألني أيضاً إن كانت أمي تعرف أننا ذاهبون.

– بالطبع هي تعرف، وقد تركتني أفعل ذلك. «الحرب ليست من اختصاص النساء»، قال أخي روبير.

– لأن روبير هو أخوك؟ قال حسن. فهو لا يحمل اسم عائلتك. أبوك لو فرضنا أن... يبدو أنه كان متزوجاً بأخرى.

– اسمع حسن، من أي بلد هم العرب؟

– من فرنسا.

أرأيت. فأنت لا تحمل اسم عائلتي ورغم ذلك أنت أخي. وروبير أيضاً لا يحمل نفس اسم عائلتي. أبوه هو أبي.

حينئذ فكرت بأمي، ستبحث عني. إن ذهبت للحرب سوف أرحل عنك، لا بأس لو بكيت. لقد بكيت عندما ذهبنا إلى المحطة مع روبير، وروبير ليس ابنك. فقد علمونا ذلك في المدرسة: عندما يكون المرء رجلاً عليه أن يتخلى عن كل شيء دفاعاً عن وطنه. الدموع هي النبع الخفي للنساء، السر الذي بالكاد يكشفن عنه ليقلن إن هناك نبعاً آخر يسيل منه ما

يحرق وما يداوي. أعرف هذا كله.

كالعادة، عليّ تعيلمهم كل شيء. في الخيمة[1]، تحت ستائرها الذهبية والمقفلة بالمفتاح أمام النجمة الحمراء التي تلمع في كنيستي أنا الخاصة، ماذا هناك؟ عليكم أن تعرفوا، فأنا لا أتوقف عن الطلب منكم أن تأتي ولكنكم تجيبون دائماً: لا يمكننا، هي في الجزائر ومن ثم تكملون حديثكم. ما زلتم غير قادرين على معرفة من تكون؟

عندما جاءت إلى المزرعة غدا كل شيء مختلفاً. كنت أضجر كثيراً مع خالي ومع مفتاح، إذ أنظر معظم الوقت إلى الأرض والحيوانات والماء الذي يسيل من الحوض في اليوم الذي نروي فيه الحديقة وشجر البرتقال، الماء الذي يركض ولا يطيع ويفيض ويذهب حيث لا يجب. مفتاح لديه أولاد ولكنهم لا يريدونني أن ألعب معهم.

دللت مارغريت على المكان الذي تذهب إليه الأرانب في المساء بين العشب، والكروم حيث العنب الأبيض والأسود، وأسمعتها صوت النبيذ الذي يقبق في الخوابي، فتيل الكبريت الذي نشعله في القناني، كيف تسرق الجياد التبن من جاراتها، الأبقار التي تدّعي أنها تأكل في حين أنها تنام فوق فراشها التبني بعيداً عن معلفها، وكيف نقتلع زهرة التين البربري، علينا الحذر من الشوك، رائحة العجلات التي تنتشر على طول الطريق، كيف يتفتح الرمان، أول التين الذي ينضج بالقرب من السرو، أذقتها البرتقال المرّ الذي يخصص للمربيات، البرتقال اليوسفي الأخضر،

(1) الخيمة وهنا يقصد الخيمة اليهودية التي أمر الرب بها موسى، حسب الرواية اليهودية، وهي خيمة جمعت المقدس عند اليهود، وتمثل ما ينبغي أن يكون عليه المعبد الاسرائيلي، وبها تابوت العهد والمذابح والمبخرة والمائدة وغيرها.

أعلمتها بمكان الفونوغراف، تصفحنا معاً فهرس الصياد الفرنسي، حلمنا بكل ما يمكننا فعله، جلست معي على مقاعد سيارة الطبيب، للجلد رائحة طيبة كرائحة الزيت. ولو سمحوا لي لقدت السيارة فأنا أعرف أين هي دواسة البنزين والمكابح وكيف ندير المحرك. وعند المساء، نجلس معاً في الغرفة نفسها نتكلم وننام ونفيق ونذهب لرؤية سيزار وبعدها مباشرة، أكبر العجائب مع نجومها الزرقاء، زهرة الآلام: أخت جدي التي كانت تحب العرب وتغني أغنية الحصان وماتت مع سرها.

عندما تركت المزرعة مع أمي لنلتحق بأبي، ذهبت مارغريت مع أمها إلى الجزائر ولم نلتق ثانية. عدت وحيداً، لم يفهموا هم، لقد اشتقت للمزرعة. كل هذا حكيته لحسن وحامد وبات حسن يطلب مني كل يوم رواية كل شيء. قلت له إن مارغريت شقراء وإنك ترى السماء عندما تنظر إليك، وعندما تكلمك كصوت الهواء في الخطوط عندما نلصق آذاننا بأعمدة التلغراف.

في أحد أيام جاءت أمها واصطحبتها، فأصابتني الحمى وبدأت أرتعش فاستدعوا الطبيب. بعدها عادت. كنت مختبئاً خلف الناعورة حيث ينبت النعناع بالقرب من الحوض، بانتظار شيء ما، منطوياً على نفسي، وإذ بصدري يخفق ويفيض نهر دموعي، كانت تلك المرة الوحيدة. في الوقت ذاته كنت سعيداً. وجدتني مارغريت وسألتني عما بي. لا شيء.

جفت دموعي.

2

«أيها الأولاد»، قال سنتيس، «شيء جميل كل هذا. عليكم أن تعودوا».

فرددت له أننا ذاهبون إلى الجزائر مع فرقة الزواويين حيث كان أخي نقيباً: «نعرف نعرف، أنت سيأخذونك أما البقية فلا، ليس هناك سكان أصليون بين الزواويين».

إذن إلى ثكنة مقاتلي أفريقيا، بالقرب من ساحة العمال. أعرف كيف نهدئ الجياد وكيف نسرجها فخالي كان يركبني دائماً على ظهر حصانه العربي.

«لدى قناصو أفريقيا أيضاً لا يدمجون. ولدى السباهيون[1] عليك أن تكون ضابطاً مساعداً أو على الأقل عميداً. أما كعسكريين عاديين، فتنعكس الآية، ليس هناك سوى «البيكو»».

أغضبني ذلك، فقررت أن نلتحق بسلاح المدفعية في حسين داي. هناك يوجد فرنسيون وعرب، فخالي فكتور أدى خدمته هناك.

«سلاح المدفعية ربما»، قال سنتيس، «لن تكونوا معاً أنت وصديقاك، ما عدا في اللحظة التي تطلق فيها المدافع. فهم سيخرجون القنابل من الصناديق. ثم أنكم لن تناموا في المكان نفسه».

خطرت لي فكرة. لم نكن مجبرين على الإفصاح على أن حسن وحامد من السكان الأصليين. «ستخلعان الطربوش وهكذا نبقى معاً».

نزع حسن طربوشه مباشرة ووضعه تحت قميصه، في حزام بنطاله.

---

(1) Spahis هم العسكريون العاملون مع الفرنسيين من أهل المغرب العربي (المغرب والجزائر وتونس).

أطرق حامد رأسه. «ماذا تنتظر؟ سأله حسان، هيا اخلعه».

لم يكن يريد لأسباب دينية وصار يتباكى.

«ماذا يفعل لك الطربوش أيها الأبله؟»، قال له حسن، «هيا، انظر!».

أخرج الطربوش من تحت قميصه ورماه بين الكروم. فشتمه حامد بالعربية.

هدأت حسن وقلت لحامد: «أنت تعرف بلقاسم، أستاذ رأس ماتيفو الذي يزور أبي دائماً. إنه من السكان الأصليين ومسلم. إنه أذكى منك. هل رأيته مرة بالطربوش؟ أبداً. إذ ما السيء في ذلك؟».

قال لي سنتيس: «حتى دون الطرابيش، وهل تظن أنهم لن يعرفوا أنهم من الماعز؟».

ضحك زملاء سينتيس. نظرت إلى حسن وحامد، وحتى دون طرابيش لا يمكن أن نخطئهم: اللون، العيون الحادقة السواد، وبالنسبة لحامد الشعر الذي ينسدل على الجبهة... ولكن ليس من أجل هذا يضحكون. فهم يفكرون بأمر آخر. عندما نمر عراة بالكامل، فإن مستشار المراقبة والقادة يفحصونكم ويتلمسونكم في كل مكان كما يبدو.

توقف تقريباً حامد عن البكاء، وقد واصلنا النقاش في ما بيننا، وذهب الآخرون. «اسمع، قلت له، لن يكون لدينا الوقت، علينا أن نتركك».

فألقى حسن بوجهه الشتيمة الأكبر: «اذهب وارضع حليب أمك، أيها القاصر».

بصق في وجهه ومشينا نحن الاثنان متعجلين لأن الآخرين قد سبقوننا.

سكن الهواء أو أن أشجار القصب التي مررنا بها حجبت عنا الهواء،

شعرت بالحرّ، نظرت خلفي فرأيت حامد يهرب راكضاً وبدا حسن شارداً يفكر.

– عندما ستصبح أنت جنرالاً، ماذا أكون أنا؟

– سأعطيك ميدالية.

– هل سأصبح ربما ملازماً مع حصان؟

– لا.

– لماذا؟

– لأنك لست فرنسياً.

– سأصبح فرنسياً بما أنني خلعت الطربوش.

– ألم تسمع سانتيس؟ لا يمكنك.

– وإن تعلمت؟ فأبي حارب من أجل فرنسا في تونكين[1].

– وماذا شغل أبوك؟

– وكيل عريف في البحرية.

هززت كتفي. «القادة هم نحن».

صمت.

فور – دو – لو: طريق طويلة مستقيمة تنتشر على جوانبها الدكاكين، جافة دون أشجار الجميز. نظرنا بحثاً عن سينتيس والآخرين. مررنا بمقهى، ليسوا هنا أيضاً. قفز بلقاسم أمامنا. «هكتور إلى أين انت ذاهب؟».

ترددت ثم أخبرته.

(1) Tonkin مدينة فيتنامية، حكمها الفرنسيون بعد الحرب الفرنسية الصينية (1881–1885).

«وهل أذن لك أبوك بذلك؟».

لم أجب. أبي، أبي، لا يمكنني أن أفعل شيئاً من دون إذن أبي؟ استجوب بلقاسم حسن ثم أخذنا إلى إحدى الطاولات حيث كان جالساً مع إحدى الفتيات وشرح لها من نكون.

فعانقتني الفتاة.

«سمعت عنك. أمك هي قريبة أمي».

وصفق بيديه للنادل وطلب الليموناضة والخبز والجبن.

شعرت أن كل شيء انتهى، كنت حزيناً.

وهكذا وجدناهما في المحطة، هو وابن الماعز، وقد اصطحبهما بلقاسم وأنجيل، في القطار الآتي من الجزائر، في حين كنت أنا، ماري كورنيتو، أنتظر للعودة إلى الجزائر.

أخذت ماتيلد هكتور بين ذراعيها فيما بدا ديماتون حازماً.

«لكما أن تفتخرا به».

ولكنه يرى كل شيء بطريقته وقد حكى لنا القصة بحسب منظوره.

شعرت بالصدمة لرؤية أنجيل تظهر هنا علنيةً في حين تقرر زواجها من فكتور.

«سنذهب معك»، قالت أنجيل، «بلقاسم يريد الذهاب إلى مكتب التجنيد».

ثم أخبرتنا أن الكولونيل غرييه توفي.

وإذا بكل شيء يتغير. فارقتنا السعادة[1]

(1)

الجزء الثالث

الأرواح المحرّمة

الربّ ينجيك من فخّ الصياد ومن عاقبة السقوط في المهاوي...
تطأ الصلّ والأفعى، وتدوس الشبل والتنين.

المزامير 91، 3، 13

الفصل الأول
العرض

الرابع من مايو 1930، الجزائر تحتفل بالمئوية الأولى للحملة.
الملازم هكتور كونيغ يعلم أن قريبته مارغريت تزوجت من حسن.

1

صباحاً، كأنما بفعل مصادفة، سكن الهواء فجأة في اللحظة التي غادر فيها الرئيس الطراد دوكيشن. بين حراسه الواقفين (أميرال مع مسحة بالكاد ظاهرة من التعالي والصدر مخفي بوشاح حريري، ونقيب بحرية بكتفيات ونياشين مذهبة وبحار مسلح برمح). كان رئيس الجمهورية متوارياً خلف العلم. وإلى جانبه نائب الجزائر ووزير البريد والاتصالات

بقبعته الجيبوس[1]. وفي الجهة المقابلة الحاكم بقبعة مريّشة وملابس مزخرفة، والمارشال الصغير فرانشي ديسبري بهيئته المتجهمة تحت قبعته العسكرية بثلاث صفوف من أوراق السنديان. وداخل المقصورة مجموعة من الشيوخ الملتحين المتمسكين بالدرابزين بقفازاتهم البيض، غير قادرين على المحافظة على توازنهم على سطح السفينة.

ثم بدأت الحفلة على بغتة: ضربات مدفعية، ومجموعة تلعب «في الحقول»[2]، أوامر، قرع صولجانات وخطب لا نسمعها جيداً لأن أسراب الطائرات الحربية تحلق على ارتفاع منخفض فوق قناطر إمارة البحر. وأخيراً الموكب: خيالة وعربات، وقع الحوافر على البلاطات، رنين السيوف، رائحة الروث وقطران أحواض المرفأ والشمس التي بدأت فجأة تكون حادة، لن نستغرق برواية كل ذلك.

بالنسبة إلى الواصلين الجدد، مشهد الأرصفة والجادات والجوامع والقصبة[3] التي أعيد طلاؤها جزئياً، وكل القبب التي نصعد باتجاهها تحت غطاء من الشمس الباهرة، كان صادماً. تخيلوا إذن: الرابع من مايو 1930، مئة عام بعد أن أشرف ولي العهد الفرنسي على الحملة العسكرية للجنرال دو بورمون والأميرال دوبريه انتقاماً من إهانة المروحة... لإحياء ذكرى هذا الانتصار، زينة في كل المدينة، سرب طائرات من تولون،

(1) Gibus قبعة عالية باسم مخترعها عام 1823.

(2) «في الحقول» أو بالفرنسية «Aux champs» وهي أكثر أعمال الكاتب الفرنسي غي دو موبسان (Guy de Maupassant) شهرة.

(3) قصبة الجزائر وهي قسم من مدينة الجزائر أو المدينة القديمة ورغم أنه يوجد في عديد من مدن المغرب العربي قصبة يضاف إليها اسم المدينة إشارة إلى الجزء القديم من المدينة، أما قصبة الجزائر هي الوحيدة التي تدعى قصبة دون إضافة اسم المدينة المدينة كأن يقال «قصبة القسنطينة»، غير أن قصبة.

والموسيقى العسكرية والأجراس ورشقات المدفعية، رئيس الجمهورية والوزراء مع حاشيتهم، ففي يوم أحد عند الثامنة صباحاً في اللحظة التي سطعت فيها الشمس وجفت الجدران والرؤوس من زخة مطر غزيرة وثقيلة، مع الأعلام وبرانس السباهيين والباش آغوات الحمر وألحان البوق والدوق أورليانز مصافحاً بسيفه من فوق حصانه البرونزي، أحياء باب الواد وبلكور المحتشدة في أرصفتها وتحت القناطر ومسّاحي الأحذية مع صناديقهم المشمعة خلف حاجز الفرق العسكرية...

بعض التصفيق وبعض النسوة الهاتفات، ورئيس الجمهورية يحيي الحشود بقبعته العالية البراقة[1]: سينتهي به الأمر مريضاً لأنه أصلع. وبسرعة شديدة، زيارة لمقر المحافظة، إكليل ورد على نصب الموتى الجديد، تقليد وسام جوقة الشرف للحاكم والغداء في القصر الصيفي. ثم ودون أي استراحة، وبسرعة خاطفة زيارة للمتحف الجديد للفنون الجميلة الواقع على الهضبة مع مخطط للتشجير وروضة جاردين ديسي. ما عاد هناك وقت للإثارة، تنقصكم الكلمات، أليس كذلك؟ مؤسسة باستير[2] وأخيراً ميدان سباق الخروب.

هناك، ومنذ الظهر كانت فرق جيش أفريقيا تنتظر بلباسها الموحد وحقيبة خفيفة على الظهر، وأحزمة البنادق بلباسهم الأبيض الكلسي، الأحذية منظفة والنياشين معلقة لمن يملكها.

(1) تسمى بالفرنسية huit-reflets وهي قبعة حريرية عالية ولامعة جداً بحيث يمكن أن نميز فيها ثمانية انعكسات ضوئية.

(2) Institut Pasteur هي مؤسسة فرنسية خاصة لا ربحية مخصصة للدراسات البيولوجية والجراثيم والأمراض واللقاحات، أسست في العام 1887 وحملت اسم مؤسسها لويس باستور أول من وضع اللقاح ضد داء الكلب. وقد أسست عدة فروع في العالم ومنها في الجزائر.

عشرون ألف رجلٍ مكدسون على الطرقات تحت أشجار الكينا بعناقيدها وأوراقها الجامدة: ألسنة كلاب طويلة لامعة. والحشد محشور فوق العشب وفي ميدان السباق وعلى كل منافذ الطرقات التي تؤدي إلى حسين داي وحديقة جاردان ديسيه وحتى الشاطئ الذي كان عليهم إحاطته بالحواجز.

وفي الأثناء، تابع السكان الأصليون قيادة عربات الترام أو الحافلات أو العمل كحمّالين بالأجرة أو بقوا في بيوتهم. فقد ترددوا في إشراكهم بالاحتفال فهو ليس يوم نصرٍ بالنسبة إليهم. بيد أن بعضهم تسلل بين الجماهير الهائجة مراقباً ما يجري بشيء من السخرية الحذرة، وهناك على المنصة الرسمية عصبة من الزعماء بالغنور[1] والعمامات.

بدأ الحشد يفقد نظاميته بعد ثلاث ساعات من الجلد تحت الشمس. وبدأ الناس يتشاركون مطرات الماء التي سخنت. أما ضباط الصف فكانوا يختنقون من الحر في لباسهم الخمري.

في البداية طلب الكولونيل استلال السيوف والحراب، ولكن بعد ذلك وكونه لم يأتِ أحد فقد اضطر لوقف ذلك منعاً للحوادث. رائحة بشعة تعف من المكان.

من وقت لآخر، كان النقيب الذي يقود السرية الثانية يعود إلى منصته القديمة المتهالكة ويحدج مجموعته بنظرة غاضبة، في حين، وخلفه مباشرة، يكمل الملازم الحديث والثرثرة. عندما نكون منذ وقت طويل واقفين في

(1) الغنوّر أو كما جاءت بالفرنسية Guennour وهي لباس السباهيين، أي فرقة الجزائريين العاملين مع الجيش الفرنسي في إطار جيش أفريقيا.

طابور الكتيبة، ونجد أنفسنا محشورين مع اثني عشر رجلاً، ما ضرورة أن نبقى جامدين ساكتين؟ يتحرك ويتبادل المزاح مع قادة الأقسام الأخرى: إنه الملازم بن طاهر من السكان الأصليين، هادئ الأعصاب. والمعاون فرايزر يبدو مفتخراً بنفسه رغم أنه لا يحمل سوى سيف مقوس[1]، والملازم هكتور كونيغ.

كونيغ، حالم بالكامل، مسحوق...

– أأنت بخير؟

– نعم نعم سيدي الملازم أول.

– أهي سهرة الأمس؟...

2

ما زلت حتى الآن ترفض. مع كل نزول إلى البليدة أو مع كل خطوة خلال المناورات:

«إلى هنا، أيها الضباط»، يصرخ النقيب مالاسيس، قائداً فرقة المدفع الرشاش، وجه كلب عريض محتقن، بعين متيقظة حذرة، وشاربان أحمران قصيران، خدان ممتلئان، خُصيلة وبر قصيرة على ذقنه الحليقة جيداً، وعندما يرفع قبعته الأنيقة، يظهر جرح بليغ على الجبهة، أهو من ضربة سيفٍ؟ فقد خدم في تونكين ويتحدث عن أسماءٍ غريبة: «عندما كنت قائد منطقةٍ في فين–ين... في اليوم الذي وصلنا فيه كاوبانغ عند الحدود مع الصين...» يحكي عن الأدغال وعن اشجارٍ عملاقة. هل تلقى ضربة من فأس الأدغال؟ لقد بقي منه بعض أثارٍ، لا يبدو أن الجرح يؤثر عليه، إنه

(1) يعني سيف خيالة.

دموي جداً هذا الرجل.

يقهقهون ويجتمعون حوله. أنت تعرف ماذا سيقول وستدّعي عدم الفهم، سيعيد عليك الكلام لأنك طالب مدرسة إكليريكية قديم، يجب دفعك قليلاً كي تصبح على شاكلة الآخرين، لينمو في داخلك ضابط حقيقي من «جيش أفريقيا والهند» كما يقول. وعندما يكون الجميع هنا، وبمن فيهم بن طاهر، الظابط الوحيد من السكان الأصليين في الكتيبة، يرفع مالاسيس الضخم يده: «هيا الموسيقى!...».

إذن وبخجل وارتباك وتهذيب:

– أعذرني سيدي النقيب.

– ألن تشاركنا كونيغ؟ ألن تكمل اعترافك ومناولتك. هيا افعلها يا عزيزي افعلها وصلّ من أجلنا....

بالأمس، اتخذ الملازم كونيغ القرار. أكان ذلك بدافع الإرهاق النفسي؟ الضعف؟ وتبع الضباط. لم يصدق مالاسيس عينيه.

«ماذا أرى، ماذا أرى؟ علينا أن نحتفل بهذا...».

بعد أربعين كيلومتراً، وخلال الاستراحة الطويلة في وادي جمعة قبل سيدي موسى، مروا بمحطة الكينا. كان الملازم كونيغ ليرغب في أن ينعطفوا هناك لكي يستعيد ذكريات السرو والحوض ومفتاح والجدة في المقبرة، وبنات آوى في الليل وحركة الفئران في العلية. ومارغريت...

لم يكن قد علم بذلك بعد خلال الاستراحة الطويلة، لم يعلم سوى في المعسكر عند توزيع البريد وفي رسالة من أمه: ما لا يصدق، الصدمة، الكراهية.

ولكي أشرح لكم كيف نحتفل بمروركم سيدي رئيس الجمهورية، فقد قرر الملازم هكتور كونيغ وبعد قراءة الرسالة أن يتبع ضباط كتيبة المدية إلى ماخور بالقرب من فندق ميزان كاريه مع هبوط الليل.

حانة مقفلة الشبابيك حيث يصدح مكبر الصوت بأعلى ما يمكن هادراً بأغنية رائجة:

حدثني عن الحب...

تلاصقنا على كراسي حول طاولة رخامية لم تنظف جيداً. نادى مالاسيس برأسه القرصاني صاحبة الماخور:

«برنود[1] للجميع طبعاً... وهيا فلنغنّ معاً!»، قال متابعاً الإيقاع.

قل لي مرة أخرى أشياء رقيقة...

معاونان من الزواويين ثملان في الجهة الأخرى، أضواء تخشيبة حقيرة وصورة كبيرة لواحة مع نخيل ورصيف فارغ. ماذا تعرف عن الحب يا صغيري؟ حبك انت كالمقاتلين دون حرب والبدو دون صحراء والقساوسة دون الرب.

«أين هن الفتيات؟»، سأل مالاسيس.

أشارت المسؤولة إلى السقف «إنهن يعملن».

«والمجندون؟».

اشمئزاز. أوه! ليس بهذا السوء. يقولون إنه بمناسبة الذكرى المئوية أرسلوا إلى الجزائر شاحنات ملأى بفتيات من ضواحي سانت دينيس وليون ومرسيليا تنكرن بلباس جزائريات لشدّ عزيمة القصبة. تخيل هذا التدفق من الفرق العسكرية والسياح! فلو أراد هؤلاء السادة من الوزراء والنواب أن

(1) برنود pernod هو البستيس أي المشروب الكحولي المعطر باليانسون.

يتذوقوا السحر الأكزوتيكي... وشائح خضر أو زهرية. سراويل فضفاضة مع سترات. عاهرات حقيقيات يضعن أحزمة نابوليون.

«تعالي يا حبيبتي...».

وأجلس إحداهن على ركبتيه مداعباً صدرها بكفه الكبيرة المنتفخة.

«من أين تأتين أنت؟ من البرواقية؟».

نحن نعرف تلك البلاد من أسراب الذباب فيها. وتحسّس عقدها.

«... لا ذهب في الحانات، ذهب في المضاجعة...»

بالكاد يجدن بعض الكلمات الفرنسية وقد تبللت شفاههن بالكحول. أن يستقبلن ضباطاً فهذا يشعرهن بالإطراء. لا وقت لإضاعته: الرحلة كانت شاقة، على الأقل على الملازمين الذين قطعوها سيراً على الأقدام وفي الغد عليهم أن يستيقظوا منذ الفجر لكي يحضروا للعرض الكبير أمام غاستونه، السيد رئيس الجمهورية غاستون دومرغ لا يجرحه أن ينادوه بهذه الطريقة الحميمة، فنحن في عهد الديمقراطية.

«سيداتي، أعتقد أنكم توافقونني الرأي: النصر يعود للنقيب كونيغ..».

استدار الجميع نحوه، لقد سموه النقيب في المناسبة. «له هو أن يختار، لا اعتراض بن طاهر؟...».

كما لو أن بإمكان بن طاهر أن يعترض.

إنهن لمستهلكات هاتي الفتيات.

لنأخذ الأكثر شباباً بينهن مع تعبير يذكر بماذا؟

إشارة ونهض فلحقت به فسمع ضحكات خلفه وأصوات تردد هذه اللازمة:

بشرط أنك دائماً
ستردد هذه الكلمات الرائعة...

السلم غير مصقول بدرجات مكسوة بالطين ورواق معتم وباب وسرير حديدي يشغل تقريباً كل الغرفة المضاءة بمصباح ذات غطاء واطئ في الزاوية. وفي الجهة المقابلة مغسلة ومناشف. تركت الفتاة سروالها يقع وركبت حصانها وقامت بإشارة من يدها. آه. الأجرة. كم؟. أربع دورو[1]. عشرون فرنكاً، نصف ما يجنيه ملازم في اليوم. ها هي، إشارة أخرى: من أجل الهدية. يبدو أنه عرف. خمسة فرنكات إضافية.

وهكذا بعد دفع الأجرة يمكن أن نبدأ. بعد أن استلقت مائلة على السرير... قالوا له كثيراً إنهن حليقات لكن لم يسبق له أن رأى شيئاً، كان يتخيل الأخريات، الفرنسيات. كما أن مالاسيس جعله يعتقد أنهم كانوا يتحدثون عن تعزيزات في العاصمة. «سيكون لدى الحلاق الكثير من العمل...».

صوت لوسيان بويه[2] أيضاً، كما لو كان في حلم، بالأحرى كابوس، «إذن، هل تأتي[3]؟...».

لا، الملازم كونيغ لا يأتي. جلس فوق الغطاء المريب والتفت متأملاً الساقين العاريتين ثم البلاط، هذه الخطوط التي تتجادل لتشكل ما يشبه النجمة، الرسم نفسه الذي نجده في كل شقق الجزائر. كم تتقاضى كل مساء؟ نعم ولكن لا تحصل سوى على نسبةٍ، إذ هناك بالطبع نفقات في

---

(1) Douro عملة إسبانية قديمة.
(2) Lucienne Boyer (1901– 1983) وهي المغنية الفرنسية صاحبة الأغنية الشهيرة المذكورة في الرواية «حدثني عن الحب»، اشتهرت في فترة ما بين الحربين.
(3) هنا كلام مكسور بالفرنسية، وهو كلام بائعة الهوى الجزائرية.

هذه البيوت: الصيانة والأطباء والشرطة والحرس والقوادات. كل شهر تضاف قطعة ذهبية للعقد، مهرها، ومن بعد ذلك زواج ناجح. من زعيم، لَمَ لا؟ أو عميد سباهيين متقاعد.

سألها الملازم كونيغ عن اسمها. أول الأشياء التي يقوم بها عادة ضباط المشاة: «ما اسمك؟». أي فكرة مضحكة هذه. في الجيش يحترمون الرجل الذي لا يكون مجرد رقمٍ ولكن في ماخور! «عزيزة...» مؤنث عزيزي: شيري[1]. يمكننا القول إنه إسم زائف. لَمَ لا نجمة أو عايشة أو سعدية؟ أو زينة؟

3

«لست بخير سيدي الملازم أول[2]».

شعر أنه جبان واستشعر مرارة في فمه لا بل شيئاً من الغثيان. تحسس ياقة قميصه كأنه يريد التخلص منها، رمى إلى خلف ظهره علبة المنظار، سوّى حزام السيف فوق الكتافية ثم تحسّس مقبض سيفه المعلق إلى يسار الزنار.

«بلى، بلى...».

مدّ له الرقيب بوعلام مطرة الماء.

«أتريد أن تشرب؟».

كان لطيفاً الرقيب بوعلام، والملازم كونيغ يسعى حثيثاً لكي يبقى دائماً إلى جانبه. هذه المرة، خلفه تماماً وسط ثلاثة رقباء على رأس مجموعته.

(1) أي Cherie بالفرنسية وتعني عزيزي.

(2) هنا يناديه «ملازم أول» في حين أنه ملازم في محاولة لإبداء مزيد من الإحترام.

طويل ورفيع ورشيق بملمح حزين بعض الشيء، يتكلم الفرنسية برهافة، أحدب الظهر بعض الشيء مع بطن غائرة، يبدو هشاً لكنه أكثر صلابةً مما نتخيل. على الرغم من أنه من السكان الأصليين، رقيب كاتب للسرية بسبب تعلمه، ينوب عن الملازم كونيغ خلال المناورات أو التنقلات. وعادة يكون في مكتب السرية مُحنياً رأسه فوق أدوات الكتابة والتسجيل، يدير مخزنه بالكثير من الحذر الذي يصل حدّ الوسوسة، كما أنه رجل فرح بالرغم من حزنه الداخلي، مخلص ومستقيم. فهو يعتبر ربما نفسه رئيس جمهورية مع هذه الموسيقى والأعلام ومع شعاره «كرامة ووطن» معلق فوق قائمة بالانتصارات التي شاركت فيها الكتيبة، سيباستوبول، ألما، فروشويللر، إيفرحونن، مارن، فردان، إيزر؛ فخور بالانتماء إلى جيش أفريقيا.

في المنصة الرسمية، جلس كل الآغاوات والباش آغاوات، ليس في الصف الأول، في الخلف، بعيداً جداً ولكن في نهاية الأمر... إنه لأمر مثير للاهتمام مشاعر الزمالة هذه، أهي مشاعر عاطفية؟ مشاعر الملازم كونيغ تجاه الرقيب بوعلام. ربما لأن الملازم لم يفرض نفسه جيداً في رتبته ولا الرقيب بوعلام كونه جزائرياً وليس جديراً بأن يكون فرنسياً؟ رغب كونيغ بأن يقول له: «لو تعرف أيها الرقيب بوعلام، لم تكن القضية قضية الرسالة فحسب. فالملازم بولانجي معه حق: إنها ليلة الأمس...».

لكنه صمت ولم يقل شيئاً للرقيب بوعلام، ولكنه في قرارة نفسه تابع اعترافاته: «بوعلام، لايمكنك أن تتخيل ماذا فعلت بي. ليس الماخور ولكن الرسالة. مارغريت، أنت لا تعرفها. لو قرأت فيّ...».

يحادثه مستعملاً صيغة الجمع للاحترام في حين يرفع الآخرون الكلفة

مع المعاونين من السكان الأصليين. وذلك على سبيل الصداقة أكثر مما بسبب الإحساس بالتفوق، لأن هناك تراتبية حقيقية لدى المعاونين، الضابط المساعد والرقيب الأول يخاطبون بوعلام برفع الكلفة. ولا يمكن للملازم الفرنسي أن يرفع الكلفة مع أحد السكان الأصليين إلا إبتداء من رتبة وكيل عريف. جهل في الأعراف أو أنه الغرور. فهم يصبغون، وحتى باللعب والسخرية، ألقاب «سيد» و«حضرتكم» على جنود عاديين من السكان الأصليين، والمشاة من الدرجة الثانية، مما سيدفع النقيب ليرجو الملازم البحث عن طريقة أخرى لمناداتهم. «أنت تضعهم في نفس صفنا؟...». بالنسبة إلى الضباط المعاونين، يمكن للملازم أن يخاطب بسهولة بعضهم برفع الكلفة ولكن ليس بوعلام. أصيل جداً هذا الرجل ووقور جداً، رجل محترم. هل هناك رجال عرب محترمون؟ ماذا يفعل السيد بوعلام الأب في البليدة؟ سأله يوماً فرد الرقيب: «أبي لا يؤيدني...».

ولهذا السبب ترك الملازم نفسه يمضي متكلماً، وبصوت منخفض في ما يشبه الاعتراف:

«مارغريت هي حبّ حياتي، يا بوعلام. لا تبتسم، فالأمر لا يتعلق بماخور. ألم يحصل لك ذلك أبداً؟ أعرف جيداً أن لا أهمية كبيرة للنساء عندكم، يمكنكم أن تحصلوا على أربع نساء بشكل شرعي إلا إذا فضلتم صيغتنا الشرعية الخاصة. ولكننا لا نستطيع أن نحب أربع نساء سواء أكن شرعيات أم لا. لا يمكننا أن نحب سوى امرأة واحدة. مع تمزقات وصرخات وعذابات وعواصف. هكذا هي مارغريت منذ طفولتي. لماذا انتظرت كل هذا الوقت؟ اسأل أهلي لماذا وجهوني إلى المدرسة الإكليريكية. لم أقرر أن أصبح كاهناً وإنما أردت الالتحاق بزملائي الزعران الذين خلطوا

على ما يبدو بين المدرسة الإكليريكية والثانوية اليسوعية لنوتردام دافريك لأني لم التقهم يوم الدخول. في المدرسة الإكليريكية بدت الحياة لطيفة: قهوة مع الحليب خلال الأسبوع وشوكولا يوم الأحد. ولم يتوقف أهلي عن تكرار «المدرسة الإكليريكية، المدرسة الإكليريكية...» على مسامعي، وأنا الذي كنت أرفضها لأني لم أكن أعرف ما هي بالضبط، تخيل إذن عندما قبلت...».

يبدو أنه اعتقد أنه هناك سيرى مارغريت بشكل أقل من الثانوية. وعندما توفيت والدة مارغريت، تبناها الخال أيمي. فتاة إضافية إذ كان لديه ثلاث أخريات وانتقل من روفيغو إلى لاربعاء.

لم يريدوا له مارغريت، خبأوها عنه، وتدبروا الحيل لإبقائها بعيدة. ربما لأنها فقيرة، أو لأنها قريبته المباشرة؟ فالخال فكتور تزوج بكل رضا من أنجيل. «ورغم ذلك، بوعلام، أنا لا أفكر إلا بها. في الفرص ما عدنا نرى الخال أيمي وما عدنا نذهب إلى لاربعاء: إنها لذكريات سيئة بالنسبة لأهلي. ما عدت أجرؤ على لفظ اسمها، كنت أنتظر لأن يرد اسمها بالصدفة في الحديث. الوحيدون الذين كنا نلتقيهم كانوا خالي فكتور والخالة أنجيل من المزرعة، والخالة كارنيتو تزوجت من حايك الذي يخيط بدلات أبي وفساتين أمي. لنقفز سنتين أو أكثر...».

مع عودته من مدرسة سانت- ميكسنت، حيث ما زالوا يخرجون ضباط احتياط ملازمين في الفوج الأول من المشاة، هرول إلى لاربعاء.

لرؤية مارغريت.

قالت له: «لقد كبرت ولكنك لم تتغير»، أما هي فقد تغيرت، لم يعرفها. باهرة، عينان كالسماء وفم رقيق، رقيق جداً، وجبهة نقية.

«لا يمكنك أن تتخيل بوعلام. من كان ليعتقد؟ ها، هذا ما جاءت به رسالة أمي. ألم تصدق أذنيك؟ نعم يا عزيزي. أمي ما كانت لتخدعني وإلا بأي قصد تقول ذلك؟ بالنسبة إليها، ما عاد عليّ أن أفكر بمارغريت فقد حلت المشكلة، وحصل ما يتعذر إصلاحه. أنت تتساءل. لا يمكنك أن تتخيل؟ حصل ذلك منذ ثمانية أيام في بلدية الجزائر... لم تكن بحاجة إلى إذن أحد: فقد أتمت الحادية والعشرين الشهر الماضي وأمست سيدة نفسها. كتبت لي أمي: «لن تصدقني، فتاتنا مارغريت ومنذ السابع والعشرين من أبريل بات اسمها السيدة بن عامر. أبوك نفسه فوجئ...».

لماذا تضع نفسك في وضع كهذا سيدي الملازم؟ كل شيء يبدو واضحاً. ما هي الذكرى المئوية؟ الاتحاد الأخوي بين عرقين؟ لا ليس هذا؟

«قدموا سلاااحكم...».

يعلو صوت المؤذن داعياً إلى الصلاة. ثم نداء جديد مدوٍ: «سلا... سلا... سلاحكم...». ضجيج مكتوم لارتطام الأيدي على مغاليق البنادق وفجأة النشيد الوطني. صمت ديني. أشجار الكينا ترتجف مثل قبعات الموسيقى الصينية عندما نهزها. ستهب الريح.

«إس...ت... رح...».

أيضاً العويل نفسه: «إس...ت...رح...». صدمة ارتطام أعقاب البنادق بالأرض. لا يمكننا رؤية شيء لكننا نعرف أن رئيس الجمهورية يرقي الأمينوكال[1] إلى قائد برتبة جوقة الشرف، أضعف الأيمان عندما

(1) Amenokal هو القائد المنتخب من قبل حكماء القبيلة لدى الطوارق، ويتم انتخابه وفق معايير أخلاقية من العائلات الأكثر نبلاً، ويكون هو القائد الحربي والقائد الأعلى.

نكون قد علقنا الشارة الكبيرة على الكتف أو النجمة الكبيرة على الصدر للآغوات والباش آغوات. أضعف الأيمان لسيد قطع مسافة ألفي كيلومتر من الأرض الصحراوية بين جبال هقار[1] والجزائر مع قبيلته على ظهر الجمال.

الأمينوكال كالجبل. من هو ذا الواقف بجانبه، رئيس جمهورية صغير بقبعته الجيبوس الذي عليه أن يقف على رأس حذائه كي يعلق له الميدالية؟ لحسن الحظ كان الحاكم ورؤساء المحافظات بلباسهم المزخرف، مارشال فرنسي قصير محاط بضباط بستراتهم اللازوردية والبنطال الأحمر القاني. الأمينوكال أخموك أق إيهما[2] بربطة عنقه القرمزية لم تقدم له مجرد هدية شكلية تليق بشحاذ، وإنما خنجر فضي منقوش. في المقابل، قيل إنه وفي حركة عفوية، أهدى الأمينوكال الحاكم رمحه النحاسي الخاص وترسه من جلد الزرافة المدبوغ. يمكننا الآن أن نبدأ بالنميمية.

أتعرف ماذا حفر على سيوف الطوارق يا بوعلام؟ «الموت للموت». ليس سيئاً، أليس كذلك؟ على سيفي أنا ستقرأ: «صناعة سانت إتيان». وعلى رماحهم؟ «احذر اللئيم إن أكرمته». ها هم يسخرون من الديمقراطية.

– يا إلهي! صرخ النقيب وهو يدور على كرسيه، أولن تخرسا؟

وبيده اليمنى أمسك نظارته الأنفية كمن يحاول الكشف بشكل أفضل عن المذنبين. نقيب مع نظارات أنفية.

(1) الهقار هي سلسلة جبيلة شهيرة تقع في أقصى الجنوب الشرقي للجزائر (الصحراء).

(2) أخموك أق إيهما واحد من الزعماء التقليدين للهقار.

4

من ما يزال يرتدي نظارات أنفية؟

السيد باليغان، أستاذ اليونانية وعلم الرياضيات واللاهوت في المدرسة الإكليريكية، لكنه تابع لإرسالية سانت لازار وله الحق في حيازة نظارات أنفية وحتى إنه أحياناً يزيلهما فتكتشفان عن كدمة بالقرب من عينيه عند بداية الأنف وتبدو نظرته زائغة ويبدو هو ضريراً. الأولاد يحبون جداً السيد باليغان، وينادونه بربروسا[1] بسبب لون شعره المفتول. لأنه على شاكلة الكاهن وكل رجال الدين في الجزائر، هؤلاء السادة من سانت– لازار والذين يصلون إلى الجزائر حليقي الذقن، يربون لاحقاً لحاهم، وذلك كما يبدو لاكتساب احترام العرب الذين يحتقرون الرجال معدومي اللحى – احترام النساء خاصة.

السيد باليغاند في الخامسة والعشرين أو الثلاثين، كم عمره بالضبط مع هذا الشعر الذي يغمر وجهه؟ لطيف جداً وليبرالي جداً ويعرف الكثير من الأشياء! يرصد كل جديد في عصرنا ويركز بنفسه أجهزة الاستقبال، ويعلق الهوائيّ على السطح ويستقبل أحياناً في غرفته طلبة يريد أن يكافئهم فيزودهم بسماعات وينقر بالإبرة على المعدن: فيلاحقون بذلك موسيقى الذبذبات أي الأثير الذي يلتقطه فيما بعد في مكبر للصوت موصول ببطارية مِركم مع نظام إضاءة بالسالب الكهربائي. فلديه مختبر كامل: على السرير خيطان ولفائف، بكرات، ريوستات[2]، قواطع، مكثفات للكهرباء. من خلال شباكه الواطئ يدخل البحر في أسفل حي سانت إيجين. وعلى

(1) فريدريك الأول بربروسا (1122 – 1190) هو أمبراطور جرماني عرف بلون شعره الأحمر المفتول.

(2) أداة لتنظيم التيار الكهربائي.

البحر السفن الآتية من فرنسا أو الذاهبة إليها حيث الحمولات أو سفن الشحن الذاهبة باتجاه شاطئ وهران. ورداؤه الكهنوتي مهترئ مخضر في بعض مواضعه بسبب التبغ وفي غرفته منضدة صغيرة يركع فوقها للصلاة أمام تمثال السيد المسيح. ينادونه «السيد المدير» مثل كل أساتذة سانت لازار ما عدا المدير الأعلى. فور عودته من المدرسة العسكرية، كان على هكتور أن يذهب لإلقاء التحية عليه بلباسه كملازم.

بدأ بمارغريت ومن ثم لم يتجرأ على المتابعة، كان عليه أن يعترف. فقد تأمل كثيراً أنه بالاعتراف يتخلص من خطاياه، ولكن لا يمكن منع الأسرار من الوجود، فعندما تسمح بالتدخل لتبديد ضيق لا يمكن تبديده، فإن جزءاً من روحك لا يعود ملكك، أحد آخر يدخل المنطقة المحرمة...

المدرسة الإكليريكية في أعلى الهضبة من حيث يمكن الإشراف على كل شيء وصولاً إلى منطقة القبائل. لجهة الجنوب الشرقي، كتف نوتردام دافريك الذي يخفي الجزائر، وكتلة بوزريعة في الخلف، وفي الأمام ولجهة الشمال السور الأصفر الداعم لقلعة دوبريه. من هذا الرأس العالي يمكننا تأمل الخليج، ساتان مائي أزرق، سجادة بتموجات بيضاء أو في بعض أيام الشتاء تبدلات صاخبة إلى رمادي وأخضر مع الكثير من الزبد. واجهة ترابية حمراء طويلة وقبة وجرس في معبد صغير وباحة داخلية مسيجة، وفوقها حدائق من التربة الحمراء، أشجار الكينا والتين تابعة لمسكن رئيس الأساقفة، واحدة من أراضي الوادي الشهير للقناصلة الذي قدمه المارشال الحاكم للكنيسة الأفريقية.

ليست بأي شكل الجنة الموعودة لزعران الثانوية: أسرّة صغيرة بفرش من شعر الخيل، الاستيقاظ في الخامسة فجراً، الصلاة وأيضاً الصلاة، أي

عذاب في البداية حتى تتكلس الركب! امتحان الوعي والتأمل، القداس، القربان المقدس، الحساء، الصف، الدراسة، الاستراحات القصيرة، الغذاء الصامت يرافقه ترتيل أحد الأولاد الرتيب لإحدى الرسائل الإنجيلية، يتبعه عمل تثقيفي ممل جداً وقراءة في كتاب السنكِسار[1] باللاتينية. بالنسبة لطفلٍ في الثانية عشرة، أي حياةٍ متقشفة هذه! تسليته الوحيدة: قطف البرتقال الأخضر من الأشجار التي يمر تحتها مساء، مع الموكب الذاهب إلى المهجع، مصباح بالزيت، وقطعة شوكولا صغيرة تقضم سراً تحت اللحاف. رسائل يرسلونها وأخرى يتلقونها مفتوحة.

كان عليه أن يقول لأمه في إحدى زياراتها يوم الأحد: «لقد أخطأت، أريد العودة إلى شارع مونتينيْ وسأعيد صفي الأول من المرحلة التكميلية في الثانوية وأتعلم. أمي أنا تعيس اعذريني...». شعر كم هي فخورة بوجود أحد ولديها في المدرسة الإكليريكية. لأن ديزيريه ما عاد يعني لها شيئاً، فمع عودته من الحرب تزوج من إليز ويعمل في مينيرفيل على آلات سكك الحديد. كيف يمكن مقارنة ميكانيكي بكاهن؟ فالأم تتخيل هكتور منذ الآن كاهناً معاوناً في الكاتدرائية يرتل بلباسه الشعائري. كاهن يتدلى الصليب على صدره ويحمل الصولجان، «أنا أم المونسينيو...» تتخيل نفسها أم الرب.

في بداية التحاقه بثكنة أورليانز، الفرقة التاسعة من الزواويين في الجزائر، ثم في المدرسة الحربية لسانت ميكسنت (دو سيفر) كان ينتابه شعور بالعري لافتقاده الرداء الكهنوتي الذي يخبط بساقيه. بقي طوال سنتين يتعلم المشي مع الرداء الطويل الكئيب المزرّر حتى القدمين، والذي

(1) السنكِسار هو كتاب أسماء الشهداء وجميع القديسين في الديانة المسيحية.

لا يستطيع به صعود الأدراج كسائر الناس؛ يرفعونه قليلاً حتى لا يدوسوا عليه، كما أنه لا يمكنهم الجلوس كيفما كان، وعندما يخلعونه مساء يقبلونه ويبجلونه وكأنه يحميهم من العالم. عند مروره بشارع باب الواد في طريقه إلى الكنيسة، الصبيان الذي يضاهون ربما بمشاغبتهم زعران الثانوية يصرخون ويمسك الإسبان الحديد ويشيح العرب بوجوههم، ولكن رعاع الحي في النهاية يلحقون به «قوَق قوَق...». فيدق قلبه سريعاً من الغضب فهو لم يخلق ليتحمل الإهانات من دون أن يرد. قبل ساحة الحكومة، يتسلل إلى الجامع القديم الذي تحول إلى كنيسة نوتردام دي فيكتوار ويلتقط أنفاسه ويجثو على ركبتيه. شموع ونساء يرتدين الطرحات أمام مجسم للسيدة العذراء. يا للولد المسكين، لم يصل بعد لصفة الكاهن، وقد وسم بالدمغة الدينية دون أن يستفيد من امتيازات الدولة، مفصولاً عما يحب ومحاصراً بالمحرمات: فليس من مسموحاً له التقاء النساء اللواتي لم يبلغن بعد العمر الصحيح للشرع الكنسي، كما حرم عليه السباحة والتنزه وزيارة القصبة وحضور العروض العابثة والذهاب إلى السينما والمقاهي.

لم يكفّ السيد باليغاند عن تحذيره: «انتبه لمخيلتك».

وفي المقابل، لم تكن المدرسة الحربية هي ذلك الجحيم الموعود، لا يستفيقون أبكر مما في المدرسة الإكليريكية التي يسكن فيها الأولاد في دير قديم حوّل إلى حجراتٍ باردة، ويلتقون في قاعة الطعام ويحضرون معاً قداس الأحد ويتحملون دون تأفف مضايقات الأساتذة.

آه! الفراولة وتوت العليق،

النبيذ الطيب الذي شربناه...

تبدو له جميلة هذه الأغنية بتلميحاتها الفاجرة ويعجبه جوها، مع أنهم لا يغنون الحب في الجيش إلا بطريقة بذيئة. أين هو دين الوطن الذي يتباهون بتعليمه؟ حماقة كبيرة هذا الجيش! صرخات غاضبة وتهديدات بالعقاب، امتحانات معجلة حول الأنظمة، المسرح، التاريخ العسكري والتطبيقات العلمية، دروس القتال لهؤلاء الطلاب المساكين المنهكين (يتظاهرون باستخدام اللهجة العامية لسانت سير)، الانطلاق تحت المطر إلى ساحة العمال، صفوف التجويد للوصول إلى نبرة صوت قيادية، المشي مع الحقيبة على الظهر، المراقبة، التفتيش، التجمع جرياً، النداءات، الشتائم، الغراء، النبيذ، التدخين الكثيف، بذاءة الحديث وقصص المواخير. مهنة شريفة؟ ربما كان هذا صحيحاً بالنسبة إلى بعض الضباط المرشدين المتخمين بالقتل. ولكن رغم حقارة الحياة العسكرية، فهي راتب وشارة عسكرية للطامحين، وبعد امتحان التخرج، اختيار للموقع العسكري وبدل التجهيز الأولي وبزة الملازم: الأرستقراطية، الانتماء إلى الطبقة الراقية، الحق في الاحترام والفخر بالنفس.

ما عادوا يلاحقونه «قواق، قواق»، بل يضربون له التحية ويعجبون بقبعته ذات اللون الأزرق السماوي على خلفية حمراء، وببنطاله الأحمر ذي الزنار. يمكنه أن ينظر إلى النساء (ويمكنه حتى أن يتقرّب منهن خاصة في الجزائر حيث يدعين الحشمة)، ويدخن سجائر العبدالله[1]، ويجلس على شرفات المقاهي ويذهب إلى السينما، أي سحر! الصالة الضاجة، الضوء الذي ينطفئ والشاشة، أي قفزة منذ بيجو. في باب الواد، في زمن

(1) سجائر عبدالله أنتجت في إنكلترا (1854–1989) من قبل مؤسسة عبدالله وأخوانه البريطانية.

مدرسة شارع روشامبو والسنة الأولى من الثانوية، عندما كان يحشر على مقاعد مع صغار العرب، وكان الدخول بأربعة قروش، عازفة بيانو ترافق عرض الصور، ويصرخ المتفرجون في العتمة لإنذار شارلوت بمجيء رجل الشرطة.

ثماني سنوات من الظلام، المدرسة الإكليريكية! ثماني سنوت من الغياب. السينما ما عادت صامتة: بتنا نرى ونسمع موريس شيفاليه[1] تغني، لويس شوفيه يظهر كما على المسرح في توباز، يعلن عن عمل كبير، تحت سقوف باريس لرينيه كلير. ولكن هل يمكن للسينما غير الصامتة أن تغزو العالم؟ شارلي شابلن في أضواء المدينة، غريتا غاربو، لا ديفين، نجم القبلة لجاك فيدير، لوريل وهاردي، وهؤلاء المهرجون الرهيبون، هل يمكن أن يكونوا غير صامتين؟

5

في النهاية طلبنا استراحة. «وهل تركت نفسك تفعلها، سيدي الملازم أول؟ سأله الرقيب بوعلام. لم تقاوم...».

الباش آغا جلول بن لخضر قدم لرئيس الجمهورية حصاناً أصيلاً تكريماً من الخادم إلى سيده. حصان أبيض من غادا[2] الذي يتم تقديمه دائماً وسط موكب كبير، ويسرج بفخامة، بالفضة للحكام وبالذهب لرؤساء الدول، يقوده معاونان في الخيالة. هذا في الوقت الذي كان رئيس الجمهورية يتساءل ماذا سيفعل به، هل سيعطه إلى الحرس الجمهوري أو القائد العام؟

(1) Maurice Chevalier (1888– 1972) هو مغني وممثل فرنسي.

(2) التسمية التي استخدمها الكاتب gada لم نعثر في مختلف المراجع على معناها أو مصدرها بالعربية.

إذ لا يمكن إطلاق حصانٍ في حديقة الإليزيه.

اسمع بوعلام، أذهب إذن لرؤيتها في لاربعاء. فتقول لي: «أتعلم العربية، اللغة الإلزامية في مسابقات معهد التدريس». أجد من الطبيعي أن تتعلم العربية. «لدى المدرّس هنا صديق لك تعرفه» قالت لي. لقد ألمحت لي أمي بالصدفة لكي تكبح جماحي أو لتحميني: «مارغريت تتواصل مع أحد السكان الأصليين...» صديق لي من السكان الأصليين؟ أنا أعرف بلقاسم، يعمل الآن مدرساً في الجزائر. وإذن يا لادعاء البراءة! كانت لتقول اسمه مع لفظ الحاء جيداً ومع توكيد على المقطع اللفظي الأول «حسّن»! لقد كانت طالبة موهوبة. هو أيضاً يعرفها منذ وقتٍ طويل، فقد تحدثنا كثيراً عنها بين أشجار القصب في عين طاية. «أتعرف ما يعني هذا الاسم بالعربية المكتوبة؟ الحصان....». إذن حسن هو حصان. ولكن ماذا بعد؟ ليس حصان النبي ولا حتى حصان من غادا؟

أنت تعرف سيدي الملازم، عندما نتعلق بالمرأة... انت تشعر بالألم ولكن في غضون سنتين ستصبح ضابط ميدان... وسأصبح أنا ربما رقيباً عاماً. وربما لن تعود حتى تنظر لي. وعندها النساء...».

وبحركة خفيفة: «سيكون لديك، سيكون لديك...».

التفت النقيب وبصوته الجاف المتهدّج، صوت المراقب: «انتهزوا هذا الوقت الميت لمراقبة أقسامكم».

تسلل النقيب كونيغ بين الصفوف وشدّ أحزمةً وسحب مطرات من الجنود وأصلح طرابيش.

عاد على رأس شعبته بشعور غريب. هو المفضّل، أمير، يحصل تقريباً بحق إلهي على مهمة قيادته لثلاثين من الأبناء التافهين، لنرم البدائيين

الذين أحنت ظهورهم السلطة الفرنسية، نتاجات سوء التغذية، في بؤس أكواخهم...

– قل لي بوعلام. اسم إيفرحونن من بين قائمة الانتصارات، هو اسم من هنا؟

– بلاد القبائل سيدي الملازم أول. في العام 1871، الثورة الشهيرة. لم ينسها «البيكو» بعد.

لم يسمع بها الملازم كونيغ من قبل، منذ نحو النصف قرن. هل كانت ولدت أمه على الأقل؟ الأوقات السود.

تمتمة غامضة. لم يكلف نفسه الحاكم الكثير من العناء لغناء الوحدة السرمدية لفرنسا والجزائر. بلا فرنسا، ما كانت حال هؤلاء البؤساء الذين تربت فرنسا الأم بيدها أكتافهم؟ من أين إذن هذا الشعور بالضيق الذي ينتاب الملازم كونيغ؟

جنوده المشاة، يحبهم. فهم يخصونه ولكن العلاقات تتوقف هنا. حتى في الأدب حيث تظهر بعض الأسماء العربية بخجل في مواجز الصحف المحلية حين يحاول بعض الشعراء التغني ببلادهم بلغة رونسار[1]، لا أحد يجرؤ على الذهاب أبعد من ذلك. يمكن شرب الأنيسون[2] معاً وإظهار الود المتبادل وحتى الصداقة، إلا أن هناك سلم مراتب بديهي. إذ لن يخطر ببال أحد معاملة العرب كأخوة من الدم أو العرق نفسه. إذن بماذا يلمعون؟ يمكن ذكر بعض أسماء المحامين، فهؤلاء أقوياء في الكلام، وبعض الصيادلة

(1) Pierre de Ronsard (1525 – 1585) هو واحد من أهم شعراء القرن السادس عشر الفرنسيين.

(2) Anisette هي خمرة معطرة ومحلاة مع اليانسون تستخدم بكثرة في ايطاليا إلى جانب القهوة.

المريبين، وأطباء دون زبائن، وقائمة من رجال السياسة الذين يكتفون بأدوار المفوضين الماليين. في الحقيقة ميلهم الفطري هو الذي أبقاهم في موقع الخدم. فإن كانت الحرب هي التي اقتلعت الأوروبيين من مهنهم، فهم يقبلون بأي عمل، حتى عامل استقبال أو سائق ترام، ألن يتحولوا قريباً إلى مهربين وموظفين فاسدين؟

«كذابون وشاذون ولصوص»، هكذا يصفهم النقيب مالاسيس الذي يعرفهم جيداً، بوعلام هو استثناء. وعداه هو، من يستحق الاحترام؟ بالكاد يعرف بن طاهر القراءة والكتابة ثم هيئته الماكرة هذه وقبوله بأي انتقاد. قطيع كبير من الأنغال، تعدد السلالة غير الشرعية المولودة من اتحادات بالصدفة.

هكتور لا يهين رجاله، ربما بسبب ذكرى مفتاح. من كان مفتاح؟ العبد الخاضع والسعيد لمكانه في العائلة مع الخنوع الذي يناسب شخصاً منبوذاً الذي يقدم له تماماً ما لا يملكه: الانتماء البعيد إلى جماعة الأسياد، نسب غامض مع عبودية فطرية، مشاعر تعلق كمشاعر التعلق بكلب. في النهاية مات مفتاح، بعد فترة قصيرة من موت الجدة باري، ولكن ليس بسبب الحمى التي كثيراً ما تصيب العرب. بل بسبب الشيخوخة ببساطة. لأنهم حالياً باتوا يتعالجون، يستدعون الطبيب لأجلهم، كما زادوا عدد الصيدليات، ويتلقون اللقاحات، وباتوا يستفيدون من الكثير من حسنات فرنسا، الصحة والطرقات والمدارس والامتحانات والرواتب العالية. حياة العبيد السابقة لدى الأتراك أمست اليوم سهلة.

كان التفاوت بديهياً.

في كل مرة تقوده أفكاره إلى المزرعة، يتذكر الملازم كونيغ زياراته الأخيرة خلال الحرب، عندما جاء أخوته في مأذونية وكانت جدته ما زالت حية. كل شيء تغير، ما عادت الآلة البخارية تشغل الناعورة فقد استبدلها فكتور بمحرك على البنزين، وما عدنا نعرف أين هو السرير الذي كانت تنام عليه مارغريت لأن أنجيل غيرت تنظيم المكان برمته، فقد بنيت قواطع وغرف في المستودع فوق القبو. ورزق فكتور وأنجيل بصبيين، الكبير بالكاد يمشي وما زال المولود الجديد في السرير.

في إحدى السنوات، ربما في العام 1917، في عيد الفصح، ذهبوا ليأكلوا الكرز في البستان، وجدوا حبوبه الحمراء القرمزية ما تزال فجة قليلاً وقد علق فكتور شرائط من الورق بين الأغصان لإبعاد العصافير، وإذ بأولاد من الدوار المجاور يسرقون من الأشجار. صرخ بهم واندفع باتجاههم عندما أوقفه ديزيريه. «انتظر سترى...».

حمل معه ديزيريه من الجبهة بندقية موزير، كجزء من ذخائر حربية، وبدأ يصوب على علب بقصد إبهارنا بدقة السلاح.

يوم رائق لم يهب فيه الهواء. أشجار البرتقال تعبق بالرائحة وفي هضاب السهل أطفال يبيعون أكاليل من الزهر.

كان ديزيريه يرتدي البزة ذات اللون الأزرق الرمادي الخاصة برقباء المشاة مع زخارف مذهبة على الأكمام. أمسك ببندقيته فانشرح وجه فكتور الذي ما كان ليتجرأ يوماً على فعل ذلك. فبعد عامٍ من الخدمة عاد إلى مزرعته مثل كل أبناء جيله من المستوطنين لزراعة الأرض. كان لديزيريه الحق بإتاحة كل شيء لنفسه: فقد عاد من الحرب بكلمات قاسية.

أسند السلاح إلى حافة الحوض وأخذ وقته في التصويب ووقفنا جميعاً

خلفه على مسافة ما، ليس هناك من خطر ولكن في النهاية، و«بان!...».
وهرب الأولاد مسعورين: «لابدّ من أنهم سمعوا الطلقة تلعلع فوق رؤوسهم كضربة سوط رهيبة. فهذا سيعلمهم...».

هو ليس خبيثاً، ديزيريه. بالعكس: إنه أفضل الرجال، إنه الطيبة بعينها.

«والدك كان يتسلى قبلك بذلك»، قالت الأم، «إن أصبت أحداً... أنا لا أعرف. افترض دون قصد قتلت أحداً...». ليس هناك أي احتمال للخطأ: كان ديزيريه حاذقاً ثم هل سيتركهم ينهبون التين البري في المشتى؟ ابتسمت الجدة بأسى. ماذا يمكن القول عن شخص يرشق الألمان بقنابل 105؟

في هذه اللحظة هبط من الجبل رف من العصافير. ليسوا عصافير زرزور بتحليقهم النشط المتلاصق والمتردد، والذين لا نعرف أبداً وجهتهم. كنا لنظنها بالأحرى عصافير الزقزاق ذات الأجنحة المذهبة التي ترفرف جماعياً مع أول أمطار أكتوبر بيد أن هذا ليس موسمها، أو طيور السمان، ولكن هذه تطير بسرعة. إذن ما هي؟ طيور الوروار التي تسمى صيادي أفرقيا بسبب ريشها الباهر أو أنها نوع من الدوري، «كورفيت إيزابيل[1]» بمناقيرها الطويلة المروسة؟ طيور مهاجرة، طيور صفرد ربما تتحضر لاجتياز البحر؟ أرعبها الدويّ فحلقت طويلاً فوق الجبل وأقلقت الغربان المشتتة واللقالق الجاثمة قرب أعشاشها.

ومنذ ذلك اليوم، يضحكون كلما تذكروا بندقية ديزيريه. والد هكتور،

(1) Cours- vite- isabelle هو نوع من العصافير المعروفة بسرعتها ولونها بين الأبيض والبني.

الأب ديماتون كما يسمونه بسبب شاربيه ولحيته البيضاء هو أيضاً يضحك بغرور ليشبع رغبته بالبطولة أو حتى يرد الصاع صاعين مع ابنه روبير، الملازم في الفرقة الأولى للزواويين، الحاصل على صليب الحرب وخمس تنويهات، هل إنه الآس؟ فقد نجح إصرار الأب على جعله يرتدي البزة ويشغل منصب مساعد القائد الأعلى في القصر الشتوي، وبسبب سنه أيضاً تمكن من الحصول على الحق في النوم والغداء في شارع مونتينيْ في بيته إلا في يوم مناوبته.

– سأعود لذلك سيدي الملازم أول، قال بوعلام، لكي أفهم بشكل أفضل. عندما رأيت مارغريت مرة أخرى، ماذا...

– المفاجأة بوعلام، في البداية المفاجأة. بدت مارغريت ككوكب مجيد. بالكاد تجرأت على النظر في وجهها وعندما بدأت تكلمني عن حسن فهمت أني ما عدت موجوداً وبأنها محتني من حياتها. وماذا فعل بي ذلك؟...

– بالطبع. شاب من «البيكو»...

شعرت باستهجان الخال أيمي. فقط لو كان هذا المدرّس من السكان الأصليين معجزة، يا إلهي... لقال الخال أيمي: «إنه لصبي مقتدر...». «أن تكون مقتدراً»، هو الإطراء الأكبر الذي يمكن أن نوجهه هنا لأحد. ولكن لا شيء. وعندما ذهبت أنا ومارغريت لنراه كي أكسر هذا الألم، شعرت بأنه ليس الصوت نفسه الذي كنت أعرفه، بدا لي صوتاً هادئاً غامضاً بعض الشيء يستعمل كلمات دقيقة بلغة مثقفة... ماذا كنا نسمي بعضنا؟ حسن الثائر الغاضب. كان يلومني لكوني ابن مدير عين طاية.

تذكر كل شيء حتى ما نسيته أنا، ذكرني كيف ذهبنا نحن الاثنان في العام 1914 للتجند في الجيش وكيف تم توقيفنا في الطريق. وجدته بعد خمسة عشر عاماً من تلك الليلة. صديق؟ اتركوني أضحك. لص.

«عندما افترقنا أنا وحسن، كنا أمسينا عدوين لدودين. رافقتني مارغريت إلى الساحة، عند موقف حافلة الجزائر قلت لها: أعتقد أن عليّ تركك مع حصانك، فأجابتني: إنه حصان مع نجمة على جبهته...».

6

بعيداً على رأس الشارع، بدأ العرض، موسيقى من الأيام الخوالي، مسيرة موسى ونشيد غيوم تل لروسيني. أصوات ناي حادة وموسيقى أوبريت حماسية والنقيب يتمطى فوق ركاب سرجه.

– أخبرنا سيدي النقيب، قال بولونجيه.

– سترات عسكرية مريشة، وردينغوت وبندقيات فتيلة بالحجارة وبناطيل حمر وأحذية طويلة، وهل تتخيلون الضباط مع سيوف معقوفة. اليوم نسيّر المدافع فوق العجلات.

نسمع تصفيقاً خفيفاً يكاد يكون بداعي التهذيب لا أكثر.

– إنني، قال بولونجيه، أتساءل كيف كانوا يفعلون في ذلك الوقت مع الأدوات التي لديهم. أعتقد أن الأتراك كانوا أكثر تقدماً منهم، ما رأيك سيدي النقيب؟

– في معركة سطاوالي، وقع الكثير من الخسائر. كانوا يعرفون كيف يتجهزون في ذلك الوقت، يتقدمون في صفوف متلاصقة دون الاكتراث بالخسائر. مدفعية الأتراك كانت ذائعة الصيت، هل

تتذكرون كيف دكت شارل الخامس. الفكرة العبقرية كانت في الإنزال بعيداً عن الجزائر والالتفاف حول المدينة. كان ذلك قاسياً ولكن روح التضحية في ذلك الوقت كانت عالية. هذا ما أقوله دوماً: لا تنظروا خلفكم، انظروا أمامكم باتجاه الهدف. فأنا أتذكر في أرغون....

– ... لن تصدق بوعلام. هل تعرف ماذا قال لي؟ قال لي: «أنا غريب في بلادي» شيء لا يصدق. ألن تقول شيئاً؟».

ما الذي قصده لكلمة غريب هذه؟ م حرم؟ من جهة، فرنسا ومن هم معها، ومن الجهة الأخرى البرابرة. والدليل إيفرحونن.

«أتعرفون كم من السكان الأصليين قتل خلال المعركة من أجل فرنسا، سيدي الملازم؟»

رمى رقماً عشوائياً.

– عشرة آلاف؟

– خمسون ألفاً، وبعضهم يقول أكثر من ذلك. لنفترض النصف: خمسة وعشرون ألفاً. وكم من فرنسيي الجزائر؟ عددهم غير أكيد. اثنان وعشرون ألفاً فقط. لو أرادوا أن يدرجوا أسماء «البيكو» على نصب الموتى، ما كان ليتسع.

– أنت تفاجئني.

– إنه لأمر طبيعي سيدي الملازم، أبناء «البيكو» أكثر عدداً. ولكن لماذا عندما نكون أبناء ماعز، لا نكون فرنسيين سوى للتضحية بأنفسنا؟

في النهاية رفع الكولونيل سيفه. موسيقى المشاة، بالعمامات والسراويل

والبوليرو الزرقاء، انطلقت بالمارش الشهير البطيء قليلاً:

التركو[1]، التركو أبناء طيبون...

بعد ذلك بقليل تدخلت آلات الريتا[2] في اللحن الحاد المترافق مع ضربات قوية من الطبول العربية ومشاركة الآلات النحاسية لبعض الوقت قبل أن تختفي وراء صوت المزامير والكلارينت النشاز: صلصة لاذعة فوق فخذ الخروف.

ولكن لا يجب إزعاج– هم...

في البداية الكتلة المضغوطة لكتيبة البليدة، أكثر يقظة وأكثر انضباطاً، شيء ما واضح فيها وسهل دون مشاكل، أناس متمرسون. جنود مروضون جيداً وضباط يستدعون الفخر. الوقت اللازم بين كتيبتين، ثم كتيبة المدية.

«الخطى، الخطى»، صاح النقيب، «إنها تنزلق، أيها الناظر[3]، حافظ على الإيقاع! على الكوع اليمين أن يلتصق بالجسم، والسلاح أن يكون منتصباً! نظّار الفرق، حباً بالرب!».

صدى يشوش ايقاع الموسيقى. هل هو صف أشجار الكينا؟ الشاطئ قريب جداً فقد يكون البحر؟ أو مرائب الطيارات، أو مصانع الإسمنت بالقرب من مجرى نهر الحراش النتن؟ هرج ومرج، أفواج تتصادم وتتكسر في الصمت... تداخل النحاس والغيطة[4] وطغيان الموسيقى العربية. الضباط أنفسهم لم يعرفوا كيف يضبطون إيقاع حركة أذرعهم المثقلة

---

(1) Turco وهي تسمية شعبية للمشاة الجزائريين.

(2) raïta آلة صوتية من المغرب.

(3) الناظر هي تسمية تطلق على مراقبي الفرق العسكرية.

(4) الغيطة هي آلة نفخية تستعمل في فن النوبات التقليدية.

بالسيوف. لولا هذا العرض لكان الحيّ فارغاً حتى ظهر الغد، وكان أمكن الرجال أن يتمشوا ويستمتعوا بالأكل في المطاعم ومشاهدة الأسهم النارية. الملازم غريبه وعد الملازم كونيغ باصطحابه معه بالسيارة إلى مدينة الجزائر. إنه لمحظوظ مع كل هذه الحشود، لعثوره على عربة أو سيارة أجرة أو ترام...

علب الذخائر تهتز فوق برادع بغال فرقة المشاة في كتيبة البليدة وسائقو البغال يمشون في فوضى.

«يساراً!... يساراً!...».

– انظر، هنا أيضاً عليهم أن ينادوا في ميدان الخيل مع كل هذه الموسيقى.

يخفف القائد قليلاً، يترك البغال تبتعد، يستطلع الوضع ثم ينطلق بكتيبته. والحشود خلف الحواجز. خمسون ألف قتيلٍ بين عامي 1914 و1918، لقد بالغ بوعلام!

«رأس...»

عند هذه الصرخة يرفع الضباط السيوف ويضرب الجنود الأرض بالقدم اليسرى رافعين رؤوسهم عالياً، وحينئذ نسمع الإيقاع بشكل أفضل.

«...يساراً!...»

يخفض الضباط السيف باتجاه اليمين، فتستدير كل الوجوه بصرامة باتجاه المنصة: ورود وأعلام وحزم من الرايات، صف من قبعات الجيبو وقبعات أخرى مزينة، الوسام الرفيع لرئيس الجمهورية، لحى رؤساء مجالس النواب، المارشال فرانشه ديسبِراي في المقعد الخامس إلى اليمين بعد الوزراء، وبعيداً في الخلف، زهاء عشرين من الآغات والباش آغوات

المتدثرين بالأحمر والمتوهجين بزينتهم، يسترقون النظر بقلق محاولين كسب الإعجاب مع مشاعر غيرة من رفاهية الآخرين ومداخيلهم. وفي الأسفل الأمينوكال الضخم الجاثم فوق جمله. ها هو جيش أفريقيا مع كولونيلاته وجنرالاته وراياته وأعلامه، بفرقته للنوبة وشعاراته وعرفائه، السيد رئيس الجمهورية المستعد لـ... مستعد للموت من أجلكم؟ كما تذهبون أنتم إلى الموت! مستعد للاحتفال بمروركم المهيب على المواخير لأن كل العقوبات سترفع عنكم ما عدا تلك بالطبع التي يمكن لإلغائها أن ينال من النظام.

مشاة، كسكس، مشاة، كسكس...

خمسون ألف قتيل خلال الحرب الأخيرة، هذا صحيح سيدي الرئيس وليس من حقوق مدنية ولا شيء تقريباً، ماذا تقول؟ فقد تحدثتم عن محاولة للثورة في الأوراس[1] في العام 1916، عصيان مسلح تطلب القضاء عليه سحب لواء من الجبهة الفرنسية وقوات تونسية وأسطول من طائرات فارمان: خمسة عشر رجلاً مشطوا الجبل وأحرقوا مشاتي الشاوية[2] الشجعان الذين قالوا لوكيل باتنة[3]: «تحرقون منازلنا في الوقت الذي يقتل فيه أبناؤنا في فردان[4]...» ألم يكن لدى الجمهورية أزلامها؟ إنها دائماً الأوراس التي لا تقهر والأبية التي لا تنتهك! باقي الجزائر لم يتحرك.

(1) جبال الأوراس في الجزائر.

(2) الشاوية هم سكان جبال الأوراس من الامازيغ الجزائريين.

(3) باتنة هي مدينة جزائرية.

(4) كانت نواحي فردان (مدينة فرنسية) مسرحاً لأشرس معركة (من 21 فبراير إلى 19 ديسمبر 1916) في الحرب العالمية الأولى إذ أودت بحياة 163000 جندي فرنسي و143000 جندي ألماني وبلا فائدة لأي من المعسكرين، بعدما شنّ الألمان هجومًا واسعًا تمكّن الجيش الفرنسي تحت قيادة فيليب بيتان من دفعه.

للأسف سيدي الرئيس، فبدلاً من المسكين السيد بيار بورد[1] المخنوق بالأوسمة وربطة عنقه وهذا السافل الباش آغا بن جلول الذي تعرق ببرنسه ليقدم لكم حصاناً من غادا سبب لكم الإرباك هذا إن كنتم تعرفون أصلاً ركوب الخيل كما أسلافكم، ولكن لا: فقد أرغموكم على صعود عربة عادية بجوادين، كيف يمكن أن يكون هناك ديمقراطية أكثر من ذلك، وليس حتى عربة بأربعة جيادٍ كما الذكرى التي احتفظت بها الجزائر مع الإمبراطور نابوليون الثالث والإمبراطورة إجيني، نعم للأسف أنكم لم تتحدثوا مع الرقيب بوعلام وذلك المدرّس النذل من السكان الأصليين في لاربعاء...

«اثبت!...».

رؤوس مرفوعة، رأس السيف على مستوى الكتف، والحشود خلف الحواجز والمنصة على امتداد خمسمئة متر والغبار أيضاً. غيمة من غبار النصر ثم يتلاشى كل شيء، يعود النقيب، لم يكن ذلك سيئاً جداً. التركو أطفال طيبون...

(1) Pierre Bordes هو حاكم الجزائر في ذلك الوقت.

الفصل الثاني
شارع مونتينيْ

شقة باب الواد حيث اجتمعت العائلة لتحتفل بالمئوية الأولى.
البيانو، تحفة الأب ديماتون.

1

فتحت أمه الباب بعد سماع الجرس يقرع مرتين، وبعد تسلقه درج الطابق الثاني في لحظة. «هذا أنت... هيا اخلع ثيابك، فلابدّ من أنك متعب».

منذ أن عين والده في الجزائر في مدرسة الشارع مارينغو، يسكن أهله بالقرب من جادة غيلامين[1]، في حي جديد في شارع مونتينيْ. وتوضيحاً للسكان الأصليين وحتى لأهل باب الواد، أضافوا على اللافتة التي تحمل اسم الشارع: «كاتب فرنسي».

امتلأت الشقة الصغيرة: حايك والخالة كارنيتو، بلقاسم، الخال فكتور وأنجيل ووالده طبعاً. جميعهم بهيئة رسمية بعض الشيء. وعلى الطاولة وضعت قنينة مسكات وكؤوس.

– أيها البمبولا[2]، قال بلقاسم. اقترب لنعانقك.

– تعرف عمن كنا نتكلم، قالت الأم. عن تلك العاهرة، بني المسكين.

(1) Henri Guillemin، (1903 – 1992) هو مؤرخ ومجادل فرنسي.

(2) بامبولا هو طبل يدق عليه زنوج إفريقيا وقد يكون المقصود هنا إما الممتلئ وإما المعربد.

– دعونا لا نبالغ، قال بلقاسم، لا تكون المرأة عاهرة إن تزوجت من مدرّس.

فرقة موسيقى عسكرية يبدو أنها مرت في شارع بوزريعة حيث يتجمع الحشد، انحنى الجيران على الشرفات لمشاهدتها وفتح هكتور باب الشرفة: الممر المؤدي إلى الطريق الفرعية والذي يتخلله، وتحته معمل سجائر جوب لجهة اليسار، وفي مكانٍ أبعد مساحة تبنى فيها بنايات ويدخل البحر في ما بينها وتعلوها الأرصفة، ويتربع مبنى نوتردام دافريك الأصفر على التلة عند كتف الجبل أمام هضبة بوزريعة. طيور سنونو تسبح في السماء المذهبة وتتلاحق مع صرخات حادة ثم تفترق بشكل مفاجئ، ومفرقعات نارية.

– معك حق بلقاسم قالت الأم، مدرّس، أنا أعرف. مهنته ومعاملته ولكن حتى...

– حسن كان طالباً لدى زوجك.

دخل هكتور.

«لو تغني لنا الأم غاسبار...»، قالت الخالة كارنيتو. بين منضدة الطعام والشباك الذي يطل على شارع كافيلييه دي لا سال، البيانو الأسود اللامع الشهير، البلايال[1] القديم الذي لا يمكن لأحد أن يلمسه في غيابه. خلال فرصه في فترة المدرسة الإكليريكية وفي غياب القدمية[2]، كان يعزف عليها ألحاناً دينية تسمعها الأم بنشوة كبيرة ضامة يديها. ولكن خلال الحرب ومع مأذونيات الجنود وفي نهاية حفلات الغداء في الأعياد، كانت أغنية الأم غاسبار التي كان روبير وأبوه يغنيانها بصوت يصل للحي كله، والتي

(1) Pleyel وهو مصنع فرنسي للبيانو.

(2) (harmonium) القدمية هي نوع من الأرغن

يدندنها كل الناس حتى ديزيريه الذي أتى مرة بالصدفة في الوقت ذاته مع روبير، والتي رافقها أيضاً مع الطرق على الطاولة، يرافقهم هكتور بالعزف على البيانو فهو يملك أذناً موسيقية.

من هذه السنوات، بقيت على المدخنة شظايا قذيفة وطلقات عيار 75 على شكل زهور السوسن، وعلى الجدران المكسوة بورق الجدران برسومات الودح[1] الزرقاء التي نجدها في كل شقق الجزائر مع نفس القدور للنباتات الخضراء، وصورة مكبرة لضابط من الزواويين يضع قبعته فوق قبضة عصاه. إنه روبير، بأكمام مزخرفة وعلى ساعده شارتان ذهبيتان وقميص ضيق، بنطال بشرائط عند بطة الساق، وجه رائع وشاربان رفيعان مرسومان مع فرق في النصف. في خشبة الإطار صورة رقيب في المشاة، إنه ديزيريه مع لحية سوداء غضة، وأخرى لهكتور وهو طفل في ثياب ضابط بوجه ممتلئ قليلاً. وفي الجهة المقابلة، بالقرب من البوفيه طقم هنري الثاني المستعمل الذي اشتروه من محل في شارع شارتر مع الطاولة وأربعة كراسي، ومنضدة أدوات الطعام وروزنامة البريد. عندما يكثر عدد الزوار يستعينون بكراسي غرف النوم والمطبخ. في الزاوية المواجهة للبيانو، بين البوفيه والفتحة على شارع مونتيني، مكتب الأب المحتشد بالدفاتر والملفات وكراسات محاسبة والعدسة الكبيرة اليدوية بدرجيه المليئين بالحبر من كل الألوان وعلب ريش سرجنت ماجور[2] وأرياش أخرى دائرية وعودان من الشمع لختم الرسائل، أقلام من كل الصنوف وكل القياسات وحتى صباغ أحمر وأدوات للف السجائر وغلايين قديمة

(1) (pivoine) الودح وهو عشب للتزيين.

(2) Sergent – major وهي ماركة الأقلام الاكثر رواجاً في فرنسا في ذلك الوقت، إذ ارتبطت أسماء بعضها برتب عسكرية في ذلك الوقت.

وحزم تبغٍ من الشبلي وصور من فرنسا (فصور الجزائر كانت في درج منضدة الطعام) وأشياء صغيرة مبهمة وغير مفيدة ونظارات بمسكات من الحديد أو مذهبة.

إنه تاجر سقط حقيقي ديماتون، لا يرمي شيئاً، يخبئ كل شيء.

أما الوثائق فلا، لم تكن هنا. الوثائق كلمة مهيبة ومخيفة محشورة في علبة معدنية - صندوق - مخبأة في مدفأة في غرفة النوم الزوجية مع رائحة ورقها الفاخر، الرق الذي يتلمسونه بورع وكأنه شيء مقدّس: وثائق ملكية روسية لا تعني شيئاً ولا تساوي درهماً، فقد اندثرت قيمتها مع الثورة البلشفية، ولكن ألن يعود القياصرة للحكم؟ فهم يحكون عن تعويضات لصغار الملاكين. وفي محفظة صغيرة فيلالي، هذا الجلد الجزائري الرديء الخشن الذي له رائحة الغنم (هدية من أحد طلبته) وأوراق العملة التي يتم توفيرها. بالمختصر، لا تفتح إلا في حالات محددة ويقفل عليها بمفتاح مخبأ تحت ألواح خشبية تعلو الخزانة. ولكن أي كان يمكنه أن يحمل هذا الشيء ويذهب ويمكن لأي نصلٍ قوي بعض الشيء أن يفتح الحقيبة.

في المنزل المطلّ على شارعين، تشكل قاعة الطعام الزاوية، وتأتي شرفتها أيضاً على شكل زاوية. في وسط الغرفة، اللمبة الكهربائية التي تتدلى بحبلٍ وتحتضنها، كقبعة، ثريا عاكسة للضوء من البورسلان، والتي حلت في البداية محل القناديل التي تعمل على النفط ثم تلك التي تعمل على الغاز. لا قطع نحاسية جزائرية ما عدا صحن سجائر، يوضع عادة فوق البيانو ولكن في هذا اليوم كان على الطاولة بالقرب من بلقاسم وقد امتلأ بأعقاب السجائر، وسجادة واحدة، مجرد مربع خيطت ربما في الجلفة[1]

(1) الجلفة هي ولاية في الجزائر.

وأبعدت عن الكرسي التي كان يجلس عليها الأب كي لا يبلى بنطاله. ولأبواب الشرفات ستائر من التول الحريري الرقيق التي يسدلونها أحياناً خلال النهار تحاشياً لعيون الجيران.

«لا»، قال هكتور، «الأم غاسبار ليس اليوم».

فغالباً كان السيد باليغاند يستبعده: «ليس لديك أدنى فكرة عن نفسك...» ويشعره بأنه منذور لأشياء كبيرة، ما هي؟ لغز. كم ممن يعتقدون أنفسهم منذورين لقدر ما ينتهي بهم الأمر مجرد متقاعدين؟ والده مثلاً أي طموح كان له عندما كان يدرّس الحساب وتاريخ فرنسا للعرب والذين كانوا بالكاد قادرين على تسديد الرسوم الشهرية؟

الجيش يوصل إلى مكان أفضل. وعندما نجبر أنفسنا أيضاً على الكتابة في الشباب الكاثوليكي. صحيفة لا يقرأها أحد؟ بالطبع. لا يمكننا أن نبدأ بالكتابة في أكسيون فرانسيز[1] عندما نولد في روفيغو، ابن من هو بالذات؟ هنا يتدخل القدر على شكل مدرّس وتبدل زوجة شرطي وضعها الاجتماعي وحينئذ يصبح كل شيء ممكناً.

2

- هذه الفتاة لن تدخل بيتي ثانية»، قالت الأم.

- لأنها تزوجت من جرذ صغير؟ سألها بلقاسم. أنا أيضاً جرذ صغير وإذن؟

- هيا، هيا، ليس الأمر نفسه.

---

(1) L'Action française هي صحيفة تابعة للحزب الذي يحمل الاسم نفسه «الحركة الفرنسية» والتي بقيت تصدر بين العامين 1908 و1944. وهي صحيفة قومية ملكية مناهضة للألمان واليهود لعبت دوراً كبيراً في قضية درايفوس التي سبق ذكرها في الرواية.

«نحن نعرف هذا العرق»، أسرت الأم لنفسها، «لا شيء يجمعهم بنا. قذرون وكريهون. رجال؟ هو بلقاسم ربما لأنه تربى عندنا ولكن لو أعدناه إلى لاربعاء مع الأخ الذي تولى إدارة الدكان من الأب فسيعود ليكون مثل الباقين، يلبس البرنس والطربوش ويشرب الشاي بالنعناع ويصوم ويحتفل بالمولد ويتزوج مرة أخرى من مغربية وسط حفل من الزغاريد. لا، لا إنهم متوحشون. أنجيل بالطبع كان سيرغب فيها كثيراً. مغرورون، فتاة فرنسية من هنا، هذا ما لم يسبق حصوله. أحياناً في فرنسا حيث يذهبون للقتال أو العمل قد يحصل أن يعودوا مع فتاة من هناك كما فعل بلقاسم، فتاة لا يرغب بها أحد أساساً. بالنسبة لبلقاسم لم يدم ذلك أكثر من عامين، عندما فهمت المسكينة ما يقدم له... في عائلتنا لا أحد يتزوج من عربي...».

– ستحصلون على البث الإذاعي سيد ديماتون، قال حايك ليغير الحديث. فمنذ أن نصبوا هذا الهوائي فوق شجر الكينا يكفي أن تشتري الجهاز وستكون قادراً على سماع الموسيقى.

– آه الموسيقى، أنا، أنت تعرف... هل تقول ذلك بسبب البيانو؟ ولكني لا أعزف على البيانو ماعدا الأم غاسبار... وهل تعتقد أن جهاز الراديو يمكنه أن يحل مكان الصحيفة؟ ماذا تعتقد بلقاسم؟ حايك اسمع إذن السيد بلعباس. فأنا دائماً آخذ برأيه. للأسف أنه لم يشأ يوماً طلب الجنسية الفرنسية! يؤلمني التفكير بهذا الأمر. عليك أن تقوم بلك على الأقل من أجلي...

– راجع القاموس سيد ديماتون. القاموس الجيد. فانا لدي قاموس ليتري[1]. التجنيس يعني: هو فعل أقلمة عرق حيواني في بلد غريبةٍ

(1) Littré وهو القاموس الفرنسي المعياري والذي يحمل اسم مؤلفه الأول إميل ليتري.

عليه. أو أيضاً سلخ جلد الحيوان لاستحيائه[1]. فعندما تحمل إلى تاجر الفراء جلد ثعلبٍ كي يحوله إلى غطاء سرير تقول له إنه يجب استحياء الرأس. وعن الباكا (هذا النوع من الخنزير في أمريكا الشمالية) يؤكد بوفون «أنه يمكن استحياؤه في فرنسا بما أن لحمه طيب جداً، وتأمين الطعام له ليس مسألة صعبة... سيكون مكسباً مفيداً...» أو تطلب تجنيسي أنا؟ أبداً. لو طلبتها لحصلت عليها. برأيي...».

«سأحتفظ برأيي لنفسي»، أسرّ بلقاسم لذاته. هكتور دائماً في الاتجاه الذي لا يمكنه معه أن يسمع شيئاً. أنجيل وفكتور ملاكان، وحايك لا يفكر سوى بكسب المال من أجل امرأته سليطة اللسان التي لا تتبنى رأيي مهما كان. المرأة الوحيدة في عائلتكم التي تدرس العربية المكتوبة تفضلوا أين أودى بها ذلك: أصبحت جرذاً وتزوجت من جرذ. وأنا بلقاسم بلعباس، ابن القبائل الصغير، التي وبعد أن ثارت على فرنسا آمنت بها، انظروا أين أصبحت: متورني[2]، ابن آوى سقط شعره لشده ما عوى ولم يسمع أحد عواءه ويطوف بثياب أوروبية رثة في مدينة الجزائر التي كانت سابقاً مفخرة العرب والآن تملأونها بضجيج سياراتكم الكبيرة وأبواقكم. وحتى ليس ابن آوى. كلب قبيلي في خدمتكم تدفعون له وتستقبلونه، تعيبه علامة طوقه. محروم. مم؟ من كل شيء. حتى إنه ليس لدينا اسمٌ، نحن العرب. فقط ألقاب بمثابة شتائم: ماعز، جرذ، قناني مختومة، شمام، جبنة حمراء.

(1) استحياء يعني أكسب حيواناً أو نباتاً ميتاً مظهر الحياة، وهو واحد من معاني كلمة «neutralizer» الفرنسية.

(2) m'tourni وتعني المرتد باللهجة الجزائرية.

«عاهرة لأنها تتزوج من باكا؟ في العام الماضي، افتعلت لا دييش ضجة كبيرة جداً لأن الصحف الباريسية اعتمدت كلمة «الجزائريين»: «يجب أن يكون معلوماً» قالت لا دييش في افتتاحيتها على الصفحة الأولى: «أن هذا المصطلح يعني الأشخاص من أصل فرنسي أو أوروبي والذين يعيشون في الجزائر أو ولدوا فيها، فالجزائريون هم مستوطنو المحافظات الفرنسية الثلاث في الجزائر وأولاد هؤلاء الأجيال الشجعان، رواد التجارة والصناعة والعمال الذين أرسوا العدالة وأسسوا الدولة، والجنود الذين أخضعوا البربريين والأدباء والفنانون وناثرو بذرة الفكر الفرنسي وليس أولئك السكان الأصليين الذين تملأ مآثرهم الإجرامية يوميات الصحف الباريسية. لنسم هؤلاء...» حددوا: نحن لا نتحدث عن أشخاص...»... أهالي الجزائر أو أيضاً سيدي[1]، فالخلط ماعاد ممكناً أبداً». ما تسمونه احتقاراً «سيدي» هي الكلمة التي تعني في لغتنا: «يا شيخي». تقولون الفاطمة؟ الاسم المبجل لفاطمة، زوجة النبي. تهينون كل ما هو مقدس لدينا. يا للمسكين حايك، تزوج من هذه المرأة التي ما زالت تسمي نفسها مدام كورنيتو وليس مدام حايك، توهم نفسك أنك تنام مع هذه الكتلة الدهنية بعينها التي لا تنام وبعنادها الذي تخفيه وراء وداعتها الزائفة ومزاجها الحاد، هذه الخنزيرة الشرسة ذات اللحم الرخو والقلب المتحجّر...».

– رأيي يا سيد دماتون، ما أهمية كل ذلك! اسكب لي إذن بعض المسكات. لإنه لذيذ ويشفي من الأوجاع الخفية.

---

(1) ويقصدون بها كلمة «سيدي» التي يتخاطب بها المغاربة.

- تذهب مباشرة إلى الجرح، قالت مدام كارنيتو وهي تمرر يدها على معدتها، تغمض عينيك وتتركه ينسكب.

- مسكات الآباء البيض[1]، بلقاسم. إنه مسكات مبارك.

- أنت أصدقك، لأنك صديق.

- والآخرون لا؟ قال الأب ديماتون.

الجميع بدوا متفاجئين مصدومين.

وشنف هكتور أذنيه.

«الآخرون، لا أقول ذلك سيد ديماتون، بقصد أن أجرحهم. في النهاية أنتم تتذكرون، لقد حاولت... حاولت خدمة فرنسا، سيد ديماتون وكنت أنت شاهداً على ذلك. ربما خدعني حب أنجيل. تحملت كل الإغاظات وتخطيتها، البحث عن الرتب الصغيرة بداية في المؤسسة، ثم في الثكنة وبعدها النزول مع القوافل المتكدسة في حصن تيمقاد[2]، الحرب، الإصابة الأولى، فرق الطامحين، كانوا بحاجة إلينا في حرب شرسة ثم المعجزة! لقاء ميلاني. هنا بدأت فعلاً أقتنع، لأن أنجيل، لم أحبها. هل يمكن أن تحب النار التي تدمرك؟ ميلاني، امرأة لم أسبب لها المشكلات. وفي فردان حصلت على رتبة الملازم، يا للمجد!

«لأنه، هنا بالضبط عدت لأكون من السكان الأصليين. ترقّع زملائي إلى رتبة ملازم أول بحكم الأقدمية، مبا- ش- ر- ةً بعد عام من الرتبة الأولى. وبالنسبة للضباط منا، تمت تسوية ترقياتهم حسب المادة الثالثة من القرار الرسمي الملكي الذي يعود للسابع من ديسمبر 1841 الذي لم

(1) الآباء البيض هي ارسالية مسيحية في أفريقيا، وقد أسسها مطران الجزائر في 1868.

(2) تيمقاد هي مدنية في الشمال الشرقي للجزائر.

يبطلوه يوماً: بطريقة اختيارية فقط، وهو ما كان يمكن اعتباره إطراءً لنا لو لم تحدد إحدى المنشورات الوزارية سن الثالثة والأربعين كحد أدنى لحصولنا على رتبة ملازم أول: بالنسبة إلي تطلب الأمر اثني عشر عاماً لأترفع درجة. كما أن الملازم أول منا لن يتمكن يوماً من المطالبة بامتيازات زميله الفرنسي الذي سيكون دائماً قائداً عليه. فـ «البيكو» لا يمكنهم أن يقودوا سوى «البيكو»، كما أن رواتب ومخصصات «البيكو» تختلف عن تلك التي للفرنسيين. ولا يخفى عليك أستاذي الحبيب، أن معاملة المدرّس منا ليست كمعاملة الأوروبي. فالمدرس من «البيكو» لا يصله الربع الكولونيالي[1]. لم لا أيضاً ربع المستوطَن من أجل تعزيته بأنه منزوع الإرادة...

«وسام الحرب مع ثلاث تقديرات وميدالية عسكرية، وترشيحان لنيل وسام الشرف، ألا يكفي ذلك لكي أصبح فرنسياً، أستاذي الحبيب؟

«في التعبئة العسكرية ربما أكون قد بالغت في حماستي. فالعربُ لا يفكرون جميعهم مثلي، أبعد من هنا. نعم بلا شك كنت متحمساً. لا بل ومنذ العام 1915 طالب لنا كليمنصو بالحقوق التي نستحقها بفضل تضحياتنا. في ذلك الوقت لم يكن سوى عضو في مجلس الأعيان، رئيس المجلس العسكري. ثم تمكن لاحقاً من أن يصبح رئيس حكومة وفرض حاكماً لتنفيذ سياسته ومع ذلك لم يتمكن يوماً من قيادة الجزائر. الرجال

(1) الربع الكولونيالي هو ما يعادل ربع الراتب الاساسي والذي يضاف إلى رواتب المستوطنين فقط، والذي لم يكن في الواقع محدوداً بالربع فقط، هناك بعض الوثائق تتحدث عن خمسة أضعاف لهذا الربع، وهذا ما يؤدي إلى فروق شاسعة بين رواتب المستوطنين ورواتب الجزائريين في زمن الاحتلال.

الكليمونصيون في الجزائر هم مورينو[1] ودورو[2] وفيوري[3] وكتلة اليسار... ولحسن حظنا لدينا رجال لا يقهرون. في 1926 ثار عرب الأوراس فأبيدوا كما حصل لنا في 1871. أي انتصار لحاملي الهراوات، هذه الثورة! ملازم من السكان الأصليين لا يمكن تمييزه عن زميله المستوطن بشيء! أين إذن الـ– ت م– بي– ز؟ لا قبعة عسكرية: طربوش فوق جبنة حمراء[4] مع شارة عسكرية. وميلاني التي كانت تعتقد...

«هنا أيضاً، أنت مسؤول يا أستاذي الحبيب. لقد تغنيت لنا ببلد منشئك شامبانيْ[5] من حيث يأتي هذا البيانو الشهير الذي ساعدتك بإنزاله في روفيغو، يوم كان فوجي العسكري في استراحة في سانت مينيهود، وبدلاً من أن نذهب في مأذونية إلى باريس نزلت في تروي[6] ومن هناك وصلت إلى روثيير[7] والجيبيري كمؤمن يذهب إلى مكة. أعرف كل شيء، المنزل

(1) Emile Jean Morinaud هو سياسي فرنسي ولد في الجزائر ومات فيها (1865–1952) وهو نائب جمهوري اشتراكي، فصل في العام 1898 من الكتلة الراديكالية الإشتراكية بسبب معاداته للسامية، فتحول إلى راديكالي مستقل من العام 1898 إلى 1902 ثم كف عن مناهضته للسامية مما سمح بإعادة انتخابه في العام 1919.

(2) Jacques Duroux هو من اشترى صحيفة «صدى الجزائر» في نهاية عشرينات القرن العشرين من مؤسسها إتيان بيلاك في العام 1912. ولكنه هو من حولها لصحيفة ذات حضور، وهي أول من أدخل التصوير إلى الصحف في الجزائر، وقد كانت لفترة طويلة صحيفة اليسار في الجزائر ومدافعة عن الحوار بين أرباب العمل والعمال، وفي العام 1958 كانت تقريباً الناطقة باسم الثوار في الجزائر.

(3) Henri Fiori نائب جمهوري اشتراكي عن الجزائر لعدة دورات بين 1958 و1962.

(4) واحد من الألقاب التحقيرية التي كان يطلقها المستوطنون على الجزائريين

(5) Champagne هو ريف فرنسي.

(6) Troyes عاصمة مقاطعة أوب شمال شرق فرنسا.

(7) Rothière هي بلد تقع في مقاطعة أوب الفرنسية في منطقة شامبانيْ والتي يشير الكاتب إلى أنها بلدة «المدرّس دي‍م‍ ‍رن» في الرواية.

الجميل المربع حيث درست والبحيرات التي كانت إجيني تريد أن ترتمي فيها والبركة والصليب تحت أشجار الزيزفون الكبيرة، الشباك الذي تركت عليه شمعة مضاءة من أجل إجيني. ساعة الحائط التي تعطلت بفعل ضربة قوية. وأخيراً السرير مع اللحاف المبطن بالريش الأحمر. أمر واحد تعرفت إليه بنفسي، ويمكنني أن أتكهن السبب. المكان يسمى «لا بوتينس[1]» على الأرجح لأنهم كانوا قديماً يشنقون فيه المجرمين بشكل علني متفاخر. في المدرسة هناك مدرّسة شابة متدربة تسمى ميلاني كوليني. ولهذا...

«الحرب. حدثت بلمح البصر. بالنسبة لميلاني لم أكن «بيكو» وإنما بطلاً. تراسلنا وخطبنا وفي النهاية تزوجنا في 1918. ولحسن الحظ لم يشكّل الدين عائقاً بيننا، فهي علمانية، فتاة من الثورة ومن إعلان حقوق الإنسان. اعتقدت أنها تتزوج ضابطاً ككل الضباط، حكيت لها عن بلدي كما حكيت أنت عن شمبانيْ. «سترين، هناك جبال زرقاء مليئة بالعصافير، وتين على أطراف الطرقات وبحر، بحر... جنة عدن».

«جئنا إلى الجزائر.

«في التفتيش الإبتدائي هنأوني ولكنني لم أستطع أن أصبح مدير مدرسة، أو حتى لمدرسة السكان الأصليين، وبدأت ميلاني تستغرب كيف يرفع أناس بلا شأن الكلفة معي لمجرد أنهم أوروبيون...».

3

«انسَ فكتور»، قال ديماتون، «ليست سوى مفرقعات نارية. أولاد يمرحون ولا خطر على عربتك. لستم مستعجلين للرحيل، أليس كذلك؟

---

(1) Potence أي المشنقة.

سنشاهد الأسهم النارية الآن. كل الأسطول في الميناء المضاء أتتخيلون، ماتيلد اسكبي لنا الأنيسون وحضّري لنا العشاء. نعم نعم سنستبقيكم عندنا، إنه العيد. هيا ماري ساعدي أختك. سأحضر قنينة كبيرة. وأنت أنجيل اطبخي لنا شيئاً ما، الأرز الإسباني مثلاً، هكتور يحب ذلك فهذا بمثابة تغيير عن اليخنة. ماذا أقول يا إلهي! هذا صحيح يا بني، إنه حفل عشاء الضباط. أشعل لنا النور لا نرى شيئاً».

كبس هكتور المفتاح الكهربائي فانتشر النور قوياً ساطعاً على العيون، موقظاً في داخلهم شعوراً بالكدر والفرح والضجر معاً، وقد ملأ الغرفة على بغتة بلون أزرق باهت ليتدرج حتى أبواب الشرفات إلى المظلم الذي تتخلله أضواء واجهات المنازل.

– لا يمكن أن نصبح فرنسيين بين ليلة وضحاها، قال فكتور.

– ما رأيك حايك؟ سأله الأب ديماتون.

– حايك أمر آخر فهو ليس مسلماً، قال فكتور.

ساد صمت ثقيل. ترك الأب ديماتون إحدى ساقيه تقع على الأرض مطلقاً تنهيدة. نهض هكتور وذهب ينظر إلى الشارع. وجعل فكتور يمسد جبهته.

– أنت لم تحب يوماً فرنسا يا بلقاسم.

– نحن لا نتكلم عن فرنسا نفسها أنا وأنتم. فرنساكم هي التي عند التجنيد في العام 1914 شغلت الأطباء المسلمين والممرضين من السكان الأصليين. فأنا وقتها دافعت عن فرنساكم، فرنسا السيد ديماتون. وهذه أيضاً كنت لأدافع عنها أيضاً...

– إنكم تصدعون رؤوسكم، صرخت أنجيل من المطبخ. هل تحب

السوبرساد[1] هكتور؟ لقد حملنا معنا واحدة من سيدي موسى...

– أنت مصدوم فكتور. حسناً اسأل هكتور كيف يلفتون نظر جنود المشاة. في أيامي أنا كان ذلك عبر الركل على الأرداف.

– بوعلام نفسه يقول إنه لا يمكن التعامل معهم بغير ذلك. لقد عاش لحظات فقد فيها أعصابه ورمى أسمالاً من مستودعه في وجه مجندين شبان وشتمهم. عند أقل إخلال بالنظام يستدعي المعاون المتهمين إلى مكتبه وهنا ودون شهود، يضربهم بالسوط. تويار يغض النظر. لقد طبقوا دائماً هذه الطرق في جيش أفريقيا والهند. أما مالاسيس فيزعم أننا لو أردنا الحصول على نتيجة...

– هكتور، الأم غاسبار، قال بلقاسم بمكر.

– نعم لَمَ لا، قال الأب ديماتون. هيا إلى البيانو هكتور! إن قلت...

تركت الأم ملعقتها وذهبت لتفتح بورع لوحة المفاتيح. أغنية وثنية ولكن لا يهم. فإنها أنامل ابنها على المفاتيح.

– ماذا إذن سيد ديماتون؟

– لا شيء لا شيء...

«وكأننا لا نعرف»، فكر بلقاسم، «أنه البيانو الذي نشزت عليه الجميلة المبذّرة المرأة المتوقدة إجيني صلاة العذراء، وهو البيانو الذي دُفع ثمنه قرشاً بعد قرش، أو بالأحرى دمعة بعد دمعة، من قبل هذا الرجل العاشق المجنون الذي لم يتجرأ يوماً على تحطيمه (فقد كلفه غالياً) ليقضي في الوقت ذاته على صورة وذكرى عاهرة حقيقية. بيانو يتبع العائلة في كل تحولاتها، بيانو هو علامة الخزي والعبودية، لكنه تحول إلى آلة مقدسة منذ

(1) Soubressade نوع من المقانق الاسبانية الكاتالونية.

أن ارتجل عليه هكتور تنويعات لنشيد باسكال...».

«الأم غاسبار... إن دارت جوقة الحرس...»، دمدم بلقاسم.

ها هم جميعاً يغنون وصوت الأب يرعد. آه، ولكن لا يمكننا أن نميز الصوت ذا الطبقة العالية للخالة كارنيتو والصوت الملائكي للأم والصوت الحاد لفكتور والصوت المكتوم لبلقاسم، أما حايك فيدعي الغناء، ويكتفي بمرافقتهم بتحريك رأسه، لكن لا شيء على شفتيه فهو لا يجرؤ ولا أنجيل التي تكتفي بالابتسام. وصوت هكتور الذي صقله أساتذة سانت لازار من أجل الترتيل الغريغوري وكورال باخ.

ستخبئينا في المغارة

مدام غاسبار...

بالنسبة لفكتور فهذا يذكره بجعير جنود المشاة في الحصن الوطني، أما حايك فيقول في سره إن الفرنسيين أناس مرحون غزوا العالم بالقذائف والأغاني. اعزف بكل قوتك على هذا البيانو الذي خربته رطوبة البحر، اكسره...

كأس أخرى الأم غاسبار، كأس أخرى...

تزوجت مارغريت حسن، حصل ذلك على مدار ثلاثة أيام، زواج عربي. تناوبوا على قرع طبول الزنوج. هل كانت فرساً بنجمةٍ على جبهتها هي التي قادتها إلى زوجها؟ هل ارتدت ثياباً مغربية، سترة حريرية مزينة وسروالاً تركياً؟ هل غطت رأسها بالحجاب؟ لم يذهب حسن لاصطحابها من لاربعاء، ما كان الخال أيمي ليسامح يوماً على ذلك. إذن أقيم الحفل في عين طاية في بيت أبيه هو مع فرقة من الكمان وسط دخان البخور وخشخشة الملح في النحاس. لابدّ من أنهم أجلسوا مارغريت على كرسي

محاط بالورود والأنوار وغطوها بوشاح كما... أنه هو، الحقير، لابدّ من أنه ذهب إلى حمام مغربي ليتدلك ويحلق ويتعطر. ولابدّ من أنهم أتخموا بالمشاوي والكسكس والحلويات المصنوعة بالسميد والعسل والتمر اللزج.

كأس أخرى، لم يتأخر... بعد الوقت!

الوصلة الأخيرة ويكفي. انهض. تصفيق وصراخ وقرقرة. في خضم جلبة المدينة في العيد، لن ينتبه أحد لما يحصل في منزل عائلة ديماتون. موسيقى وغناء في كل مكان، وألحان الأبواق والمفرقعات النارية، في كل مكان ما عدا القصبة وأحياء السكان الأصليين.

– لا ينقص سوى روبير، قال الأب ديماتون.

– وهذا المسكين ديزيريه دائماً ننساه، قالت الأم.

نعم ديزيريه، والذي ربما، وهو الذي له مهنة أكثر قسوة من مهنتي، سيحتفل ربما بالمئوية بقيادة قطار رئيس الجمهورية إلى القسنطينة، مع رفع الأعلام على مقدمات القاطرات. مَ يشكو هكتور، هو الذي كل شيء بالنسبة إليه مسهل؟ الدراسة لا تتعب، والعروض عندما تكون ضابطاً وليس لديك ما تحمله على ظهرك ويحضر لك معاونك سريرك...

رفعت الأم الغطاء عن الطنجرة.

– صحنك بلقاسم.

– لا، لا، ابنك أولاً، فهذا على شرفه. نحن، أكمل مع غمزة بالعين، نكتفي بالغذاء الروحي. بالضبط ما أقره لنا نابوليون الثالث مع مرسوم المجلس الأعلى للعام 1865: الحق بأن نصبح فرنسيين من

دون أن نخسر وضعنا القانوني الشخصي كمسلمين.

– أنتم دائماً تبالغون بعض الشيء، قال فكتور.

– تطلبون إعطائكم كل شيء، أضافت الخالة كارنيتو. وعندما تستقرون في منازلنا، سنذهب نحن للتسول في ساحة الحكومة وسيتم استقبالنا بكل طيبة خاطر. أرأيت يوماً عربياً يخرج قرشاً من جيبه لمسكين؟

– هيا هيا، قال الأب دبماتون، دعونا من التشاحن، إنه يوم عيد. سأرفع كأسي...

الجميع في كل مكان يرفعون الكؤوس.

في القصر الصيفي رئيس الجمهورية والحاكم والوزراء والنواب وأعضاء مجلس الشيوخ والمندوبون الماليون والباشا آغوات والأمينوكال. وفي شارع إيسلي وشارع ميشليه سكان الأحياء الحديثة. وفي الشقق المرفهة لمنطقتي الأبيار وحي مصطفى الفوقي، جميع آل غريبه مع الخادمات الجزائريات والمعاونين. وفي مقاهي وشقق باب الواد وبلكور. في كل مكان ماعدا القصبة. ونبيذ محلي من كل الصنوف الأبيض والأحمر والوردي من معسكر والمدية ومليانة وطارق وجبال هقار، نبيذ «لا تراب دو بورغو»، و«رويال كبير» من صنع فردريك لانغ[1]، ومسكات الآباء البيض والأنيسون من فيوري. الأمينوكال وبعض المتدينين من الباش آغوات اكتفوا بالسلكتو[2]، تفه! لمَ لا يشربون الحليب؟ هل يمكننا أن نحتفل بمئوية الحملة العسكرية بهذا؟ في كل مكان، هناك أحد بقلب

(1) Royal Kébir Frédéric Lung Alger هي ماركة نبيذ أنشئت في الجزائر العام 1945.

(2) Selecto هو مشروب من علامة «حمود بوعلام» صودا مستخرجة من التفاح أو من أسيتات النشاء، وهو شراب شعبي جداً في الجزائر.

مفعمٍ بالفرح يعلن: «سأرفع كأسي...».

«... للجزائر وفرنسا ولاتحاد الشعبين».

... للحضارة والرفاهية والعدالة. النقيب مالاسيس يرفع كأسه من شراب بيرنود متذكراً بشكل غامض الكذابين والشاذين واللصوص، النقيب دو لا تور يرتشف الويسكي اللاذع مع أميرات روسيات مبعدات، أو مع قدماء المستوطنين من جيش رانغل. تويار وبولونجي هذان اليسوعيان ربما ذهبا معاً إلى الماخور كي يغيرا الجو عن منازلهم العائلية في المدية، ولن يعرف أحد بهما، سيكون ذلك سرهما المشترك وحدهما.

لم تشرب الأم شيئاً وأنجيل بالكاد شربت شيئاً، ومثلها الخالة كارنيتو، فهما الرزينتان في عائلة باري، حايك يفضل الشامبانيا حالياً... فكتور يحب الوردي المخلوط بماء الآبار. «لقد تحدثوا كثيراً عن مدينة معسكر ولم يفعلوا ذلك إلا للنيل من أهميتنا، نحن صانعو متيجة...». أما هكتور، فلم تكن المدرسة الإكليركية لتعلمه الإسراف في الشرب. في النهاية لم يتبق سوى الأب ديماتون وبلقاسم ليعبا النبيذ الأحمر اللاذع، ويمكن أن تكفيهما قنينة واحدة.

– بلقاسم، أنت محق، لكنني لا أفهم لماذا وفي لحظات معينة تطلق... تطلق شرراً، نعم إنها الكلمة.

– أنا لا أطلق شرراً.

– حسنا، أكمل الأب ديماتون بعينٍ دامعة، سأرفع كأس الأخوة. أنت أيضاً هكتور عليك أن ترفعه. فالعسكري يشرب.

نعم، وجه ملاسيس يحتقن أحياناً عندما يسرف في الشرب، وتبرز رقبته كرقبة الثور من ياقة القميص، أما النقيب تويار فيمضمض النبيذ

الأحمر في فمه كخبير.

- لا تحاول أن تنقل إليه عاداتك السيئة، قالت الأم وهي ما زالت محتقنة غضباً.

- لَمَ تعتبرينها سيئة؟ فالنبيذ الأحمر يمدني بالفرح. هذا يذكرني بالعنب الأحمر وأسيجة البرقوق مع الحبوب الزرقاء، سجاجيد ذهبية وأرجوانية. بلادي، نعم. والكهنة، هم أيضاً يشربون، ليس فقط في القداس. وفي ولائمهم يشربون جيداً ويغنون أشياء أخرى غير فيني كرياتور[1]...

(1) Veni Creator Spiritus هي نشيد ديني شهير جداً ويعني «تعالي أيها الروح القدس الخالق».

الفصل الثالث

الكونتاتة[1]

أوليس الارتباط بفرنسية، خيانةً؟

1

لم يكفّ عن النظر إليها مردداً في سره قول أبيه: «هذه جوهرة، بنيّ. لا تخذلها، ستسبب لها ألماً كبيراً...». جوهرة مشعة إلى درجة أنه لا يستطيع تحمّل وهجها، أم أن خنوعه هو السبب؟ يخفض عينيه لكي يرى بشكل أفضل، وبشغف، وجهها البيضاوي الصافي، الأنف المعقوف قليلاً، الفم، حب وقُبَل، العينان نجمتان بلون البحر العميق، وتحت القبعة اللباد الشعر الأشقر المتموج قليلاً والجبهة التي واجهت بها إرادة آل باري.

وفي النهاية تناولوا العشاء في حانة ماسكلو في شارع الحرية. ليست بمستوى غروبر ولكن يمكن لمدرس تغطية تكاليفها. كما أنها قريبة جداً من الحديقة العامة على بعد خطوتين من دار الأوبرا.

في الفندق المكتظ بالعائلات المحتفلة بيوم الأحد، كان هو العربي الوحيد. والجميع ينظر إليه مستغرباً تصرفه على سجيته في المكان. وفي مواجهتهما، ضابط شاب وزوجته يجلسان بصمت محاولين تحاشي النظر إليهما. وفي كل مكان في الخارج جنود من السكان الأصليين بالبزات الفرنسية. وعند الخليج أسطول مضاء، وعند الجادة موسيقى وفي السماء

(1) الكونتاتة هي إنشاد كورالي ديني أو غير ديني.

نجوم.

أومأ بيديه حنقاً لمشاهدته خلف الزجاج ماسحي الأحذية الذين ينتظرون خروج الزبائن ليهرولوا ويمسحون أحذيتهم. واحدة من روعات الجزائر: أن تتمكن من تلميع حذائك بقرشين. أحد مكونات السوق الشرقية، تلك العصابات من الأولاد الذين يدورون بين الطاولات على شرفات المقاهي وحول صالات العرض، وبعد ذلك يأكلون فضلات الأسماك في سلال المهملات أو السردين مع الخبز، وينامون بين البراميل على رصيف الميناء. علامة العبودية والبؤس، فهم يحتقرون معهم العرب أجمعين. ولكن هو، حسن، الذي يريد العزة للعرب ألم يدمر كرامته هو؟ بزواجه بمارغريت ألم ينتقل إلى صف الغالبين؟

لا شيء مشتركاً بين زواجه وزواج بلقاسم. «أين ذهب ليبحث عن هذه المرأة القردة؟...»، قال والد حسن عن ميلاني. فأي مدرس من السكان الأصليين يمكنه خلال عطلة في العاصمة أن يجد واحدة مثلها. في حين أن ابنة مستوطنين من هنا... وليست إسبانية ولا مالطية. لا. فرنسية شارك أجدادها في الحملة على الجزائر في العام 1830...

مرة أخرى يؤشّر للنادل، وهو الآخر من السكان الأصليين، الذي يقترب بحماسة ممزوجة بالنفور، ويرفع الصحون ويسجل طلبية الحلوى بعد الطعام: بوظة للسيدة وبرتقال لهذا... لهذا الشخص. ماذا بالضبط؟ ثم ذهب باتجاه أمين الصندوق الذي همس لمسؤول الفندق. في الأوازيس وبسبب تدخل بلعيش، مالك غانيْ بتي، نجح بالحصول على غرفة وكانت الأسوأ: غرفة صغيرة تطل على الباحة في حين أنه كان يريد واحدة تطل

على البحر، فقد كانوا ليراعوا باش آغا أكثر منه. «أأنت من هنا؟»، من أين تريدونه أن يكون؟ من لاربعاء. «و...» والسيدة أيضاً. هنا حتى عندما يلبسون على الطريقة الأوروبية، يشمون عن بعد رائحة السكان الأصليين وينفرون منهم. بالنسبة لليهود فقد اكتمل اندماجهم: ما زالوا يحتقرونهم ويتكبرون عليهم ولكنهم بحاجة إليهم. فلديهم رؤوس أموال ومصالح وعقارات. أما العرب ومع صيتهم كمستوردي خرق وأسمال يبقون فئة محتقرة، ودينهم، بالنسبة إلى الأوروبيين، يعزّز عيوبهم وتعصبهم وجهلهم.

بالنسبة إلى مارغريت، العيد هو فيها هي، تردد داخلها اسمها الجديد «السيدة بن عامر» وبتبجح: «تماماً، أتريدون أن تعرفوا كل شيء؟ أمي كانت من آل باري، نعم كانت لأنها توفيت. ليس بسبب زواجي. وأنا وزوجي نعمل في التدريس». مع لكنة خفيفة للفرنسيين هنا حتى لا يخلطوا بينها وبين ميلاني كولليني. يواجهونها بالدهشة. الحارس يرد على أسئلة مدير الفندق ويعرض له بطاقة الشرطة. «كما أقول لك أستاذ. وباحتقار. لكن لا يمكنني أن أحرمهما من الأغطية. أنا أعرف جيداً هو ينام من دونها ولكن هي... في النهاية: الجنسية فرنسية...». زوجته هو، ماذا إذن؟ هي أيضاً من السكان الأصليين. «نعم ولكنه مدرّس. في المبدأ فهو متحضر، مدرّس».

فيهز صاحب الفندق كتفيه مستسلماً.

عند سماعهن بخبر زواجها، توقفت بنات خالها اللواتي كن حتى ذاك الوقت بمثابة الأخوات لها، عن التعاطي معها. والدتهن تبكي عند كل فرصة وأقفل الأب بالتبني أيمي باري على نفسه بالصمت. كرهت،

كر– هت، أتعلمون ما معنى كرهت؟ دمها وعرقها وموتاها، هذه الكلمة الكبيرة، مع توكيد عليها، وبعدها يمكن قول كل شيء. موتاها وإلهها. إذن وبما أن الكنيسة لا تعترف بزواج الكافرين وبما أنهم لم يكونوا حتى متأكدين من زواج في مجلس الكنيسة... لم تقم مراسيم دينية ولا فستان أبيض ولا تاج من زهور البرتقال، ولا إعلان ولا حفل زفاف. لتحاشي الفضيحة في قرية، مروا سريعاً على مركز بلدية الجزائر، مع الامتعاض الذي لم يفلح والد حسن والشهود وكل العرب في إخفائه، ما عدا واحد، شاهد من جانبها وهو زميل لها. أما في ما يخصّ الغداء فقد ترددا كثيراً. أيذهبان إلى مطعم في القصبة أم في شارع شارتر؟ استفزاز من النوع الآخر، على الجهة النقيض من الزواج بملحدة. اختارا في النهاية «قاعة خاصة» في لا بيشري.

حبيبتي لا نريد أن نجعل هذه الأفكار تسيطر علينا، فلنثر عليها.

«هذه الغنائية، قالت، أتساءل...».

بحركة استسلام، نظر إلى ساعته ونادى النادل وسدد الحساب. نهضا وحدج حسن الضابط بنظرة متشككة، إنه ملازم من الزواويين بقبعة حمراء ذات أهداب سود، جالس على طرف المقعد. لماذا يحاول الجميع تجاهله؟

«لو التقينا هكتور»، قالت مارغريت.

ذكر اسم هكتور أزعجه. جال بنظره على أروقة شارع القسنطينة وجادات الحديقة. على الطريق المؤدية للأوبرا حشد من الناس، مع الاقتراب من أشجار الزينة المكونة من النخل والموز عند موقف الترام ينظر شزراً إلى المدعوين الذين يتسلقون الدرج الكبير. ألم تحب مارغريت

هكتور الذي يتكلم عنها وكأنها أرض تعود ملكيتها إليه؟... «كل الفرق يا عزيزي: بالنسبة إلي، هي سمائي».

الأبواق. فلنسرع. ادخلي، ادخلي...

رجال شرطة، طابور من السباهيين الذين أشهروا سيوفهم والكشافات الضوئية. يعرفون أن هناك مشاركين من السكان المحليين في العرض وهذا ليس غريباً. ولكن مع مارغريت وإلى جانبها... دائماً الكلمة نفسها: مستحيل، إنها مجرد صدفة... من يحسب أن فتاة مثلها يمكنها أن تخرج مع... إلى جانبه وسط الجماهير، الجسد الرقيق لمارغريت، رقة تخبئ نيراناً من الغضب، يحيط كتفيها بحركة احتواء: «أنت طموح جداً، أنت...» كانت هذه من أولى الكلمات التي قالتها له بعد أول درس لها في العربية.

كان بلقلسم ينصحه دائماً بأن يخفّف من عنف طباعه. كمن سلخ حياً، يعيش تحديات خيالية. هكتور وأمثاله لم يكونوا بهذا السوء، وحتى إن بعضهم كانوا كرماء. لديهم أخطاؤهم الداخلية، فهم يعتبرون أنفسهم في بلادهم التي احتلها العرب. ولديهم هم أيضاً أهينت كرامة الرجال. فطالما حدثه بلقاسم عن نجار مسنّ من روفيغو، أحد المتحدرين من ثورة 48، ممن ناصبوا العداء للإكليروس والتي تزوجت إحدى فتياته من شقيق هكتور. فهل كان ليزوج واحدة من فتياته الأخريات لواحد من الماعز؟ «الكثير من زملائي الفرنسيين»، كلم نفسه، «يشعرون بصداقة حقيقية معنا. فالذي شارك في عرسه كواحد من الشهود لم يخف من التحدي. لغاية اللحظة التي يفيقون فيها على من نكون أوعندما يتبدلون. السيد لويس برتران أستاذهم احتفل بدم الأعراق، وبسعادة الدمج بين الدم

الفرنسي والإسباني والإيطالي والمالطي ما عدا دمنا نحن، دم ماسحي الأحذية وخدم المطاعم...».

كورباي جالس تقريباً في الصف الأخير من شرفات المسرح، تحية لزملاء دراسة قدامى. في المرة الأولى التي أتوا فيها إلى الأوبرا، الكنبات والإطار الأسود المخملي للسلالم، الغرفة التي كان يدوزن فيها العازفون آلاتهم، حجرات الإعداد في المسرح المزينة بأوراق الجدران والأعلام، ستارة المسرح المذهبة والأرجوانية، ضجيج الأصوات، الأضواء، الثريات، فيض النباتات الخضر. يا لذاك العالم! كانوا يختنقون. الكثير من أصحاب الرتب العسكرية.

أمسكت يده وابتسمت لما يحمله داخله. كم أنه مختلف عن هكتور! أقل قسوة، مفعم بسحر العنف الكامن، مسكون بحلم ستترك نفسها تُحمل على أجنحته. لدى فكتور، وعلى الرغم من أنه من آل كونيغ ولكن لديه كبرياء آل باري وثقتهم بامتلاك الحقيقة. الأرض مع آلياتها والبحر مع أساطيله وقريباً السماء مع طائراتها... والنساء، كل ذلك يجب أن يكون لهم. هي أيضاً كانت تشعر بانتمائها للنخبة، للأقوياء والمستقيمين وصولاً حتى اللحظة التي ظهرت لها حاجتها إلى معرفة ما هو مخبأ والذهاب إلى آخر الأسرار، أهناك كبرياء أكثر من ذلك؟ لتعرف في النهاية مسبب المسبب الذي يغفل الآخرون عنه، والعلة الحقيقية لكل الأشياء. قبلها، ولدى آل باري، أحبت أنجيل بلقاسم: مغامرة لا يحكون عنها إلا تلميحاً، انقلاب غير مناسب، حالة غير مفهومة. شكراً يا إلهي، إذ عادت بعدها الأشياء إلى انتظامها.

2

عرض لها حسن البرنامج، الرابع من مايو 1930، أوبرا الجزائر، غنائية: على شرف الجزائر، قصيدة للسيد تيو، موسيقى السيد ماريوت رئيس معهد موسيقى أورليانز، كورس بقيادة السيد أوديزيو، أوركسترا الشرف بقيادة السيد أكا، بالاشتراك مع الآنسة نينون فاللين من دار الأوبرا الكوميدية، جورج بيتي من دار الأوبرا، الآنسة ليلا جينيللي نجمة الكوريغرافيا في الشانزيليزيه ومحي الدين هذا الذي نعرفه، التينور العربي.

بصوت منخفض قرأت الأستروفية[1] الأولى:

الجزائر! في هذا اليوم اسمعي! حولك
كل شيء يستفيق ويختلج، الجميع يحكون ويتذكرون:
هذه الضجة الكبيرة هي فعل إيمان
تعلو متقدة وقوية، نحو فتنتك الجديدة...

«شعر رديء»، قال حسن، «لا أتحدث عما كان بإمكان عربي أن يكتبه... هناك الكثير من الشعراء في فرنسا. مات بيغاي في الحرب، كان بالإمكان أن يطلبوا، لا أعرف، من آخرين... وحتى من لويس برتران. تيو هذا، حاكم فخري، مدير سابق للشرطة... لو كان ديروليد ما زال حياً لكان...».

ويختارون موسيقى ماريوت، عندما يكون هناك رافيل وميلو وهونيغور. سانت ساينس الذي كان ثمة جادة في الجزائر تحمل هو أيضاً اسمه توفي.

«إيشربرخت يدير أوبرا الجزائر. اسمه ليس حتى مدرجاً في البرنامج.

(1) الإسيتروفية هي جزء من قصيدة.

فأنا أعرف مؤلفاً موسيقياً موهوباً هنا: باريِس. بالتأكيد ريفي لقيادة أوركسترا الشرف... أو أنه كان علينا أن نختار...».

وانحنى عليها.

«... الأكثر بلاهةً. إنهم مريحون البلهاء. كما بعد الحاكم فيوليت، الآخر بيار بورد هذا». تكلفت الضحك إذ كانت منزعجة من تلفت الناس إليهما. بعضهم يتهامسون «إنها عاهرة...» تخيَّل. بالنسبة للعرب الذين بامكانهم أن يخمنوا كل شيء بنظرة واحدة كما بالنسبة للآخرين، دون شك: استهجان واحتقار. في مساء تحتفل فيه الفنون بتمجيد ملحمة الأخوة! في الأساس إنه أخ إسماعيل، ابن إبراهيم مثلنا، ما الفرق؟ «فتاتي، سيكون أقوى منه، سيغلبه طبع أسلافه ذاك، سيتزوج من نساء أخريات ويتركك. لا تصدقي وعوده: إنها ريح، ريح من صحرائهم. سيجعلك تنامين على الحصير».

ينهضون ويصفقون. يظهر رئيس الجمهورية في حجرته، قصيراً جداً، برأسٍ كامل البياض، وشاح أحمر كبير يغطي صدره، من المفترض أنه مرهق بعد هذا اليوم الطويل من الانحناء والمصافحات وسماع الخطابات التي تقرأ على صدى الصنوج والطبول! صف من البزات العسكرية، والثياب المزخرفة، والبرانس الحمر المربكة بزينتها، والأمينوكال المدفوع كجبل أسود إلى الصف الأول. افتتحت الستارة على ديكور سيدي فرج فتضاعف التصفيق. متدثرةً برداء مثلث الألوان بين أربعة من جنود المدفعية، غنت الآنسة نينون فالين النشيد الوطني.

ليروِ الدم القذر...

كل شيء يتداعى تحت التصفيق. تسدل الستارة لتعود وترتفع على

مشهد الآنسة نينون فالين التي كان صدرها الوافر يخفق تحت الحرير ثم تسدل مرة أخرى على جنود المدفعية المتصلبين في مكانهم بأسلحتهم المصوبة نحو الحضور. يجلس الجميع. يرمي الرئيس غاستون دوميرغ لباسه الإحتفالي[1] إلى الخلف، هس، هس! خففت الإضاءة. لترتفع هنا الستارة على الكورس: البرنامج يشير إلى قيثارة الجزائر، أولاد الجزائر، جوقة باب العود الموسيقية. آلات كمان تصعد كالآذان وتتكرر بإيقاعات متلاحقة. ثم كروشندو طويل وفجأة:

الجزائر! في هذا اليوم...

الأستروفة الأولى ثم الثانية بتيمة شرقية تصعد بضجيج عال، «*إن سي بِمل*»[2] كما يشير البرنامج. فعل الإيمان هو تيمة العمل.

«لن يبخلوا علينا بشيء»، قال حسن متثائباً.

لم يكن يحق للسيد غاستون دومرغ أن ينعس فالضجر جزء من مقتضيات مهمته. عدّ حسن إستروفات الغنائية: ثلاث وثلاثون في جزأين ولكن البرنامج يشير لعدم وجود وقت مستقطع.

إلا أنه في البداية ومع إلقاء نظرة على الجمع في الأسفل الذي تغص به المدرجات والممرات، جنرالات وأعضاء مجالس شيوخ ووزراء برؤوس ضخمة لامعة مع نساء بفساتين السهرة المفتوحة عند الصدر وعقود اللؤلؤ التي تخفي بشراتهن المترهلة، كبار المستوطنين ببزاتهم الرسمية، في حين غاب صغارهم. مثل فكتور، سيقرأون الخبر في الصحف ويضفون البريق على ما كان مجرد حفل كئيب.

---

(1) Queue de pie وهو لباس احتفالي ويعني حرفيا بالعربية «ذيل العقعق» ويتألف من سترة قصيرة من الجهة الأمامية وطويلة في الخلف على شكل ذيل.

(2) Si Bémol وهي (B flat) بالإنكليزية وهي الدرجة الصوتية الخفيضة في الموسيقى.

تساءل حسن أين هي الجزائر. في الغناء الذي بالكاد يصل من البحر، ونباح بنات آوى في الجبال، والمقابر التي ما زالت تحتفظ برطوبة الشمس التي سطعت فوقها طيلة اليوم؟

إنها هنا، بجانبه، يتنفسها ويلمسها.

إنه ليس هكتور بالطبع، ولكن في الصف العاشر من مقاعد الأوركسترا، جلس الملازم غريبه ممثلاً أباه الجنرال المتقاعد، في لباسه المدني لا العسكري، مع بدلة السموكنغ هو رجل حقيقي. إلى جانبه فتاة باهرة ولكنها جامدة بعض الشيء. كان بإمكانه أن يرتدي بزته الزرقاء السماوية وبنطاله الأحمر ولكن كيف كان سيتميز بها من دون زينتها؟ فبدلة السموكنغ أكثر تميزاً. كما أنه مع السيف الذي سيحمله ويودعه في حجرة إيداع القبعات في المسرح سيبدو مضحكاً، نعم كيف يمكنه أن يقود سيارة مع سيف؟ هل سيرميه على المقعد خلفه؟ في حين أن بدلة السموكنغ ستجعله يبدو أكثر فخامةً.

في الحقيقة، ما يزعج قليلاً الملازم غريبه (يمكننا أن نقول ملازم أول منذ الآن بما أنه سيحصل على شارته الثانية في غضون خمسة أشهر) وهو ما يكاشف به أباه أحياناً تلميحاً، هو عدم مناداته دو غريبه. لأن اسمه يوحي بهذه الإضافة، وإضافة دو على اسم عائلته له وقع جميل. وفي الجيش، فبالنسبة لمن يخرج من سانت– سير... والجد الأول كان كاتب عدل، فهذا يؤهله للقب النبيل. فحتى في الجزائر حيث يتصرفون طوعاً بطريقة سوقية، ما زالت الأرستقراطية حاضرة...

الملازم أول غريبه لا يعرف أن جدته مارغريت، زوجة الكولونيل كادت أن تدفن مع الماسة الشهيرة. لو ماتت قبل زوجها، ما كان لينزع

منها الخاتم.

ولأنها وبعد عامين من وفاة زوجها، عجزت عن البقاء وحيدة، انطفأت وسط الحرب لابسةً خاتمها، في الوقت الذي كان ابنها ألكسندر قد أحيل للتو إلى وحدة محلية وحصل رغم ذلك (من أجل هيبة الرتب أمام السكان المحليين) وبشكل مؤقت على نجوم جنرال فرقة. خوفاً ربما من أن يُسرق منها؟ واحسرتاه، واحسرتاه... «لا يمكننا أن نترك هذا معها»، قال ألكسندر. أقبضت أصابعها المتيبسة على الخاتم ولزم لنزعه قص حلقته الذي عملوا لاحقاً على إصلاحها ووصلها؟ بدورها لبسته زوجة ألكسندر، هذه الوريثة الغنية.

آل غربيه اليوم: قصر وسط كروم وهران ودارة في مصطفى العليا. إلا أن لا قيمة حقيقية في الجزائر إلا لما يطل على شارع الجزائر.

من أين أتت إذن هذه الماسة؟

من الجدة؟ ليس بهذه البساطة. من آل رواي، اسم لا يعني لكم الكثير ولكن بالنسبة لنا، نحن العرب، لم ننسه. لنر هذه البارونة سابين دو تونير، التي رحلت هي الأخرى، أي مجزرة هذه في الربع الأول من هذا القرن! هذه المرأة صاحبة الكلمة المسموعة لدى الحكام، ربة الفن المتدثرة بالأوشحة البنفسجية والمراوح من ريش النعام، امراة أصلية تكره الشمس. آه، هذه المرأة، صديقة الأمراء في المنفى، حامية الفنون، التي كان لها مأتم مهيب! كبار الساسة في الجزائر (عائلة تونير اسم كبير) والجيش (كون الأبناء من ضباط الخيالة) وأهل الأدب والموسيقى. ولكن مما اعتاشت كل هذا الوقت؟ عندما تقاسم الورثة تحف الزينة والنباتات

الخضر والحرير والزينة النسائية ومظلات التوسة[1] وكان عليهم أن يوزعوا الكلاب، علموا أن الخدم وهم من السكان الأصليين بالطبع، لم يتقاضوا رواتبهم منذ خمس سنوات. نعم ولكنهم كانوا يعتبرون أفراداً من العائلة وفي المناسبات الكبيرة كانوا يتدبرون الأمر حتى لا تشعر البارونة بأي نقص.

إذن عزيزي الملازم أول غرييه، هذه الألماسة التي تنتقل اليوم من جيل لآخر، والتي أقسمت أمك على أن تقدمها لك كخاتم زواج في المستقبل، تنحدر إليك من آل رواي: من ذاك الجنرال، الزوج الأول للبارونة. أتعرف كيف ترك هذا الجنرال الجيش بدلاً من الحصول على نجمته الثالثة فوق جبل من جثث العرب - وهو أمر لا يمكننا أن ننساه؟ انحنى حسن على مارغريت:

«الاحتلال، سأحكي لك قصته أنا...».

اهربي يا أيتها العصور السود! من فرنسا، بعبقريتها،
ومن هذه المحبوبة التي تخضع للقدر...

قد تكون من أعمال فكتور هيغو غير المهمة. نحن في العام 1930. إنها أعمال تيودورية[2].

بعد الراقصة تأتي اللوحة المغربية: توليف وتحول إيقاعيين، ارتفاع في صوت الباريتون والأوركسترا حتى الانفجار الكبير. استراحة. قرع الطبول ونفخ النفير، يليه لحن بوقي خفيض ثم صخب الكورس. هذا هو

(1) التوسة هو حرير هندي خشن تنتجه دودة قز برية.

(2) نسبة إلى تيودور دو بانفيل (Théodore de Banville) وهو شاعر وناقد وكاتب مسرحي فرنسي (1823- 1891).

أسطول الأميرال دوبريه عند المرسى، أمام سيدي فرج، فجر الرابع عشر من يونيو، المواكب عند الكثبان وطلقات المدفعية...

ذكرونا بهذا اليوم، تفاخروا بأبواق النصر!

... الأفواج تتقدم في البحر، السيد بورمون يقفز إلى الشاطئ مع قيادته العامة دون أن يتلفظ بأي كلمة تاريخية، يترك فقط حفنة رمل تنسل بين أصابعه.

– هل تعلمين على الأقل كيف بدأ ذلك؟

– نعم، بضربة المروحة...

– هذا ما تعلمناه. فقد قرأت حتى آخر حرف الإصدار الجديد عن احتلال الجزائر لغابرييل أيسكيه، أمين المكتبة الوطنية. يجب القراءة بين السطور: ضربة مروحة بسبب سبعة ملايين قطعة ذهب تدين بها فرنسا منذ الثورة لسموه داي الجزائر مقابل تموين حملة مصر والجيش في الرين بالقمح. غضب الداي إذ خسر أساساً مليونين كتمريرات من تحت الطاولة: كلفة تقديم المطالب أمام القنصل الفرنسي وكاتب العدل المكلف بشؤون باريس وعمولة لبعض النواب ومسؤولي المجلس الاستشاري، من دون احتساب دوق تالايران. ولكن في النهاية اعترفت الحكومة بالداي كـ «دائن للحكومة الفرنسية»، وبالنسبة للخمسة ملايين المتبقية والمطلوبة، فقد كلف الداي مؤسسة بوشناق وبكري، وسيطه المحترم في الاستيراد والتصدير، بتقديم اعتراض، على شكل ادعاء. رجل الخير هذا أي الداي، استدعى مرة أخرى القنصل وسأله عما استجد في

هذه القضية، وكان قلقاً لأنه كان يعاني من مصاعب مالية فجيشه يكلفه الكثير والتجارة ما عادت تعود عليه سوى بأرباح تافهة، خاصة أنه يعلم أن هذا النذل يخدعه. ولما كان الآخر يتظاهر بعدم معرفة شيء ويلعب دور البريء، فقد عبّر الداي عن نفاذ صبره، هذه هي ضربة المروحة. لأول وهلةٍ أبدى القنصل جبناً كبيراً حتى إنه لم يجرؤ على الاعتراض. أين كان عقله؟ كان على أحدهم من الحضور أن يقترح عليه... وهكذا يصلنا بأنه تم انتهاك كرامة فرنسا بشخص مضارب تافه، ابن مشرقي[1] وقنصل بالصدفة، الذي لم يكن يسكن حتى في الأماكن المخصصة للدبلوماسيين في عهد الوصاية على العرش. هنا لم يعرف السيد إسكيه كيف يخفي ارتباكه. ضعي نفسك مكانه: شتيمة استغرق الرد عليها ثلاث سنوات، حرب تندلع كقضية شرف في حين لم تكن سوى خداع، رجل عصابة يمثل فرنسا. في السياسة، نعرف كيف نكون واقعيين. ما هي الطريقة المثلى لتسديد الديون؟ الحرب، فلنر! هل دفعت يوماً ديون حرب؟ التنازل عن الحق يا جميلتي، التنازل !

لا ترفع صوتك، حسن!

بدأ الجالسون على المقاعد المجاورة يهمهمون احتجاجاً. أن يتكلم أحدهم خلال إلقاء قصائد تيودورية!

– حسناً، سأكمل همساً. في فرنسا لا ينقصهم الحبر لإلقاء المواعظ حول

(1) استخدم هنا الكاتب اسم Levantin أي المشارقة وقد استخدمت أحياناً ازدراءً بمهارتهم بالأعمال الموكلة إليهم. والمشارقة في القرن التاسع عشر ونصف القرن العشرين، عنت سكان الإمبراطورية العثمانية وحكامها اللاحقين من أصول أوروبية أو مختلطة. وكانوا معظمهم من الكاثوليكيين وأحياناً من البروتستانت.

الحملات الصليبية. ولا حتى البلهاء، ناهيك عن المعفيين من الخدمة الذين يتحرقون لإعادة انتعال أحذيتهم. مأدبة احتفالية وأناشيد وطنية وتسير الأمور. يتوجه مطران باريس إلى شارل الخامس كونه ابن سانت لويس، ويتمثل وزير الشؤون الخارجية بسانت برنار فتكتمل المسرحية: غيستا دي بِر فرانكو، هذا ما يقولونه؟ يقترح أحد البرلمانيين فكرة الحملة العسكرية. من كان ذاك؟ للصدفة كان نائب مرسيليا، حيث كانت غرفة التجارة المتضررة من الحصار المفروض على السواحل الأفريقية الشمالية تتمنى «نقل الحضارة». الحضارة، يا لها من مزحة! وفجأة يغضبون لضعف الحكومة. آه! ليس نابوليون هو من يرضى بالإهانة... ويروجون لفضيحة عدم الرد على إهانة دبلوماسية وتثور ثائرتهم. عندما يتعرض جيش إلى كارثة، يتم عزل بعض الجنرالات. ولكن أن يتم دفع سفير في صالون، أو ألا يكون على الطاولة في المكان المخصص له أو يتم بالخطأ قلب صحن من الحلويات على صداره، أي اعتداء متعمد، أي معركة! فمن خلال شخصه المهيب أهين شعب بأكمله. ولا عجب حينئذ أن تطور الوضع إلى طلقات مدفعية ترشق بها سفن البحرية العسكرية، وهكذا هي: الطامة الكبرى. تقرر الحكومة رفع سقف المواجهة. هلا سمعت تسمعي هذا الثنائي بين البايتون والسوبرانو؟

– صه، صرخ أحدهم.

3

ارتمى حسن على مسند مقعده. فبعد قرنٍ من الزمن، كيف يمكن إظهار الحقيقة؟ إن سئل عن أسباب الحملة، فسيجيب هكتور أيضاً: ضربة المروحة. في ذاك اليوم، في منطقة لاربعاء، الذي ظهر فيه مع مارغريت في صفه الفارغ، بادره بالسؤال:

«هل تذكرتني؟».

قرأ حسن على وجهه عداءً وذهولاً وتحقيراً للسبب الذي لم يكن يتوقعه: لكونه من السكان الأصليين.

– أتساءل إن كان بإمكاني رفع الكلفة مع ضابط... كنا نريد أن ننخرط في فرقة الزواوين، هل تذكر؟

– تعطي دروساً باللغة العربية...

– لقد أكملت تعليمي في المدرسة[1].

انتصب هكتور. المدرسة تعدّ ناشطين ومغرورين يطلق عليهم اسم الأتراك الشباب أو الجزائريين الشباب، نشطون، متمردون يحاربون الوجود الفرنسي.

– أأنت مهتم بالسياسة؟

– قليلاً، وأنتَ لا؟

– ابتسامة متكلّفة من هكتور: فلا سياسة في الجيش.

– ولا حتى بما يخص موضوع السكان الأصليين؟

– وكأننا لم نمنحكم شيئاً، قال هكتور.

(1) Medersa هكذا بالفرنسية، وهو الاسم الذي كان يطلق على دار المعلمين في الجزائر في ذاك الوقت.

– أتريدني أن أخبرك ماذا منحتمونا؟

اتكأ على كرسيه.

– في العام 1915، أمل وزير الحرب بإعطاء الجنسية الفرنسية للجنود من السكان الأصليين. اعتبر الحاكم ذلك اعتداءً على النظام الكولونيالي. فطالب كليمنصو بحق المستشارين من هؤلاء السكان بانتخاب رؤساء البلديات وأثارت رسالته للحكومة في الجزائر عاصفة. وبدأ مستوطنون يتكلمون عن الهجرة إلى كندا أو أمريكا الشمالية. واستنكر الحاكم تعاطف الصحافة الباريسية مع العرب. تم اقتراح إنشاء مسجدٍ في نوجون سور مارن[1] من أجل العمال من السكان الأصليين فادعى الحاكم بأنهم يفضلون المقاهي الشعبية والمواخير. وفي النهاية حصل المجلس الأعلى للجزائرعلى إرجاء للتعديلات لحين حل الخلافات. إنني أزعجك. هذه القصة القديمة، كان على بلقاسم أن يرويها لك. وكنت لتصدقه.

– أكمل.

– وضد إرادة حكومة الجزائر، وافقت الحكومة الفرنسية على تقديم منح لعائلات الجنود من السكان الأصليين الذين استدعوا للتعبئة. هلع! العرب، ليسوا بحاجة إلى المساعدة، كما يبدو: أبسط التعويضات التي قد تهبط عليهم من السماء سوف تحثهم على التوقف عن فعل أي شيء. أو أنهم يقيمون بها وليمة. لقد قلنا لكم ذلك مراراً: إنهم متوحشون. يا لذلك النقاش الذي احتدم

(1) Nogent- sur- Marne وهي بلدة فرنسية تقع في مقاطعة فال جدو مارن ومنطقة إيل دو فرانس.

عند انتفاضة جبال الأوراس في 1916! وفي 1917 أصبح كليمو نصو حاكماً. كان حاكماً في كل مكان ما عدا هنا. فالجزائر تبقى خارج كل شيء، لا تطبق من القوانين سوى ما يناسبها وترفض كل ما لا يعجبها.

– كان بلقاسم ضابطاً.

– اسأله. العرب المشاركون دمجوا في وحدات السكان المحليين، شهاداتهم ورتبهم لا تساوي شيئاً أمام شهادات ورتب الآخرين، فأنت تعرف ذلك جيداً. كيف يمكننا قبول أمر كهذا عندما نفكر به؟ نقتلع مئتي ألف رجل من مكانهم التقليدي ونضعهم في كوكب آخر ثم نمنعهم عن رؤية ما يميزهم عن باقي الرجال؟ سيخبرك فكتور بأنه كان لدى السكان الأصليين المسرحين من الجيش والعمال العائدين من فرنسا نوع من اختلال التوازن والميل للاستعراض، كما لدى المقتلعين. وتكشف فيهم ميلاً للإسراف. أي فضيحة! جذوع التين يشترون الدرجات أو السيارات القديمة. أو أنهم يبنون البيوت. بشاعات...

توقف وما عاد قادراً على مواصلة الكلام.

كيف حال...

تردد بقول «والدك».

– كيف حال السيد ديماتون؟ ألا تدخن؟ علينا أن نصبح فرنسيين ولكن ربما لسنا جديرين بذلك؟ هل لدينا الكثير من الأوهام حول أنفسنا؟ هل على المرء أن يكون مرتداً ويتخلى عن وطنه.

– أي منه؟

أدار حسن ظهره للحظات ليخفي ما يعتمل في داخله من مشاعر.

«يجب أن يكون لنا واحد بما أنكم تنكرون علينا وطنكم. وطننا هو الأرض التي ولدنا فيها قبلكم».

اليوم، يشعر بالندم لعدم ذهابه أبعد من ذلك. «كان عليّ، كان عليّ...»، ماذا؟ الحديث عن مآسي هذه السنين، وصولاً إلى أن نائباً للجزائر طالب بمساعدة الحكومة معلناً عن امتلاء شوارع البلاد بالجثث. لم يتجرأ على قول ذلك خوفاً من ألا يتم تصديقه. لا يمكنه على أية حال قول كل شيء. لقد كانت هناك دوارات لا يعرف أهلها عن فرنسا سوى حارس الغابات والشرطي وجامع الضرائب. واحد ينظم المحضر الرسمي وآخر يضع القيود والأخير يجرد من المال. هل كان هكتور ليعتقد ربما أنه ينتمي إلى إتوال نور أفريكان[1] التي تأسست في باريس، أو أنه مريد للأمير خالد المحكوم عليه بخمس سنين سجن لأن صرخة الإستقلال بدأت تتعالى في اجتماعاته.

كان هو ومارغريت مثل مركبين. مركبان شراعيان من الزمن القديم، يلتقيان وسط البحر ويتبادلان السلام وسط القواعد المعروفة في البحرية. ثم يهب الهواء الذي يعطلهما وتجدان نفسيهما بمقابلة واحدتهما الأخرى. لا بل تتخاطبان عبر مكبرات الصوت. بأي لغة؟ هل يعلمون بأنه كان لدى العرب شعراء كبار؟ وأنه هو، حسن، وربما يعود الفضل بهذه الفكرة إلى هكتور، يحلم بأن يصبح شاعراً؟

القصائد، لا تودي إلى شيء. في الليلة الأولى سألها: «أيمكنني الظهور

(1) Étoile nord-africaine وهي منظمة تأسست في فرنسا في العام 1926 من قبل المهاجرين الجزائريين وكان الأمير خالد، حفيد الأمير عبد القادر الجزائري المنفي من الجزائر إلى فرنسا الرئيس الشرفي للمنظمة.

معك في الشارع؟ ألا يزعجك ذلك كثيراً؟». عبرت عن تعجب مقرون بالسخرية. كانت لتتذكر مارغريت بسرعة بأنها تنتمي إلى البلاد المتفاخرة للغالبين. لقد لاموها لعلاقتها بعربي. مثقف؟ إنهم الأسوأ. قالوا لأيمي باري: سترى، سيخطفها منك أحد الزعماء». فقد سبق وطلبت يدها للزواج وفق العادات الإسلامية: قفة مع خبز محلى وتمر وفطيرة شعير وجوز. صرف الخال أيمي بلطف والد الخاطب بالحجة الرسمية: ما زالت صغيرة جداً.

دعاها حسن في البداية إلى منزل أصدقاء في إحدى ليالي رمضان. فرشوا السجاد في كل مكان وكان هناك عازفان موسيقيان. في دمس الظلام، رموا على كتفها برنساً ورافقوها جميعهم. ألقى عليها حسن أبياتاً من الشعر:

أتأملك كنجمةٍ أجهل اسمها،
سائلاً روحي إن كانت ستتوقف فوق سريري.

ثم، ثم... في هذا اليوم، لا راقصات، لا عرش للعروس ولا ماء ورد شجر البرتقال يرش على المدعوين ولا أوركسترا. لا شيء سوى خاتم زواج بأربعة قروش اشتراه من شارع باب عزون. مارغريت الكبيرة سيدة الكولونيل، أين كانت ألماسة سابين دو رواي التي، وعشية حفلة الوداع في ثكنة الجزائر، كانت تسمع قلبكِ يدق في الوقت ذاته مع العاصفة التي تضرب الشاطئ؟ مارغريت الكبيرة، الجدة بعينيها البراقتين... مارغريت الأخرى، الجديدة، الشابة، التي تملك ألماستها الخاصة، أين ستتوه بعد هذا المرور بين كواكب النجوم العربية؟...

نفخت الأبواق. السيد الرئيس غاستون دومرغ، مخدر بالكامل من الحرارة، ومن طيب الطعام والنبيذ، أفاق في مقعده. أمام حامل النوتة الخاص به كقائد أوركسترا، كان النقيب أكا يكافح كالشيطان، الصنوج والألواح النحاسية تصدح والطبول الكبيرة تقلد صوت المدافع وكورس السيد أوديزيو يصل إلى نهاية نشيده:

سكان أصليون! فرنسيون! المجد لأيديكم الصديقة،

يا أهل الخير!...

«أنت تدخن كثيراً...».

هذا كل ما قاله هكتور لينجو من النقاش. بالنسبة إليه، هناك قضية واحدة: مارغريت. مفتونة ومسحورة ومسيطر عليها من قبل واحد من الماعز، فتاة متحدرة من المستوطنات تترك جرذاً يجرها في الليل تحت النجوم، هذا الحيوان الماكر الذي يسطو على أقنان الدجاج في غياب الحارس...

حسناً إنه يدخن. مثل بلقاسم. بلقاسم لخيبة أمله وحزنه لخسارته ميلاني. والآن، باتت مارغريت تأتي إلى المدرسة لأبسط الحجج وهذا ما كان يشعره بالكثير من الفخر، وهذه المرة أحضرت معها قريبها الضابط الجرماني! الزميل القديم في صف عين طاية والذي قال له يوماً، وهذا ما يتذكره جيداً: «اسمع حسن، أنت لا تحمل اسم عائلتي ولكن رغم ذلك، فأنت أخي...».

وفجأة، بات يشعر بانه يرغب في ضربه:

«أنت لا تجهل سيدي الملازم أول، أن ستالين... ستالين هو طالب مدرسة إكليريكية سابق؟».

لماذا استثارة الحديث عن الثورة الروسية؟ وكأنه من الممكن أن تولد ثورة هنا. ثورة على ماذا؟ للحصول على ماذا؟ فهكتور يكاد يكون نقيض ستالين.

هنا، كان على حسن أن يصرّ. «اسمع هكتور...».

«اسمع، في مزرعة سيدي موسى، عندما كنتَ الولد الذي طرد مع أمه من منزل الشرطي، ولم يكن بعد يحق للمدرّس أن يتبناك، ألم يكن مفتاح بالنسبة إليك بمثابة، لا أجرؤ على قول الأب، إنما شيء من هذا القبيل؟

«مفتاح الثالث أخبرني بذلك يوماً. أتذكر تلك الرقة التي كان يضعك فيها على كتفيه وخزيه من فكرة أن ينقل إليك القمل؟ أتذكر كيف علمك أن تجر حتى أشجار البرتقال خط الماء الطويل المتعرج اللامع؟ كيف تشوي الفطيرة على الحجارة الساخنة؟ كيف تتنشق رائحة الجبال وأزهار الرمان؟ وكيف تسحق أوراق النعناع لتحتفظ أصابعك برائحتها؟ وكل ما قدمه لك: أعشاش القرقب في أشجار السرو والتين المحلى، وقوالب الفحم التي كان يقصها بضربة مطرقة كي ترميها في آلة الناعورة، الضفادع التي كان يناديها بطرطقة من لسانه وحشرجة في حلقه، العنب الذي كان يقطفه لك بين صفوف العنب الأسود وعنب الأرامون، قبل أن يأتي رجال القبائل لقطاف العنب وتكديسه في الأحواض الخشبية. كانت موحلة تلك الأحواض الخشبية، أتذكر؟ كان يرغب في أن يكون له ولد مثلك في المدرسة. ولد يقود السيارة ويؤدي الخدمة العسكرية ويدخل في المجلس الاستشاري البلدي. هو أيضاً كان يحظر على أولاده الاقتراب منك. كان يقودك (ودائماً على وقع صراخ أمك عند الدرج: «هكتور، هكتور، أين أنت؟...» يضع أصبعه على شفتيك فلا تجيب، كنتما شريكين في الجريمة).

عندما يبدأ النبيذ بالبقبقة في الخوابي يقول لك: «إنه الرب...» كان يريد أن يستحوذ الرب على تفكيرك. ودون أن يعرف أن جان باتيست قال الجملة نفسها قبله، كان يقول: «أنا مفتاح الفقير، لا أملك شرف أن أفك شرائط حذائه...». في هذه اللحظات كان يكلمك بالعربية وكنت تفهم. إنني أكلمك بالفرنسية وأنت لا تفهم...».

4

حرك السيد غاستون دومرغ رأسه برفق وبدأ الجميع يخبطون بهدوء أرجلهم انتظاراً. نحاسيات وآلات كمان وخشب، كله يقرع ويحتك ويصفر والعرق يتصبب من وجوه الموسيقيين الذين لم يتسنّ لهم الوقت لتجفيفه وقائد الأوركسترا يومئ واقفاً على رأس خفيه وأعضاء الكورس أتلفوا رئاتهم لشدة ما غنوا مرددين الكلمات نفسها: أياد متكاتفة، اياد متكاتفة، متكاتفة... يملأون السيد أوديزيو برذاذ أفواههم وهو يحاول تنشيطهم محركاً يديه بحركات دائرية. بعضهم أضاع أوراقه والتقطها وهي تطير، آخرون أضاعوا السطور، ثم عاودوا الالتحاق بالآخرين ولكزوا بعضهم بعضاً وتغامزوا: انتبهوا كم هناك من الناس في أعلى هذه المنصة يتأملونكم؟ هناك اثنان أو ثلاثة من السكان الأصليين بينهم، إنها الأخوة إذن، فهي تعرفهم: نتذكر أيضاً رئيس بلدية هليوبوليس، وهي بلدة بالقرب من مدينة قالمة[1]، الذي ركل نص التعديل بقدمه في العام 1919 وهتف: «هذا ما فعلتُه بقوانينهم!». قوانين فرنسيي فرنسا.

(1) قالمة مدينة تقع شرق الجزائر، وهي مدينة قديمة جداً سميت بهذا الاسم نسبة إلى قبيلة كانت تعيش في المنطقة.

وأنت، بصوتٍ أعلى، أيتها الأبواق من أجل هذا النصر
أعلني...

اعزفي بصوتٍ أعلى، فأنت تتمتعين بصوتٍ جميل! وأعيدي إعلان ذلك، بإمكان الأبواق أن تفعل ما تشاء.

... للإنسانية،

... نية، نية، القائد السابق للشرطة السيد تيو محق: ففي خطابه باسم فريق التدريس في الجوامع، والذي سيلقيه الحاج حمو في الرابع عشر من يونيو المقبل في سيدي فرج، أمام الحاكم ورئيس الأساقفة، ماذا سيقول؟ «أيها العمال والمزارعون والأطباء والمحامون والمدرسون والعمال بأقلامهم أو بأيديهم، نحن جميعاً، السكان الأصليون...» عليك أن ترى السيد الحاج حمو، ابن قنور[1] الجريء، ببرنسه على كتفيه، عليك أن تسمع الصوت الجهوري الخارج من حنجرته. «... نحن جميعاً، السكان الأصليون، نرمي عند أقدامكم، أيها الفرنسيون إخوتنا، باقات الورد، عربون عرفان جميل لن تمحيه العصور...» ماذا كان يأمل الحاج حمو المسكين؟ ميدالية شرف الخيالة؟ مكافأة؟

– أعلنوا... للبشرية
– أن فرنسا اليوم أكملت مئة عام من الحكاية،
– بختم الصدا...

بختم، بختم، بختم الـ، ختمـ الـ صداقة، صداقة، صداقة؟ نحاسيات وطبول كبيرة، صنوج، عزف جماعي، الصرخة نفسها تنطلق من كل الحناجر، والسيد أوديزيو يمد يده أعلى وأعلى والسيد أكا يذري العاصفة.

(1) قنور هي اسم قرية وعائلة جزائرتين.

- ... قة! ...

فورتيسيمو[1]، نقطة الذروة.

ثبّت السيد عكا رأس عصاه فوق رؤوس الكورس ثم أنزلها بقوة.

تصفيقٌ هائلٌ، هياج، نهض الجميع صارخين «برافو»، غمرت الكشافات الضوئية السيد غاستون دومرغ، الذي وبعينيه المبهورتين بالضوء، توجه للجميع بحركات دائرية من يديه، وتم دفع السيد ماريوت أمام الكورس، «طيور السمان الصغيرة الجميلة» كما يسمونهم في باب الوادي، مبللين بالعرق، يا عزيزي، بالعرق، بأجساد ملتهبة، وقد اختلجت انفعالاً، العمل الكبير، الحشد، الصخب، التمجيد والتقديس.

إنها رياح النصر.

جيروم غربيه، الذي وعلى امتداد الغنائية، كان يهز رأسه علامة استحسانٍ داخلي أو ضجر كبير، أم أنه العطر الفاخر لرفيقته، ربما كان من نوع أوبيغان؟

«ألن تشعري بالبرد عندما تخرجين؟».

طمأنته، في الخارج قد يكون الطقس لطيفاً، إن هدأ هواء البحر. وهذا أفضل لأنه لا يريد أن ينزع سترته كي يغطي لها كتفيها. كان عليها أن تحمل معها دثاراً من الفرو أو شيئاً آخر. وتساءل إن كان عليه أن يصطحبها لإكمال السهرة في غروبر أو بالأحرى في...

«آمين!..».

صرخة! ليست قوية جداً، أطلقت تحديداً من أجل مارغريت وسط

(1) Fortissimo مصطلح موسيقي أصله إيطالي ويعني صوت جهوري عالٍ جداً.

جلبة المقطع الأخير الذي انتهى للتو. وعلى الرغم من ذلك كان يمكن سماعها. التفت بعضهم بوجوه مصدومة. آه، يا إلهي؟ هل يعتبر أمراً مهيناً أن تصرخ آمين عن الصداقة؟ ألن يكون دليلاً على الموافقة والتوقيع والتصديق والتأكيد؟ أوليست هذه الكلمة أكثر عمقاً وحيوية من تصفيق المجاملة المتحول زوبعة؟

سرى همس وترددت موجات من الاعتراض وصلت حتى المقصورة الرئاسية. وفجأة قلق الحاكم. ولكن لا، لا ليست بفضيحة. آه، حسناً. حسن، لقد نجوت، لكانوا رموك في عربة السجن. ولكن لحسن الحظ، لا أحد يجرؤ على افتعال حادثٍ كهذا، فعلى السهرة أن تمر دون أي تعكير، سيتناسون بسرعة هذا الثنائي المشبوه الذي سيضيع بين الجموع.

في الخارج، موسيقى عسكرية أخرى تصدح، وأعيد تشكيل الموكب وبدأت حوافر الجياد تتردد على البلاط الرطب. نظرات غاضبة تبادلتها مارغريت مع أحد الورثة الأغنياء لحقول الكرمة في تيبازه[1]! يا لجلبة الأنصال ويا للأضواء! فهمت النساء بسرعة الموقف! وكان الملازم أول غريبه بلباسه المدني يتساءل أين التقى هذا الرجل العربي المميز وهذه الشابة... لكزته رفيقته وهي تنظر أمامها بعيداً:

«ألم تلاحظ بعد؟ معاً، إنهما معاً!».

كيف هذا؟ إذن... فلنضع في زحمة السموكينغ والسترات والبزات العسكرية الخادعة والبرانس الحمر (هذه البرانس بالتحديد نظيفة)، بحلى السهرة وبأفاعي الريش النسائية الطويلة وقبعات الجيبوس وتلك المزينة بأوراق السنديان. فلندس آراءنا الشخصية وسط صرخات الاستحسان

(1) تيبازه مدينة جزائرية تقع على ساحل البحر الأبيض المتوسط.

العام: «إنه لعمل مميز، أليس كذلك؟ مميز جداً... تظاهرة جديرة بعاصمة بالتأكيد. إبداعٌ...». حيا جنود أفريقيا بالسيف الرئيس الذي خرج ليستمتع باستراحة مستحقة: «يا لهذه الابتسامة، سيدنا غاستونة...» بالطبع، بالطبع ولكنها غامضة. ابتسامة بوذا. ألا يمكنه أن يشارك في العيد الفينيسي؟ «أتتخيل، لابدّ من أنه ضاق ذرعاً، فهو لم يكف عن رسم هذه الابتسامة مذ رست سفينته. لم يعد في العشرين...».

خلف الأسطول الذي يلحق سريعاً بالعربة صاعداً بنشاط شارع دورمون– دورفيل باتجاه القصر الصيفي ساد صمت كامل. «لو عاد الأمر لي لتبعته بجوقة أبواقٍ، وحمّلت السباهيين الشموع...». هل تعلمون أن الأمينوكال وعندما سألوه عما يحب أن يحمل معه إلى جبال هقار؟ غرفة استحمام. يريد أن يحمل فوق جمله متجراً كاملاً من أنابيب الماء ليفتح الصنابير ظاناً أن الماء سيتدفق منها!

في الساحة، فراغ خلفه الناس وراءهم، وفي الجهة المقابلة، وسط حشد المندفعين لمشاهدة الخارجين من العرض... ظهر خيال طويل نحيل لضابط مشاة بلباسه الكاكي، يتمايل مع الحشد المتدافع عند باب الوادي.

«حسن، انظر».

لم يرَ شيئاً ولكنه رغم ذلك وبفضل السيد تيو، فقد تناقش لساعتين مع من اكتشفت مارغريت للتو وجوده.

«ادعه ليشرب شيئاً معنا».

«غريب»، قال حسن عندما رآه أخيراً، «كنا نحسبه خارج البلاد وما عدنا نعرف عنه شيئاً». بدا حزيناً جداً، مثل مهاجر وحيد ضائع عند

شاطئ، وربما أنه هنا بالصدفة، وقد حشر وسدّ عليه الحشد الطريق كما وسط قطيع؟ أليس هكتور هذا هو الذي تحدث معه. هكتور هذا هل سمعه...

«كنت هنا، كيف هذا؟».

حشد كهذا كان كفيلاً بجعلهم يتخلون عن المعانقة. كان من المفترض أن يظهر على وجه مارغريت شيء ما، علامة إحباط أو خزي. لا شيء. جمال متفاخر بعض الشيء وعدائي، نوع من التألق الساحر.

نجحوا في الوصول إلى طرف الحديقة في الطرف المقابل حيث كان الحشد يتفرق ويتسلق إلى العربات.

– إن رغبت، يمكننا أن نشاهد الحفلة الفينيسية»، قال حسن «أو أن نتناول معاً المثلجات. أنت تحب المثلجات.

– قديماً، نعم. ولكن الآن ما عادت تعني له شيئاً.

نظر إلى الساعة في راحة يده. عند منتصف الليل عليه أن يكون في المعسكر، في خدمة الحراسة. بالكاد لديه الوقت كما أن عليه أن يجد سيارة أجرة، كذبة تأخر في التخلص منها قبل أن يتورط فيها.

وفجأة انتابه شعور مأتمي لصديق يتم تكفينه دون أن يرافقه، هو هكتور. وفي ظل الحديقة شعر حسن بالهواء ثقيلاً.

«اسمع هكتور، لقد فكرت بك كثيراً، في المرة التي جئت فيها إلى لاربعاء أسأت التعبير. فما أشعر به هو شيء آخر».

نمت عن هكتور حركة قدرية. «لا بأس، لا بأس...».

في الجهة المقابلة، يتدافع الناس أمام باب الحفلة، وأضواء البواخر في عرض البحر مع انعكاس ألوانها في المياه الساكنة.

«ستطلق بعض الأسهم النارية. ألا تريد أن نجلس في مقهى؟ يمكننا أن نشرب الليموناضة...».

نظر ثانية إلى ساعته.

– سوف أتأخر.

– وماذاعن الغد؟

– غداً نعود إلى المدية.

تنحت مارغريت جانباً بقامتها المستقيمة، وفجأة بدت هشة برأس تتوجه كل النجوم السابحة فوق البحر، في الأفق الأسود للشمال.

«أنت أيضاً، لقد أضعناك»، قالت.

ثم وبحركة مباغتة، أدار ظهره لهما وبسرعة، بخطى ما زال يحتفظ بها منذ أن كان في الجيش، بخطى الرجال الذين يمشون باتجاه شيء في البعيد، من دون أن نعرف ما هو، وحتى دون أن يعلموا هم أنفسهم ما هو، مضى.

الفصل الرابع
فتنة الأبدية

الرائحة الباردة لمسدس بارابيلوم[1] الذي لعب دوراً في المآسي العائلية.

1

وبسرعة انتابه شعور غريب. شعور الخلاص منهما. الفرح المتوحش النابع من ألمه الخاص لأنه جرحهما، مثل حيوان ضُرب حتى الموت. تركهما لسعادتهما وغرق في تعاسته هو. مستقيماً، مشى مراوغاً في قلب العاصفة التي ثارت في داخله، وبين الحواجز المفترضة والعائلات المتنزهة والحراس النائمين أمام الباب المقفل بالمفاتيح.

كشافات ضوء السفن الحربية عبثت بالليل وخطفت النجوم، تمايلت وترنحت واختلطت بأنهر الضوء التي تتفجر من إمارة البحر في ضباب أحمر وأزرق، زوارق البندقية وزوارق صيادة، وزة وبطة وجمل تتزحلق على سطح ماء الميناء. غريب! أرأيتم يوماً جملاً على سطح الماء؟ على جبهة المدينة، تاج من اللمبات الكهربائية، وعلى عنقها عقد من من اللؤلؤ بين جوهرتين: مآذن الجامع المضاءة وقبب مركز المحافظة. سحر أعراس سلطانٍ أو دوجة[2].

وحدة مرة، دوار.

(1) Luger Parabellum هو واحد من أوائل المسدسات النصف أتوماتيكية والذي عرف رواجاً واسعاً.

(2) Dogaresse هي زوجة الدوج وهو القاضي الأول في جمهوريتي البندقية وجنوا.

ما اتهم به السيد باليغان ديليكتاتيو موروز[1]. «لقد قرأت الكثير من شاتوبريان. هل تعتقد أن شاتوبريان لم يجلس سوى على مقعد اليأس؟ الأدب يا عزيزي الأدب! لا تتركوا أنفسكم تأخذون به. فهو ينطوي على كآبة وتلذذ بالحزن... فما هو الحب، يا ابني العزيز؟ لا تخلط الحب-العشق للكائنات، حالة الخبل تلك أو ثمالة ما بعد الشرب، مع ذلك التعلق الرقيق في الأعراس، الحب النقي الذي يبديه زوج لرفيقة أيامه ولياليه، من يتقاسم معها أفراحه وأتراحه اليومية. عليك أن تدخل إلى الكنيسة وأن ترتمي عند قدمي المخلّص وأن تعترف له برأفته...».

وكأنه لم يشك يوماً بكونه ابن الخطيئة... كل شيء أمسى واضحاً: المدرسة الإكليريكية تدخل في كل النقاشات... «يا للتربية التي يتلقاها الطلاب، يا للأساتذة اللامعين، يا للرقة في التعليم!...»، إغراء يُمارس على امتداد عامٍ كامل، وفي النهاية وعلى نحو مباغت، يقبض عليه الفخ المقدس للافتداء. تتبخر الشكوك الأولى للسيد باليغان، آه، بورعٍ كامل وبقناعة عميقة. لقد كان نزيهاً السيد باليغان وقد سأل نفسه كثيراً. لم يغفل عن شيء. ما رآه في الجزائر أرعبه. وعندما عاد إلى بلاده في الشمال خلال عطلة الصيف وألقى العظات، مرر للسامعين أن الجزائر كانت هي أيضاً خطيئة فرنسا. تمنوا عليه أن يحتفظ بآرائه لنفسه، ولم يعترض. أمام طلبته كان يتهرب من كل الأسئلة حول العرب والاستيطان. إذ كان عليه كما كل أساتذة المدرسة الإكليريكية أن يلتزم الصمت بهذا الخصوص.

في شارع رويس، حيث كان قديماً مركز المفوضية الرئيسي، متحف

(1) Delectatio morosa أو Delectation morose ما يعني باللاتينية لذة أو متعة عاشقٍ.

ونوع من الكوخ الخشبي له سقف على شكل قرون، يستخدم كمحطة لخطط سكك الحديد الجزائرية، والكتلة الهائلة لفندق أليتي، التي التهمت كل شيء وحجبت كل شيء.

كان يكفي أن يدفع الباب الدوار ويدخل إلى الفندق. النقيب دو لا تور اسم وقامة، حذاءان وجعبة سيف ملمعان، لقد كان سيداً إقطاعياً، النقيب دو لا تور، وكان معجباً بهكتور. بعد العرض، اصطحبه بسيارته الليموزين سي 4 إلى فندق أليتي. حديقة صغيرة مزروعة بالموز ودرج من الرخام الأبيض، أبواب دوارة يعلق فيها الباش آغوات، بهو كبير يفتح على غرف جلوس ومناضد، مطعم ومشرب بكنباتهما الجلدية وخشبهما السندياني وضوضائهما. قال له النقيب دو لا تور:

«لست خجلاً، كما آمل. مشروب أنيسون؟ لقد اكتسبت عادات سيئة من الشرق الأقصى، فأنا سأتناول كأساً من الويسكي. ألا تعرف هذه الجبنة؟ لا تأسف لذلك. آل بلاشيت، وآل جرمان، وتينه وكل أمراء الجزائر، آل روندا، شيافينو، هل أعرفهم أنا؟».

وزع تحياته الحميمة، كان يميل أحياناً فيلمس شعورهم السود المشدودة بالزيت إلى الخلف. صحة متينة، يبدو مأخوذاً بالرغبة السريعة للمتعة، يعيش لإرضاء ذوق فني منحرف بعض الشيء، يقال إنه يدخن الأفيون وإن دارته مليئة بالأرائك الواطئة والأحواض والعراة. حركة صغيرة من عصاه الخيزرانية المكسوة بالجلد إلى وجيه مسلم بالبرنس.

«إنه واحد من خدمهم. لا تُصدم. فالمنتصرون في العام 1830 هم نحن، إذن؟ إن احتللت المانيا بعد الحرب... سيكون في سريرك غريتشين[1].

(1) Gretchen هو تصغير لاسم مارغريت بالألمانية.

ستكون محاطاً بالألمانيات ذوات البطون الضامرة. نحن بالأحرى لطفاء هنا. للأسف أنك لست في ثكنة البليدة، لكنت تكفلت بتثقيفك. أفكرت بهذا القوي مالاسيس. تويار لا أعرفه ولكن لا تبدو عليه الفطنة. لاحقاً عندما تريد أن تتبارى مع رفاقك من مدرسة سانت سير العسكرية، يمكنني أن أحدثك عن ذلك فأنا أعرف جيداً، عليك أن تدخل في لعبة التأثير. آه، ليس ذلك ضرورياً بالطبع، فذلك يتوقف على الفكرة التي نأخذها عن المعركة، ولكن اليوم دون حروبٍ في أي مكان على الرغم مما يمكن أنه يجري تحضيره من أهوال في ألمانيا أو إيطاليا...».

أحدهم انحنى عليه وهمس له شيئاً، فقهقه.

«ستساعدك امرأة، ولكن هؤلاء الناس يتزوجون بالخفاء. مالكو السفن والساسة ومالكو المصارف وملايين الهكتوليترات من النبيذ في المتيجة أو ملايين الأرطال من القمح في سرسو، إنها أرستقراطية مؤخرتي. هل أصدمك بما أقوله؟ هل تعتقد أنه مع الاحتفال بالمؤية، ستزداد الخيرات... أتعلم لماذا رئيس الحكومة السيد تارديو لم يضطرب؟ لقد قالها لأحد أصدقائه: «لقد أدخلت جزائريين اثنين في وزارتي...». أتتخيل من؟ مالارمي، وزير البريد، هذا أيضاً... وهذا العجل مورينو، سكرتير الدولة المساعد في التربية البدنية، لا يمكنني أن أرى ماذا كان يمكن أن يوكلوا له إدارة غير إدارة السجون. «... إذن، احتراماً لهم هذا يكفي. فليتدبروا أمرهم. لا أريد أن أحشر أنفي في شؤونهم». فأنت تشبه قليلاً الأمينوكال، تفقد وعيك. لقد خصصنا له غرفاً هنا. كان يريد أن يخيم في الخارج، وأن ينصب خيمته تحت أشجار الموز، هذا ما أخبروني به للتو. عندما اصطحبناه إلى إمارة البحر لكي نريه البحر عن قرب، لم يكن يريد أن يتقدم. شاء في

البداية أن يلمسه وأن يبلل به قدميه. تخيل البحر بعيني أبله من الهقار! أنا متأكد من أنه يحمل زبقاً للخمر على ظهر الجمل. لا تسمعني، أنت من لديه حق. سأنسحب قريباً إلى تورين[1]. فآخر أمنيات أمي أن تزوجني من ابنة حاكم عام. فالجيش أيضاً هو أفضل ما نقوم به. لا نكون فيه دائماً أذكياء، ولكن كيف يمكن قول ذلك، وقورين، هذه هي الكمة المناسبة». استمع لذلك وابتسم لأن الكابتن دو لا تور يعطي لنفسه الحق بقول أي شيء: «حسناً، تبدو معتكر المزاج، كونيغ! فقط لأن قريبة لك لم... تهتم بك. أنا لا أعرف ألماً لا يمكن للشامبانيا أن... بففف... أيها النادل، شامبانيا إم، كوردون روج. قنينة، نعم. اسمع يا صديقي. تخيل أن فتاتك... ما هو اسمها؟ فتاتك مارغريت رمت نفسها عليك وخنقتك بعناقاتها وأمست بكليتها لك. أهذا ما تريده حقاً؟ ستجد نفسك مغموراً بالبهجة. لكم من الوقت؟ كل شيء يمرّ يا صديقي. وبعد ستة أشهر، وهذا تقدير سخي، ستكتشف أنك تشعر، كيف يمكن قول ذلك دون أن أؤذيك؟... ستشعر بسأم ما، وأن هناك، عذراً لهذا الكلام الصادم، كائنات عليك التنكر لها لأنك يا عزيزي مرتبط بهذه، هل أنا مخطئ؟ من أجل الحياة... كما أن المرء يكون في سنك مغفلاً، وبالطبع ستكون قد رزقت بولد، ولن يسمح لك بحياة مرفهة، وعندما أقول «مرفهة»... إذن تبدأ المتاعب. تفقد فتاتك مارغريت الكثير من بهائها. لست ساحراً ولا نبياً، فأنا أخبرك فحسب بما سيحصل بالت–أ– كيد، ح– ت– ماً: سيختفي السحر. فهنئ نفسك إذن. علام؟ على أنها أحبت سواك. على حرية تجعلك جاهزاً لكل شيء، مفتوحاً على كل شيء، وحاضراً لكل شيء، وقبل كل شيء مستعداً لكل

(1) Touraine مقاطعة فرنسية قديمة.

ما يشكّل ألقنا ومصيرنا: الحرب. بصحتك. اسمع، سوف أعرفك على امرأة أعتبرها مثقفة، وزيادة على ذلك، نعم وهذا ما لا تجده كثيراً، جميلة أيضاً...».

خلف كنبتهما، كان الحارس ومعاونوه يطوفون بسترات زرق ملكية لها فتحات على شكل ثمانية عند طية الرقبة.

منذ أن وصلت عربة الرئيس إلى المقر الصيفي وهبطت جياد السباهيين هضبة مصطفى خبواً باتجاه حي الخيالة، بدت الجزائر مدينة فارغة كعادتها. فالعيد الذي كان يصدح على جادات البحر وعند الميناء وساحة الحكومة لم يعد سوى زبد لامع. في كل مكان تتردد خطى الناس العائدين إلى بيوتهم أو الذاهبين مثل هكتور للبحث عن... عم؟ حوافر حصان كهل يجر عربته بعجلاتها المطاطية، كل ذلك يتردد في الصمت بصدى واهن. وجنود ثملون يصعدون باتجاه ثكنة أورليانز عبر طريق القصبة النائمة. ولكن هل نامت القصبة حقاً؟ أليست منطوية على نفسها، حزينة؟ يجب تذكرالقصبة في ليالي رمضان أو العيد الكبير... مناوشات بالطرابيش حول براميل النفايات الفائضة. أما هكتور، فمن هو؟

نغلٌ، ولد اللاشيء، يحمل اسم شرطي لم يكن له ضريح حتى، قريب تاجر دجاج وصاحبة بقالة وبعض صغار المستوطنين المتسكعين. أبوه الحقيقي؟ هاوي تجميع أشياء مستعملة وأناس كادحين وفضائح. أخوته؟ واحد دفن نفسه في أشغال المحكومين وآخر يلعب دور محدثي النعمة. أمه؟ ألم تكن شريرة وطماعة وحقودة؟ مشغولة بالكامل بالتفاخر بغلام كانوا يعتبرونه سابقاً موسيقياً في الوقت الذي لم يكن فيه سوى عازف

أرغن بختم لا يكلف سوى عشرة قروش، وكاهن متخرج للتو في الوقت الذي لم يكن فيه سوى تلميذ في الفلسفة التومسية[1]، وأخيراً أكمام طرزت عليها نجوم جنرال في حين أنه ما زال ملازم احتياط بطماق مهترئ...

شارع مونتِنْي؟ مدرسة التواضع والسخافة والتقتير والفقر، نقطة التقاء المخفِقين والريفيين حيث يتزعم والده: «سأرفع كأسي...» كأس البيستوي[2]. بدعته بمزج كعوب القناني بمسحوق غسيل حقير. كحول... تخيلوا. الميل الفطري الحقيقي لدى والده: بائع جوال للقهوة، نصف متسول، مضارب بائس بالأفكار والسجائر المهربة، إذ أن سعادته الوحيدة في ذلك تكمن في العثور على صغار المتقاعدين من أمثاله، ممن يتزينون بالأشرطة الأكاديمية. هو وردة مقسومة نصفين، أصفر وبنفسجي، خيالة نيشان الافتخار[3] وضابط تربية عامة. جالسون على مقعدٍ يتناقشون، وهم يوزعون غمزاتهم على الفتيات، في قضايا العالم الكبيرة والأحداث ومغامرات كوست وبلونت[4] اللذين خاضا امتحان اجتياز شمال الأطلسي للجهة الشرقية– الغربية في رحلة واحدة. راهنوا على حظوظ الملاحين ورددوا أن لندبرغ[5] استغل الرياح المهيمنة ولكنهم اتفقوا على أن على الفرنسيين أن يهاجموا بشكل أكبر. ثم تحدثوا عن

(1) نسبة إلى توماس الأكويني وهو عالم لاهوت وفيلسوف إيطالي.

(2) Bistouille نوع رديء من الكحول.

(3) نيشان الافتخار مأخوذ عن الأتراك (İftihar Nişanı) هو وسام كان يمنح خلال حكم البايات.

(4) Dieudonné Costes و Maurice Bellonte هما طياران فرنسيان شهيران، وقد اشتهر الأول بأنه أول من اجتاز شمال الأطلسي دون أي توقف (1927)، والثاني أول من اجتاز شرق شمال الأطلسي وغربه (1930).

(5) Charles Lindbergh طيّار ومهندس أمريكي، ويعتبر أول شخص عبر المحيط الأطلسي على متن طائرة، حائزاً على إعجاب الناس حول العالم في 1927.

غلاء المعيشة: كيلو لحم الغنم بعشرين فرنكاً، كيلو السكر بأربعة قروش وعشرين سنتيماً، الطوابع بخمسين سنتيماً، كيلو التمر بعشرة فرنكات، وحزمة الجزر بفرنك، فالأمر ببساطة أنه ومنذ العام 1914 كل شيء زاد عشرة أضعاف، ليصلوا في النهاية إلى الأحداث المحلية ويتناوبوا على التحقير: ضراط الخنزير، صحيفة أصحاب القرون، مقهقهين مقترحين أسماء مع الاحتفاظ بالحرف الأول... وعندما يحين الغداء أو العشاء، يفترق هؤلاء المفلسون دون حتى أن يقدموا لبعضهم بعضاً كأس ليموناضة. ناسياً أفكاره القديمة، يعود الأب إلى منزله مسدداً ضربات عصا ولكمات للعرب الذين لا يمشون بالسرعة الكافية تحت أروقة باب الوادي: «عرق وسخ، رعاع، قذرون، حشرات طفيلية...».

وأخيراً، كنيسة سانت– لويس أمامه.

المدخل الرئيسي تحت الشرفة المقفلة، تسلل إلى الجهات الخلفية. الأبواب الأخرى أيضاً مقفلة. مقفلة، مزلجة. ضرب بقبضته ونادى بصوتٍ عالٍ: «لو سمحتم...» الكهنة والمعاونون وخدم الكنيسة ينامون في حين أن روحاً تصرخ طالبة العون. أم تراهم يولمون، لِمَ لا؟ شعور داخلي بالغضب جعله يرفس الباب. لماذا عليه أن ينزعج؟ ما عادوا يعلمونهم الرقة وإنما العنف.

من بولفار فكتور هيغو المزين المحاط بأشجار النخيل، هبط باتجاه البحر. ترنح عند الدرجات التي تطل على شارع سادي كارنو[1] حيث

(1) شارع على اسم Marie François Sadi Carnot سياسي فرنسي، وهو الرئيس الرابع للجمهورية الفرنسية الثالثة من عام 1887 وحتى اغتياله في 1894.

تمر نهاراً عربات الترام التابعة لشبكة سكك الحديد الجزائرية. كان شارع سادي كارنو فارغاً، إذ ألغوا للتو القطار الذي يذهب من روفيغو إلى لاربعاء بسبب الحافلات التي تخطف الزبائن. لو فقط... نعم. لقد أقام النقيب مالاسيس هذا المساء حفل عشاء في ذكرى الانتصار في الجزائر.

جنود رماية، كسكس، جنود رماية...

وفجأة يشعر أنه يتقدم وسط غابة من السحر تسقط فيها نجوم صفر زعفرانية، ويسمع حفيف الأوراق اليابسة تحت أقدامه. ولكن لا. إنه ليل الجزائر الرطب الحزين، الذي تملأه بموائها قطط الشوارع.

كف عن التفكير بمارغريت التي تتأوه بين أحضان حسن. نعم، يا عزيزي، هكذا هن النساء عندما يسمرهن الحب بيده على مذبح التضحيات، يتركن هذه الصرخات تفلت منهن وكأنها مواء القطط. أبناء الماعز، فأنت تعرف ذلك من خلال بن طاهر، لهم طريقتهم بذبح الحيوانات وبسحب التنهدات من النساء، فهم لا يفكرون إلا بذلك، إنهم خبراء في الفجور.

3

في شارع مونتِنْي، كان والده وحيداً. على حايك أن يمر بسيارة مستعملة اشتراها للتو، كنزوة وكآخر رغبات الفخامة، في حين أن الخالة كارنيتو ذهبت مع أمها، وعلى أية حال فهي لا تركب سيارة حايك– فبالنسبة إليها هي قمامة تصلح لنقل أقفاص الدجاج.

جلس والده بصعوبة على المقعد الأمامي لسيارة السيتروين الصغيرة 5 سي، بلونها الأصفر الباهت، مع عصاه بين ركبتيه سانداً يديه على

مقبضها، كما كان على المقعد في ساحة الحكومة. وهكتور في الخلف، مقرفصاً فوق صندوق. المحرك يهدر والشموع تبدو متسخة وحايك يقود بروية، فقد عانوا ليصعدوا منحدر مصطفى.

لم ينتهِ الشتاء بعد ولكن النهار دافء وفيه شيء من رائحة الربيع. كيف يمكن أن نموت في هذا الفصل؟ في المزرعة هياج، كان يرى العائلة كأنما عبر الضباب: الخالة الكبيرة الأبدية لاتيتيا، القصيرة جداً أتت من بوفاريك مع الوشاح على رقبتها وبأنفها الذي يشبه منقار حجل طائر، عجوز تفوح منها رائحة الزيت العفن. أيمي مع بناته، العم إيبوليت مع أبنائه، فكتور وأنجيل وشقيقتها ماري، الخالة كارنيتو، النجار فيرتو وأمه بعينيها الحمراوين، إليز وديزيريه اللذان نزلا من مينيرفيل بسيارة ديون قديمة الطرز، ومفتاح حافي القدمين حاملاً صفيحة الماء، الآخرون بثياب الأحد، جيران، عائلة مانينت وبينيجون وأرفيلا وآخرين... الجميع هنا باستثناء مارغريت المصابة بالأنفلونزا كما قيل مع الحرارة والتي بقيت في لاربعاء مع الخالة هنريت، زوجة أيمي. الطاولة الطويلة حيث جلس والده يلتهم صحناً من الخنة. حايك لا، فقد كان متأثراً. دفعوا بباب الغرفة فلمح قامات واقفة من جانبي السرير وشموع متذبذبة في الظل، وعلى السرير أميرة متجمدة تحت أوشحة الحرير، أوشحة العرس؟ جدته وقد التصقت رموشها وعقدت المسبحة على يديها. بعد المخابئ في أشجار القصب ومفاجآت العالم المغمورة، هذه المواجهة مع سحر الحياة المنتهية والمبتدئة، مفاجأة تسبب الدوار، التمتمات الهامسة، مطية عبر النجوم في أعالي قاسية ومظلمة، ما هي بالتحديد؟ شيء ما كبير سري فرض نفسه وضرب وحفر ونشر رائحة أوراقه العفنة...

وبعنادٍ، كان يأمل أن تعاود مارغريت الظهور بوجهها بعد انقشاع زخة مطر. ملكة راحلة لا يمكنها أن تمد يدها ثانية لحفيدها الذي يختنق في بزة المدرسة الإكليريكية بلونها الأزرق السماوي بأزرارها المذهبة مع قبعة بعصابة مخملية. ثم الموكب الجنائزي، الأم والخالة الكبرى لاتيتيا في البريك[1]، شارة الحداد، الكنيسة، المدفن المفتوح وتابوت السنديان وبعد ذلك...

هو بالضبط من كانوا يراقبونه: أنتم تعرفون، الصغير كونيغ، لنفترض أنه ابن الشرطي، أتتخيلون. آه، كم عانى هذا الرجل المسكين. بالنسبة للمدرس لا يمكن أن نصدق أن نراه اليوم مع شاربيه الصفراوين ولحية التيس وقبعته اللباد بطرفها الملفوف، عصاه وزره الوردي، ما كنا لنصدق ولكنه رجل شهير بنشاطه. فلنر هكتور، أنت ابن الزنا، تماسك جيداً، ففي مأتم جدتك ليس من الجميل أن تضحك بهذا الشكل...

بعد المقبرة، في غرفة الميتة، فتحوا المصاريع لتهوئة المكان. فتح فكتور الخزانة وبحث تحت أكوام الملابس وهنا على الملاية المتجعدة للسرير التي مر عليها السحر وترك علامته مثل آثار أقدام اقتربت من مكان العبور إلى المخاض، تقاسموا السندات الزرقاء الكبيرة المتشققة والقطع النقدية مع حصة مزدوجة للعم أيمي الذي يمثل أبناء الأخت لاتيتيا اليتامى، والذين اوكلوا له، بالرغم من أنهم يتساءلون إن كان يتامى لاتيتيا (ومن بينهم مارغريت) سيلمحون يوماً لون هذه القطع...

بعد أن اختفت، تمت سرقة الجدة وتقطيعها مثل حوت تحت المصلوب المعلق بخشب الزيتون الجاف! الجميع ملأوا جيوبهم مع بعض تردد:

(1) البريك هي عربة بأربع عجلات بجرها جوادان.

«يجب، نعم؟ هل هذا ضروري؟». وبدأوا بالكلام عن بيع مزرعة إيبوليت، لم تكن تنقصهم الرغبة.

في غرفة الطعام، كان حايك، ديزيريه والأب ديماتون يشربون القهوة تقدمها النسوة ممّن لسن من القربيات المباشرات: أنجيل وأختها ماري وإليز. هو، لم يتنبه له أحد. أيحسبونه طفلاً؟ عادوا إلى الجزائر في سيارة ديزيريه الديون، سيارة مختلفة عن سيارة السيتروين الصغيرة ولكنها تستهلك الكثير من البنزين والزيت.

في شارع مونتنْي، بحثت الأم في تنورتها الداخلية وأخرجت المال المخبأ وقسمته اثنين: أعطت الأول لديزيريه الذي مرره لإليز. «والآخر سيكون لهكتور...» كانت الدنيا قد أظلمت تقريباً فأشعل الغاز.

ما الذي ينشر رائحة كريهة الآن؟ «مارغريت، حبيبتي، إنه رجلك «البيكو»...».

هل أن المسدس ما زال مخبأً في الخزانة في غرفة أهله؟ سلاح من الفولاذ الأزرق الذي يمكن أن نركب له غمداً من الخشب الخفيف يشبه علبة خشبية، على شكل مقبض. هذا ما سيصبح إذن سلاحه. وللتدقيق... شروحات بالإلمانية، كلب نوقظه ثم يختفي، ومخزن من اثنتي عشرة خرطوشة طويلة رفيعة. «مع هذا في البيت»، قال ديزيريه بقليل من الغيرة، «يمكن أن تضمن احترامك...».

خلال عطلة عيد الفصح، عام تقريباً بعد دفن الجدة، ما عاد هناك ياقات بحرية روسية، وإنما بزة المدرسة الإكليريكية. في هذا اليوم، الذي كان يوم ثلاثاء بالتحديد، ومباشرة بعد المونى التي أكل منها أهل الجزائر

كلهم على الشواطئ وفي غابات الصنوبر أو السنديان الأخضر، وصل إلى شارع مونتِنْي ليجد نفسه وسط لقاء عائلي. فكتور على كرسي بالقرب من البيانو بوجهه المشدود، ومن الجهة الأخرى العم أيمي متوكئاً بكوعه على الطاولة ويبدو شارداً، ترافقه مارغريت لأنها شاءت أن تجرب فستاناً أو مئزراً لدى غاني بتي.

إنه لرجل رقيق، العم أيمي، مسالم، له صوت حاد ورأس أصلع. رجل حالم على الرغم من يديه الملطختين بالشحم. جبهة حاسرة وأنف معقوف قليلاً وشفتان جميلتان تحت شاربين أشقرين. ذقنه الرقيقة ونظرته الزرقاء السماوية القلقة بشكل غامض والسعيدة أيضاً بشكل غامض، إليهما يعود سحره الخاص وبؤس الآخرين.

أخذ هكتور مارغريت إلى الشرفة ليريها شارع مونتِنْي الذي غادرته الشمس للتو والذي يغرق في الظل مما يظهر انتهاء فترة بعد الظهيرة: من المفترض أن يتناولوا الغداء ولكن ليس من إشارات إلى تحضر الطعام. وفجأة سمعا انفجار الأصوات، ومارغريت التي خافت وضعت يديها على صدرها والتفت هكتور راصداً ما يحدث من خلال شرفة النافذة. بقامته الطويلة المنتصبة، وقف الخال أيمي موجهاً أصبعه باتجاه فكتور زاعقاً: «اسمع، إن لم تسدد لي هذا المبلغ، فأنت تخاطر بحياتك، ثم إنني...».

تدخل الأب ديماتون:

– هيا هيا، هل أنت مجنون؟ لا يمكن أن نهدد أخاً...

– أي أخ، صرخ الخال أيمي. وهل تعتبر هذا الرجل أخاً.

ونادى مارغريت وهو يزبد دون أن يتمكن أحد من ثنيه وذهب صافعاً خلفه الباب.

توكأ فكتور على البيانو وهو يرتجف وذهب الأب ديماتون ليلقي نظرة من الشرفة. «حسناً»، قال متمتماً، «لقد رحل».

وانفجر فكتور: «لا يملك قرشاً ويريد أن ينصب على الجميع، يلبس مثل ميلورد ويقود سيارة...»، وهنا أشارت والدة هكتور إلى أن سيارته تكلفه أقل مما يكلفه التنقل بالقطار أو الحافلة.

ماذا كان ليحصل لو أن الخال أيمي هو من أخذ مسدس البارابيلوم من أعلى الخزانة؟ ما كان ليتمكن أحد من منعه، لأن قوة رهيبة كانت تحركه، في أشد غضبه. إنها لعائلة جميلة، آه! نعم...

4

بالكاد نظرة على هضبة مصطفى، حيث القصر الذي يحرسه فوج آخر من السباهيين، والذي من المفترض أن السيد رئيس الجمهورية نام فيه على سرير كبير مع فنجان بابونج بارد على المنضدة بجانب السرير برأس مكتظّ بالنحاس والشمس والخطابات الطنانة. ثم يأتي المعسكر تماماً بعد حظائر مطار الداي حسين.

حركات مكتومة، رداً على الحرس الذين يصححون وضعياتهم لأنه لا يجري تقديم السلاح في الليل. الحارس يتثاءب تحت مظلة من القش. وبلهجة أليفة تنطوي على بعض استهتار بالملازم في الاحتياط، حيا المعاون، الضابط العائد: «كيف الحال، سيدي الملازم؟»».

لا جواب، ولا كلمة. مشى بشكل مستقيم باتجاه الفرقة الثانية من كتيبة المدية التي تنام تحت صف من الخيم على شكل قبعات شرطة. وفي مكان أبعد، في كتيبة البلدية، أغان ورقصات عربية وتصفيق غامض

بالأيدي وطبول زنجية.

بعيداً عن مرابط النقيب، مربط آخر مخروطي تقاسمه الملازم أول بولونجي مع النقيب في حفلة الجنس الجماعي في الجزائر. دخل وأشعل عود ثقابٍ ودخل ثم رفع كرة المصباح. على الأرض فراشان من شعر الخيل تفصلهما حصيرة عن الأرض. الأسرة: لحاف - كيس من الصوف البني بشعر خشن. وعلى صندوق، حاجيات نظافته الشخصية ومطرة من الفرقة فتحها وشمها: قهوة مع الماء.

إلى جانب ذلك، صندوقه الأكثر حقارة من صندوق الملازم أول بولونجي، مع اسمه بالأحرف الكبيرة البيض ورتبته وفوجه. رفع الغطاء، وبحث متلمساً فوجد ثياب وزوج حذاء احتياطي وصحيفة (الشباب الكاثوليكي) ومغلف رسالة (رسالة والدته) وكتاب، وهو الوحيد الموجود هنا والذي أخرجه وقربه من الضوء وتفحصه وكأنه يراه للمرة الأولى: على الغلاف الأبيض وبأحرف رومانية كبيرة رحلة قائد المئة[1]، مقدمة من بول بورجي، الإصدار 69، لويس كونار، 6، ساحة مادلين، باريس، MCMXX I I. وقد ألصقت بالصفحة ورقة شفافة لصليب عالٍ مع تاج من الشوك في الوسط ونحلة عند أسفله (شعار الناشر؟) تستنشق رحيق زهرة.

فتح الكتاب بطريقة عشوائية على الصفحة 186. «يا إلهي، إنه يختنق، سيموت، إنه يبذل قواه الواهنة بمواجهة السد، مثل دبور في الصيف يحاول اجتياز زجاج سجنه. يريد... ولكن لا، ما عاد هناك ما يمكن فعله، إنه في آخر مخزونه من التفكير والأمل وعرق نوبته التي لا تنتهي. هذا هو

(1) Centurion وهو لدى الرومان من يقود مائة عسكري.

موضوع الرحلة والصدمة وكل شيء سوف يتغذى من هذ الفكر...». أقفل الكتاب وأعاده إلى المخزن مشتماً رائحة جلد الصندوق. فليأخذه بروية مثل يدٍ ممدودة. يد ثقيلة في غمدها البني، يد من الرصاص، مقفلة بعروة مثبتة بشق تسبقها قطعة معدنية: إنه مسدس المأمورية طراز 1892، عيار 8 ملم يفضله الكثيرون على البندقية، وبشكل أقل على مسدس البارابيلوم.

أصاخ السمع. ما عدا اللازمة الموسيقية لكتيبة البليدة، لا شيء. فقط وعلى مقربة منه، شخير متقطع للنائمين وفي البعيد جداً نباح خجول لبنات آوى.

تصاعد الدخان من المصباح فأخفض الفتيل. وعلى قماش الخيمة المرقع كروحه، على الرغم من أنه ما يزال في أول شبابه، لاحظ مزقاً على امتداد الدرزة عليه إصلاحه في حال أمطرت...

وبروية، رفع طرف الصندوق ليكتشف المقبض المخطط بدقة وسحب المسدس، بشكل اعتيادي. وقرأ المعلومات المحفورة عليه: «مصنع سانت إيتيان الفرنسي للأسلحة ووسائل النقل» وعند رأس الفوهة حفرت مرة أخرى «سانا إيتيان» بين حرفين معزولين A و F. ليس من أي رسالة. وزن 840 كما هو القانون. بإبهام يده اليسرى فصل الفوهة وحرك القاذف المشحّم كي يدك الخراطيش حتى النصف. خارج الأسنان التي تؤمن الدوران، خمسة مكابح بكبسولات مسطحة ملساء دون أي انتفاخ مثل بنادق الصيد وموسومة بعلامات صانع السلاح. ليدفع بها، خمسة، إنها لعدد كبير، واحدة فقط تكفي – الطلقة الناجحة. ولكن لا روليت روسية، دون أي مصادفات، يريد الضربة المؤكدة والآمنة. كتلة واحدة معدنية تزن

7,90 غراماً يمكنها أن تضع نهاية لكل هذا. فعلى بعد خمسين متراً يملك المسدس 92 دقة عالية. إذن على الصدغ..

بضربة جامدة، يغلق الفوهة فوق حامية الزناد ثم عتلة الأمان لجهة اليمين.

وها هو، يكفي أن يسحب ديك المسدس إلى الخلف حتى اشتباكه بلسانه.

بمواجهة الصدغ الأيمن وبشكل منحرف. هذا المسدس يصوب قليلاً باتجاه الأعلى، المهمة المكتملة عندما تلمس أستونة المسدس الهدف! بشكل مباشر. بضغط خفيف من السبابة على الزناد و...

ماذا سيقولون؟ سيستخدمون الصيغة المناسبة: كان ينظف سلاحه لأنه لا يمكن للجندي أن ينتحر. انطلقت الضربة قاذفة بقوة باليد التي تحمل السلاح ولكن عندما تم التصويب جيداً، بالأحرى بقوة، أليس كذلك؟ لن يكون هناك أي مشكلة... حتى إنه لن يشعر بشيء: وحشية باردة.

ستقول إليز لديزيريه: «أمك ما زالت تكفر عن ذنوبها، فابنها الذي أنجبته من الزنا انتهى كما بدأ. المسكين، فهو يحمل ذلك في دمه، إنه خطؤها الأصلي معه...». والده؟ ماشياً مثل إنسان آلي ضارباً بلاط الرصيف بطرف عصاه المصكوكة بالحديد سيذهب ليركع في الكنيسة ويطلب التوبة. فالربّ جازاه. ولمدة أسبوع سيتحاشى أصدقاءه المتقاعدين عن العمل ثم يستخرج من هذه المأساة نصراً عظيماً: «ولد بهذه القدرة، يرفع رأسنا عالياً...» ولكن مارغريت هي من سيحطم هذا النصر. ليس عليه هو كان ليطلق النار وليس على صدغه هو بل على صدغ حسن. ما

كان شيء قادراً على مقاومة هذه الطلقة. لقد تمت تصفية «البيكو» هذا، لقد هشِّم! «ألم تكن تعلمين بأني أحببتك حتى الموت؟»».

عندما تحدث رئيس البرج عن هشاشة المشاعر الإنسانية، لم يكن يعرف الملازم كونيغ.

فهو من هذا العرق المتفاخر الذي لا ينسى قطّ الإهانات أو ما يحسب إهانات لا بل سيسحق نفسه. تجمّد واصطدم وانغلق على جرحه مفضلاً دوار العدم على الغفران. دون أي ظل أو تلوين. معركة حتى العظم. باطون يتكسر عنده البحر. أهو جنون أم ثقة بالحق؟ هذه السلالة من الرجال المتسكعين المترنحين المتزوجين من نساء يشبهنهم. الثملون بالفخر والانتصار والفتنة والذين ينهكون أنفسهم بزراعة الكروم ورعايتها، شاهرين بنادقهم في مواجهة قبيلة من المتعصبين والكسولين الذين يتوقفون عن العمل خمس مرات في اليوم ليركعوا باتجاه مكة. لا يحتملون أن يسحقوا بنظر أنفسهم أمام ابن ماعز. يتقاتلون ويتشاحنون ويقتلون. فمن شأن المحاكم أن تبرئكم. أن تقتلوا أنفسكم إنه اعتراف بالخزي، إنه عمل شائن.

خطأ.

فالكرامة صاحبة الجلالة، لا يمكن أن نغسلها سوى بالدم...»».

نظر إلى يديه، تحتضن فولاذاً أزرق ستنبجس منه الحرية. يدان قاسيتان، وحشيتان، دون رحمة، في حين أن يدي حسن طويلتان طريتان. ثم في المرآة الصغيرة التي علقها المرافقون بحصيرة الخيمة، رأى وجهه.

رفع قبعته ورماها على السرير.

مثلث متساوي الأضلاع مقطع بعناية، فكان قويان وأنف كبير جداً

على الأرجح، عينان نصف مغمضتين كأنما تحت ضوء قوي، فم ثقيل (فم والدته) ينغلق على أي اشمئزاز أو عبوس؟ شعر كثيف تلبّد تحت القبعة.

في المياه العكرة حيث تطفو صورته رآه الجميع: الخال فكتور يجمع الخراطيش وهو يصفر؛ الخال أيمي بخطوطه التي شاخت؛ روبير يشعر بالغيرة مما فعله هكتور، ضابط في هذا العمر رقي خلال عامين؛ حسن يتمتم بالأعذار؛ حايك بلباسه الواقي[1] الرمادي يدير ذراع سيارته السيتروين الصغيرة؛ الخالة كارنيتو ولسانها اللاذع كلسان الأفعى؛ والده باحثاً في المدخنة ثم لاعقاً كعوب القناني أمام النافذة؛ ووالدته تعد الطعام في المطبخ؛ إليز مع تاجها من زهر البرتقال، تاج من الشوك على رأس المسيح وديزيريه. وحدها أنجيل من يبدو أنها تشفق عليه. جميعهم هنا، نعم، ما عدا مارغريت المشغولة جداً، بالطبع.

قرقعة مطمئنة ونهائية: إنه الكلب المسلح. فكه مستعد لاستقبال قعر واحدة من خراطيش الفوهة.

أمام المرآة، كما في كوة، يرى صورته التي وبضربة واحدة ستتدحرج في الأبدية مع كل المواخير إلى حيث اصطحب النقيب مالاسيس كتائب من طلاب الإكليريكية...

«أنت هنا سيدي الملازم؟».

دخل بوعلام بهدوء، ثم انتصب بجسده الضخم الذي طواه عندما مر تحت عروة الخيمة، كتحية مصل في كنيسة. وظهر وجهه الطويل والحزين فوق المصباح.

(1) وهو لباس طويل استعمله أوائل السائقين وهو يقي من الغبار.

«فجأة، هنا واقفاً... لقد أخفتني. هل تسمح؟ اترك هذا، لا ننظف سلاحاً في هذا الوقت. ماذا لو أعدّ لك بعض القهوة؟ فاجأني النور في خيمتك، فأنا لم أسمع حتى صوت سيارة. لم تعد مشياً على الأقدام وحدك مثل عربي؟».

سحب طربوشه بحركة سريعة وأظهره لهكتور.

«يا صديقي الأعز، لو علمت لكنت اصطحبتك معي إلى أصدقاء لا يقيمون بعيداً من هنا في مصطفى. لقد تناولنا الكسكس، أنت تحب ذلك، مع العنب ومصل اللبن. حدثتهم عنك، قلت لهم: «في الفرقة، لدينا ضابط لو أن كل الفرنسيين هنا يشبهونه...». قالوا لي: «ضابطك هذا، ربما أنه من فرنسا». لأنك تعرف فرنسا بالنسبة إليهم... وعندما علموا أنك من روفيغو وحتى إن أهلك من المستوطنين في سيدي موسى، عائلة باري، بحثوا وفكروا «ربما كنت محقاً، قالوا لي. نحن نعرف عائلة باري، إنهم أناس طيبون». الآخرون سيدي الملازم...

كان يهمس مثل عصفور. تسيت، تسيت...

«الآخرون لو شاؤوا، لكنا أصبحنا أخوة على شرط ألا يأخذوا منا كل شيء، وأن يسمحوا لنا بمشاركتهم بعض الأشياء، الشمس؟ أنت، أنا أعرف، ستقبل. فالرومان لم ينشئوا نصباً تذكارياً في أليسيا. فقد ربحوا لكن الأمر انتهى بأن رحلوا، رحلوا عن منطقة الغول[1]. أعطني هذا المسدس، سأصقله لك. لقد أحضرت لك الحلوى بالعسل، كُل. العرب يقولون إن النحل تغطّ على الزهور من أجل السعادة. أنت متأكد بأنك لا

(1) Gaule هو الاسم الذي أطلقه الرومان على المنطقة التي يسكنها «الغاليون» وهم شعوب سلتية كانت منتشرة في شمال إيطاليا وفرنسا وبلجيكا.

تريد قهوة؟».

ذهب وعقد خلفه عروة المربط بحذر: «عمت مساء، سيدي الملازم».

فك هكتور حزام بندقيته، ثم جالساً على غطائه خلع حذاءه.

في الخارج، مثل نداء من الأماكن المعزولة في أعالي الجبال، ريح شمالية تهبّ فجأة على السهل حاملة القليل من الغبار إلى ميدان الخروب، وجاعلة نوافذ رئيس الجمهورية تتخبط في قصره، ثم تهزّ صف الخيم، وتضيع في البحر.

التسلسل الزمني

قرنان من الزمن من الحكاية الفرنسية - الجزائرية

وضعه غوي دوغاس (جامعة باريس 12)

1770- يؤسس الأخوان ميشال كوهين ويعقوب بكري، مع يهودي جزائري هو نفتالي بوجناح الملقب ببوشناق، مؤسسة بكري أخوان وبوشناق.

1794- بأمل التجارة مع الجمهورية الفرنسية الفتية، أوصى داي الجزائر حسن باشا، وهو تحت وصاية العثمانيين، أمام مجلس الأمن الوطني، بيعقوب بكري كوكيل له.

1796- 1799 عبر وساطة مؤسسة بكري - بوشناق، قام الداي ببيع الحبوب إلى جيش بونابرت، خلال حملتي إيطاليا ومصر، وهي ديون لم يتم الوفاء بها يوماً.

1808- النقيب بوتين، الجاسوس الذي أرسله بونابرت إلى الجزائر، يضع خططاً سرية لإنزال مفترض على شبه جزيرة سيدي فرج واصفاً بالتفاصيل ضواحي مدينة الجزائر.

1826- الداي حسين الذي خلف الداي حسن، يتوجه إلى شارل العاشر ويطلب منه أن يسدد، من دون تمديد ولا تأخير، ديون فرنسا، التي وصلت مع لويس الثامن عشر إلى سبعة ملايين فرنك ذهبي.

1827- التاسع والعشرون من أبريل، وخلال محادثة غاضبة مع الداي، ادعى القنصل الفرنسي بأنه تلقى منه ثلاث ضربات بالمروحية.

هدد بترك مهامه إن لم تنتقم فرنسا له. في فرنسا، حيث بدت الحكومة مربكة، أدارت الصحافة القضية. شاعران مرسيليان، ماري وبارتيليمي، نشرا تحت عنوان «الباكرياد (من بكري) أو حرب الجزائر» قصيدة ملحمية ساخرة:

كل باريس تعلم أن الداي المتعجرف
صفع فرنسا على خدها الملوكي.
لترتفع كل الأصوات
من كل التراب الفرنسي مستنكرةً.
باع البارونات أملاكهم القديمة،
وفي العروق عاد الدم القديم للصليبيين يغلي
وحمل كل شجاع في زنزانةٍ رايته،
الجميع غاضب والجميع يتسلح ولكن أحداً لا يذهب للحرب.

يونيو: أسطول حربي يرسو قبالة مدينة الجزائر طالباً من الداي الاعتذار والإعلان أن فرنسا سددت كامل ديونها! هذا الإنذار انتهى برفض حاسم ونهائي. فخضعت ولاية العرش في الجزائر إلى حصار بحري.

1830 – يونيو بعد فصول عديدة من سوء التفاهم والضغوط، وبعض الفرص الضائعة للتحاور، ينجح الفريق الداعي إلى الحرب في باريس.

14 يونيو: أسطول الأميرال دوبريه – برفقة وزير الحرب الكونت دو بورمون – يقوم بالإنزال في المكان نفسه الذي اقترحه الجاسوس بوتين.

4 يوليو: ترسو أخيراً قافلة الجياد والمعدات الثقيلة، ويتمكن الجيش من

مهاجمة حصن الإمبراطور ومدينة الجزائر.

23 – 25: يوليو، هزيمة المارشال دو بورمون أمام البليدة.

27 – 29: بعد «الأيام المجيدة الثلاثة»، شارل العاشر يتخلى عن السلطة لدوق أورليان لويس فيليب.

1831– يحتل الجنرال دامرومون – الذي مات في 1837 عند احتلال القسنطينة – وهران ولكن ليس من دون مقاومة.

1834– الثاني والعشرون من يوليو، أمر ملكي بإرساء نظام التملك الفرنسي في شمال أفريقيا، يدعم توسيع الاستيطان، ويأتي بعد الكثير من المواجهات العسكرية.

1840– الجمهورية الفرنسية تعلن الجزائر مقاطعة فرنسية. زيادة عديد الجيش الفرنسي، وتسمية الجنرال بوجو حاكماً عاماً.

1843– دوق أومال ولاموريسيير يلقي القبض على عائلة عبد القادر الجزائري، والذي وعلى امتداد خمسة عشر عاماً قاد كافة حركات المقاومة ضد الاحتلال.

1847– استسلام الأمير عبد القادر والذي لم يكن نهاية المقاومة: ففي شرق وجنوب القسنطينة العام 1852، وفي منطقة القبائل من العام 1854 وحتى 1859، وفي وهران بين 1858 – 1859، ثم مرة أخرى في منطقة القبائل عامي 1864 و1865، حدثت انتفاضات قمعت غالباً بعنف.

1852– إعلان الإمبراطورية الثانية.

1857– الأول من يوليو، يطلق الحاكم العام راندون حملة دموية في إيفرحونن، التي كانت عائقاً أمام «فرض السلم» في منطقة

القبائل، وبتلك المعركة يتمّ الفرنسيون سيطرتهم على بلاد الجزائر.

1858– الرابع والعشرون من يونيو، استحداث وزارة الجزائر والمستعمرات، وأول الشاغلين لها هو الأمير جيروم نابوليون. هذه الوزارة لم تدم طويلاً، وأعاد مرسوم 24 نوفمبر 1860 تعيين دوق مالاكوف المارشال إيمابل بيليسيه، حاكماً عاماً للجزائر.

1860– من السابع عشر وحتى التاسع عشر من سبتمبر، يزور الإمبراطور نابوليون الثالث والإمبراطورة أوجيني ليومين مدينة الجزائر. الإمبراطور الذي عاد بانطباع جيد جداً عن السكان الأصليين، يمكث لفترة أطول في زيارة لاحقة العام 1864 (الثالث من مايو – السابع من يونيو).

1863– للمرة الأولى، مرسوم من مجلس النواب يضمن لسكان البلاد الأصليين حق امتلاك أراضيهم، يقول «إن القبائل الجزائرية تمتلك الأراضي التي تقيم فيها وتستغلها..». ولكن من دون تجريم كل عمليات القضم التي حصلت منذ العام 1830.

1865– الرابع عشر من يوليو، مرسوم نيابي أيضاً يحدد الوضع القانوني لمسلمي فرنسا: «المسلم من سكان البلاد الأصليين هو فرنسي، غير أنه يبقى خاضعاً للقانون الإسلامي. يمكنه أن يتجند في المشاة والبحرية، ويمكنه أن يشغل وظائف مدنية في الجزائر. ويمكنه بناء لطلبه أن يطلب الانضمام لفرنسا والخضوع لقوانين المواطنين الفرنسيين، وبهذه الحالة عليه الخضوع للقوانين المدنية والسياسية الفرنسية».

1870– انطلاق الكثير من الزواويين إلى الحرب ضد بروسيا مما أضعف سلطات الاحتلال في الجزائر.

سبتمبر، هزيمة سيدان وانهيار الإمبراطورية الثانية وإعلان الجمهورية الثالثة. نهاية النظام العسكري في الجزائر.

نوفمبر، مرسوم كروميه يمنح الجنسية الفرنسية وبشكل جماعي ليهود الجزائر، وهو المرسوم الذي اعتبره المسلمون تمييزياً وغيرعادل.

1871 – انتفاضة جديدة في منطقة القبائل وفي «الهضاب العليا» التي يديرها الباش آغا مقراني، أحد إقطاعيي مجانة، تضغط على السلطة، فيستغل الجيش الفرصة لإثبات قوته. مصادرات أراضٍ وغرامات عالية. المقراني يقتل في مايو.

1881– 1883– رجال «أبو عمامة» يهاجمون المراكز العسكرية غرب وهران وجنوبها قبل أن يلتجئوا إلى المغرب جارة الجزائر.

1898– الاضطرابات العرقية ضد اليهود في شهر يناير تعطي لإدوارد درومون الفرصة بالتقدم للانتخابات التشريعية. ينتخب في الثامن من مايو نائباً للدائرة الانتخابية الأولى في مقاطعة الجزائر، ويستمر حتى العام 1902 رئيساً للحزب المناهض للسامية.

1901– في مارغريت، مستوطنة صغيرة، مجموعات من الفلاحين الثائرين يبثون الرعب بين المستوطنين.

1911– مئات من وجهاء المدية يرفعون عريضة إلى مجلس النواب من أجل تحسين أوضاع المسلمين، الذين أصبحوا خاضعين للخدمة العسكرية الاجبارية. ونتيجة للمطالبات يتم إدخال سبعة

وثمانون ألفاً وخمسمائة جندي إلى السلك العسكري من أصل مائة وثلاثة وسبعين ألف جندي من السكان الأصليين شاركوا في المعارك.

1914– الأول من أغسطس، الأمر بالتعبئة العامة يثير بقوة المناطق في الجزائر، ويسقط في المعارك أكثر من خمسين ألفاً من السكان الأصليين، واثنين وعشرين ألفاً من الفرنسيين الجزائريين.

1919– قانون كليمنصو (الذي أعلن من العام 1915، كان في البداية أكثر جرأة، إنما أجّل تنفيذه لغاية انتفاء معارضة تدخل المجلس الأعلى في الجزائر)، وهو منح الجنسية الفرنسية لعدد قليل من الجزائريين من المؤيدين للفرنسيين.

نوفمبر، الأمير خالد، الابن الأصغر لعبد القادر، يحقق انتصاراً في الانتخابات البلدية في الجزائر، حيث اكتسحت لائحته جماهير السكان الأصليين وبعد تدخل رئيس لائحة منافسة، الطبيب بلقاسم بن تامي، يقوم مستشار محافظ ولاية الجزائر بإلغاء نتائج الاقتراع بحجة أن المتنافسين الخالديين انتهكوا المبادئ العلمانية للجمهورية بمرافعات مرابطية! نفي الأمير العام 1923.

1929– الجمعية التأسيسية للحزب الأول المستقل بشكل كامل، «نجمة شمال افريقيا». في العام التالي أسس بمبادرة من فرحات بلعباس اتحاد المنتخَبين الجزائريين، والذي يقوم برنامجه على التساوي في الحقوق والواجبات بين سكان المستعمرات أياً تكن جذورهم وديانتهم.

1930- مئوية غزو الجزائر. في تونس والجزائر وبحضور الرئيس غاستون دوميرغ، أقيمت احتفالات باذخة تؤكد على السلطة الكولونالية المطلقة شمال أفريقيا.

1931- بما أنه كان بالنسبة لفرحات عباس «لا وجود للوطن الجزائري» أسس الشيخ بن باديس «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين» والتي كان شعارها «العربية لغتي، والجزائر وطني والاسلام ديني».

1934- أحداث خطيرة بين الطائفتين المسلمة واليهودية في القسنطينة: 27 قتيلاً، وتدخل الجيش وفرض حظر التجول.

1936- إنشاء الجبهة الشعبية.

يونيو، اندماج بين اتحاد المنتخَبين وجمعية العلماء لتأسيس المؤتمر الإسلامي الجزائري.

نوفمبر، «مشروع فيوليت» المدعوم من قبل ليون بلوم الذي يسعى إلى دمج أفضل للجزائريين في الجمهورية، والذي يواجه برفض كبير من قبل معظم المستوطنين.

1940- إبطال مرسوم كروميو 1870. ثم إعادة العمل به مع زيارة ديغول للجزائر.

1942- الإنزال البريطاني - الأمريكي في مدينة الجزائر.

1943- مايو، وصول الجنرال ديغول، الذي أعلن بسرعة عن إصلاحات في الجزائر: فتح الباب بشكل أوسع أمام إعطاء الجنسية الفرنسية وحقوق التصويت، وفي مرحلة ثانية لكل الجزائريين ما فوق الواحد والعشرين عاماً (خطاب القسنطينة).

1945- الثامن من يونيو في سطيف وقالمة وقسنطينة، تظاهرات تقمع بقوة وتوقع آلاف الضحايا. هذه الأحداث التي وقعت في اليوم نفسه الذي كانت تحتفل فيه أوروبا بالنصر على النازية، ولدت وعياً اكبرمن ذي قبل لدى الأجيال الجديدة.

1946- أبريل، فرحات عباس يؤسس «الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري»، ومصالي الحاج «حركة انتصار الحريات الديمقراطية».

1947- يقرّ مجلس النواب قانون إنشاء مجلس جزائري تشريعي يتكون من 120 عضواً تشكله جماعتان. وهو القانون الذي لاقى رفضاً جماعياً من قبل النواب المسلمين الجزائريين.

1954- مارس تأسيس «اللجنة الثورية للوحدة والعمل» والتي كان هدفها التحضير للانتفاضة المسلحة. وبضمها في الخريف قيادات من الحركة الوطنية، أصبحت في نوفمبر ما يعرف بـ»جبهة التحرير الوطني».

ليل 31 أكتوبر، الأول من نوفمبر، سلسلة من الاعتداءات ضد المؤسسات العامة. وفي اليوم التالي اغتيال مدرس شاب وقائد في منطقة باتنة: «يوم عيد جميع القديسين الدموي» الذي أعلن انطلاق النضال المسلح من أجل الاستقلال. فرنسا تحل «حركة انتصار الحريات الديمقراطية» وتعتقل العديد من القادة الوطنيين.

1955- يناير الوضع في الجزائر يسبّب أزمة سياسية في فرنسا، إذ رفض مجلس النواب إعطاء الثقة لبيار منِدس فرانس وفضل إدغار فور. جاك سوستيل، الحاكم العام الجديد يصل إلى الجزائر مع ثلة من الإصلاحات التي عارضها معظم المستوطنين.

في الجزائر تكثفت الاعتداءات (123 قتيلاً في فيليبفيل) وعمليات القمع تحصد أكثر من ألف من الضحايا. اعلان حالة الطوارئ في أبريل وانتقال الأزمة الجزائرية إلى الأمم المتحدة.

1956 فبراير، في حين تم استدعاء سوستيل إلى باريس، تم استقبال الجنرال كاترو، المعين في وزارة الجزائر الجديدة، بالغضب وبقذف كل أنواع الخضار في وجه الزائر الجديد: إنه «يوم الطماطم».

استقالة كاترو الذي خلفه لاكوست.

زيادة عديد القوات العسكرية إلى أكثر من أربعمائة ألف عنصر في الصيف.

مفاوضات سرية مع جبهة التحرير الوطني في دول ليست أعضاء في الاتحاد الاوروبي، قطعت بعملية اختطاف طائرة قادة الثورة بن بلة، آيت أحمد، بوضياف، خيذر، لشرف في 22 أكتوبر، مما أدى إلى إضراب عام للتجار المسلمين.

1957– يناير ومرة اخرى في الربيع، سلسلة من الاعتداءات في المقاهي في مدينة الجزائر وكازينو لا كورنيش، والتي رد عليها مظليو الجنرال ماسو بعنف. بدء التوقيفات الاعتباطية، والتعذيب والإعدامات السريعة في العاصمة.

1958– الثامن من فبراير الطيران الفرنسي، ورداً على عمليات هجوم انطلاقاً من الأراضي التونسية، يقصف القرية الحدودية ساقية سيدي يوسف. ردة الفعل الكبيرة تؤدي إلى تدويل الصراع.

13 مايو، تظاهرة شعبية دعماً لفرنسا أمام مبنى الحاكم العام في الجزائر. يوم «الصداقة» يبدأ بنهب المبنى وإحراق المكتبة.

4 يونيو، الجنرال ديغول رئيساً للوزراء مدعوماً بكامل سلطات رئيس

الجمهورية، يزور الجزائر ويطلق خطابه الشهير: «لقد فهمتكم!».

19 سبتمبر، جبهة التحرير الوطني تعلن إنشاء الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية تحت قيادة فرحات عباس.

3 أكتوبر، من القسنطينة، يعلن ديغول، وبأمل إعادة إطلاق العملية السياسية والإدارية، خطة خمسية لإجراء تغييرات عميقة.

1959 الثامن من يناير، الرئيس رينيه كوتي يخلي كرسيه لديغول، وتعيين ميشال دوبريه رئيساً للحكومة. الجنرال ديغول وبول دلوفرييه يتكفلان كل في مجاله بإيجاد حل للأزمة الجزائرية.

في الخريف، تعلن الحكومة الجزائرية المؤقتة استعدادها للتفاوض. ديغول يعد الشعب الجزائري باستفتاء لتقرير المصير وهو ما قوبل برفض شديد من قبل مؤيدي الجزائر الفرنسية، أدى استفحاله إلى استدعاء الجنرال ماسو إلى فرنسا. دعم محدود لاقتراح باستقلال الجزائر في الأمم المتحدة.

1960– يناير، «أسبوع المتاريس». الجيش المقسوم التحق بوقت متأخر برئيس الجمهورية. ديغول يقصي شال المتهم بالخداع.

يونيو، محادثات ميلون تتوقف بشكل مفاجئ.

1961– استفتاء يعطي ديغول الصلاحية الكاملة لحل الصراع بشكل عاجل والحكومة الجزائرية المؤقتة تعلن استعدادها للتفاوض. انقلاب الجنرالات شال وزيلر وسالان وجوهاد (21 ابريل) وضع الجمهورية في خطر ويؤدي إلى عودة الاعتداءات. محادثات في إيفيان ولوغرين، تنطلق بصعوبة في مايو، وتؤجل مراراً.

سالان على رأس «منظمة الجيش السري».

1962 – تصاعد الاعتداءات على جبهتي المتوسط. الرأي العام الفرنسي، التعب من الحرب والمصدوم بدموية منظمة الجيش السري يؤيد سلاماً فورياً.

مارس، المؤتمر الثاني في إيفيان والذي يؤدي في النهاية إلى اتفاق بين حكومة الجزائر المؤقتة والحكومة الفرنسية. توقيع اتفاق لوقف إطلاق النار ولكن منظمة الجيش السري تصعد عملياتها.

في السادس والعشرين، يطلق الجيش النار على حشود أوروبية تتظاهر في شارع إيسلي في الجزائر.

الثالث من يوليو، اليوم الأول من الاستقلال الجزائري. فرنسيو الجزائر، بأغلبيتهم العامة، يغادرون الجزائر.

نبذة عن المترجمة:

ولدت ضياء حيدر في جبيل، لبنان. درست الإعلام والتوثيق في الجامعة اللبنانية، وعملت في الصحافة اللبنانية بين عامي 1996 و2005، قبل أن تنتقل للعمل والعيش في الإمارات، حيث تعمل في مجال الترجمة والصحافة الإلكترونية. لها في الترجمة: "سلاحف بوليلنغا"، "في بلاد تيتو"، "زيبولين الصغيرة جداً"، وغيرها.

الأرواح المحرمة

فجأة ودون سابق إنذار وجدت نفسي غارقة بالدموع وقد تحولت عيناي بلحظة إلى نهرٍ وحلقي إلى بحيرة دموع برائحة البهارات والخضراوات المجففة والبرقوق، كل روائح البقالة، البسكويت والرقاقات المحشوة في العلب ذات الطبقات، البن المطحون، السكر، حديد العلب الحافظة، كل ما يصنع حياة البشر، الدموع وسط كل ذلك؟ لماذا يا إلهي؟ لأن رجلاً رحل عنكِ وما عاد موجوداً لا على الأرض ولا في الليل؟ ما عاد عليك أن تخجلي عندما يقبض عليك شعور مفاجئ بأن كائناً بكل آماله وأحلامه وكل عالمه اختفى وأن الظلم سيلحق بك أنت أيضاً، أليس ذلك هو المنفى؟






9 789948 018537





المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة